



نيل جايمان

كتاب المقبرة



ترجمة أحمد خالد توفيق

طبعة خاصة
مصحوبة برسوم
للفنان
دايف ماكين



كتاب المقبرة

تأليف : نيل جايمان

ترجمة : أحمد خالد توفيق

تحويل وتنسيق

د/ حازم مسعود

جوائز حصل عليها «كتاب المقبرة»

• «ميدالية كارنِجي»، 2010
• «ميدالية نيوبري»، 2009
• جائزة «هيوجو» لأفضل رواية، 2009
• جائزة «لوكاس» لأفضل كتاب لليافعين، 2009
• جائزة «سيبلز» للخيال والخيال العلمي، 2008
• جائزة «اتحاد المكتبات العامة الأمريكية» لأفضل عمل لليافعين
• قائمة «اتحاد المكتبات العامة الأمريكية» لكتب الأطفال المتميزة
• قائمة «مائة عنوان للقراءة والمشاركة» في «مكتبة نيويورك العامة»
• قائمة «مكتبة نيويورك العامة» لكتب الشباب
• مرتبة الشرف من جائزة «بوسطن جلوب-هورن للكتب»

اقرع بعظامه
فوق الصخور
فهو مجرد صعلوك
لا ينتمي لأحد

أغنية أطفال تقليدية

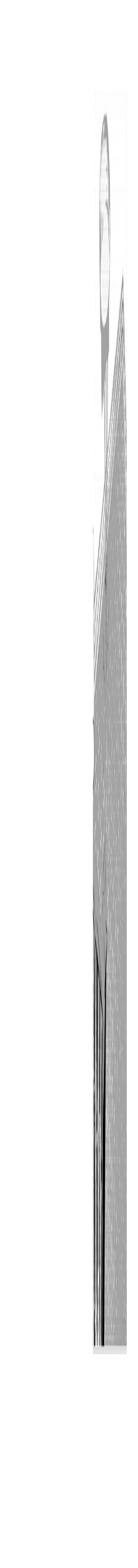
الفصل الأول
كيف لم يأتِ أحد للمقبرة

كانت هناك يد في الظلام، وكانت تحمل سكينًا.

كان للسكين مقبض من العاج الأسودِ المصقول ونصل أكثر حدة ودقة من أي موسى. لو أن هذه السكين جرحتك فلن تعرف أنك جُرحت.. ليس على الفور.

لقد قامت السكين بكل شيء جاءت إلى هذا البيت لتقوم به. وقد تبلل النصل والمقبض.

كان الباب المؤدي للشارع ما زال مفتوحًا قليلًا، حيث دخلت السكين والرجل الذي يحملها، وتسللت بعض خيوط من ضباب الليل إلى البيت عبر الباب المفتوح.







توقف الرجل المدعو «جاك» عند أعلى الدَّرج. بيده اليسرى جذب منديلًا كبيرًا أبيض من جيب معطفه الأسود، ومسح السكين ويده اليمنى التي يلفها القفاز والتي كانت تمسكها، ثم ألقى بالمنديل بعيدًا. لقد انتهى الصيد تقريبًا. ترك المرأة في فراشها والرجل على أرض غرفة النوم، والطفلة الكبرى في غرفتها ذات الألوان الزاهية، وحولها ألعابها ونماذج نصف منتهية. هكذا لم يبقَ سوى الصغير الذي هو رضيع تقريبًا كي يتم القضاء عليه. جثة أخرى ويكون قد أتم المهمة.

ثنى أنامله. كان الرجل المدعو «جاك» قبل كل شيء محترفًا أو هكذا قال لنفسه. لن يسمح لنفسه بأن يبتسم حتى تتم المهمة. كان شعره أسود

وعيناه داكنتين، وكان يلبس قفازين أسودين من جلد الحمَل الرقيق. كانت غرفة الرضيع في أعلى البيت. مشى الرجل المدعو «جاك» صاعدًا الدَّرج وقدماه صامتتان فوق البساط. ثم إنه فتح باب العليَّة وخطا للداخل. كان حذاؤه من الجلد الأسود البراق وكان يلمع كأنه مرآة داكنة. يمكنك أن ترى فيه القمر منعكسًا نصف مكتمل.



بزغ القمر الحقيقي عبر النافذة ذات القضبان. لم يكن ضوؤه ساطعًا وقد شتته الضباب، لكن الرجل المدعو «جاك» لم يكن بحاجة لأي ضوء كثير. ضوء القمر كافٍ. سيصلح.

كان بوسعه أن يتبين شكل الطفل في المهد. الرأس والأطراف والصدر. كانت للمهد جوانب عالية مائلة لتمنع الطفل من الخروج. انحنى «جاك» ورفع يده اليمنى التي تمسك بالسكين وصوب نحو الصدر...

... ثم خفض يده. الشيء الذي في المهد كان دبًّا من الفراء. لا يوجد طفل.

اعتادت عينا الرجل المدعو «جاك» ضوء القمر الشاحب، لذا لم يرغب في أن يضيء الضوء الكهربي. ولم يكن الضوء مهمًّا على كل حال، فلديه مهارات أخرى.

تشمم الرجل المدعو «جاك» الهواء. تجاهل الروائح التي تسربت للغرفة معه، وتجاهل الروائح التي يمكنه تجاهلها بلا خطر. وبحث عن رائحة الشيء الذي جاء من أجله. استطاع أن يشم الطفل، رائحة تشبه اللبن، مثل سكاكر الشوكولاتة، ورائحة الحفاضات الرطبة. كان بوسعه أن يشم الشامبو في شعر الطفل، ورائحة شيء صغير مطاطي ـ فكر: لعبة على الأرجح، ثم: لا، بل هي رائحة شيء يمتصه الطفل ـ كان يحمله معه.

الطفل كان هنا، كان هنا منذ فترة قصيرة. اقتفى الرجل المدعو «جاك» الرائحة أسفل الدَّرج عابرًا البيت الطويل الضيق. تفقد الحمام والمطبخ والخزانة، وفي النهاية بئر السلم فلم يرَ فيها سوى دراجات الأسرة وكومة من حقائب التسوق وحفاضة ساقطة، وخيوط الضباب التي تسربت عبر الباب المفتوح من الشارع.

أصدر الرجل المدعو «جاك» جلبة خفيفة، ونخر بأنفه بصوت يجمع بين الإحباط والرضا. دس السكين في غمدها في جيب معطفه الطويل، وخطا للشارع.
كان هناك ضوء القمر، وأضواء الشارع، لكن الضباب خنق كل شيء. غطى الضوء وأخرس الأصوات وجعل الليل مليئًا بالظلال وغادرًا. نظر أسفل التل إلى أضواء المتاجر المغلقة ثم إلى أعلى الشارع حيث التفَّت البيوت الشامخة في طريقها نحو المقبرة القديمة. تشمم الرجل المدعو «جاك» الهواء، ثم بلا عجلة بدأ يصعد التل.
منذ تعلم الطفل كيف يمشي، صار مصدر سرور وإحباط لأبويه، لكنْ لم يكن هناك طفل مثله في التجوال وتسلقِ الأشياء والدخول والخروج. في تلك الليلة أيقظته أصوات شيء على الأرض تحته يسقط متهشمًا. نهض شاعرًا بالملل وراح يبحث عن طريقة لمغادرة المهد. كانت جوانبه عالية كجوانب غرفة اللعب الخاصة به بالطابق السفلي، لكنه كان مقتنعًا بقدرته على تجاوزها. كل ما يحتاج له هو عتبة، جذب الدب الذهبي الكبير ذا الفراء إلى الركن ثم تمسك بالقضبان بيديه الصغيرتين، ووضع قدمه على الدب والقدم الأخرى على رأسه وجذب نفسه إلى وضع الوقوف. من ثم تسلق وعبر فوق الحاجز وخارج المهد.
هبط بارتطام مكتوم على كومة صغيرة من الألعاب ذات الفراء، بعضها كان هدايا من أقاربه في عيد ميلاده الأول، الذي لم تمر عليه ستة أشهر بعد. وبعضها ورثه من أخته الكبرى. دهش عندما ارتطم بالأرض لكنه لم يصرخ، لو أنك صرخت لجاءوا وأعادوك للمهد. هكذا زحف خارجًا من الغرفة.
كانت الدرجات الصاعدة شيئًا مراوغًا ولم يكن هو قد أجاد التعامل معها. أما الدرجات الهابطة فقد كانت سهلة كما اكتشف. نزل عليها بالجلوس درجة درجة على مؤخرته المبطنة جيدًا.
راح يمتص دميته التي بدأت أمه تقول له إنه صار أكبر من اللعب بها. وكانت كافولته قد تحررت أثناء رحلته عبر الدَّرج، وعندما بلغ آخر درجة وعندما وقف سقطت الكافولة. خرج منها، لم يكن يلبس سوى منامة أطفال. كانت الدرجات التي تقود لغرفته وأسرته منحدرة ومخيفة، لكن الباب الذي يقود للشارع كان مفتوحًا ومغريًا.
خطا الطفل خارج البيت مترددًا نوعًا. أحاط به الضباب كأنه صديق قديم منسي. وبدأ الطفل يرقى التل مرتبكًا في البداية، ثم مع مزيد من السرعة والثقة.

* * *

الضباب كان أخف كلما ارتقيت التل. وسطع الهلال، ليس في سطوع النهار، لكنه يسمح لك برؤية المقبرة وهذا يكفي.
انظر.
يمكنك أن ترى الكنيسة الجنائزية المهجورة والأبواب الحديدية الموصدة، ونبات اللبلاب على جوانب العشب، وشجرة صغيرة تنمو عند مستوى السقف.
يمكنك أن ترى الأحجار والمقابر والقباب واللوحات التذكارية. يمكنك أن ترى

جحر أرنب أو عرسة تندفع عبر النباتات وتعبر الطريق.
كان بوسعك أن ترى هذه الأشياء في ضوء القمر لو أنك كنت هناك في تلك الليلة.
ما كنت لترى امرأة ممتلئة شاحبة تمشي في الممر قرب البوابات الأمامية، ولو أنك دققت فيها بنظرة فاحصة ثانية، لوجدت أنها ليست سوى ضوء قمر وضباب وظلال. المرأة الممتلئة كانت هناك برغم هذا، كانت تمشي في الممر الذي يعبر وسط شواهد قبور متهدمة نحو البوابات الأمامية.
كانت البوابات موصدة. كانت دومًا موصدة منذ الرابعة عصرًا في الشتاء، والثامنة مساء في الصيف. كان هناك سياج حديدي مسنن يلتف حول جزء من المقبرة، وجدار عالٍ من القرميد حول باقيها. كانت درفتا البوابة متلاصقتين يمكن أن تمنعا رجلًا بالغًا من العبور أو طفلًا في العاشرة.
صاحت المرأة الشاحبة بصوت كأنه الريح تهب عبر الأعشاب الطويلة:
ـ «أوينز»! تعالَ وانظر لهذا!
واحتبت ونظرت لشيء على الأرض بينما تحركت بقعة ظل في ضوء القمر، لتظهر أنها رجل مغبر في منتصف الأربعينيات. نظر لزوجته ثم نظر إلى ما تنظر له وحك رأسه.
قال الرجل:
ـ سيدة «أوينز»؟ هل هذا ما أعتقد أنه هو؟
كان قد جاء من عصر كانت فيه التقاليد أكثر تحفظًا من عصرنا. وفي هذه اللحظة بدا أن الشيء الذي يتفحصه قد رأى مسز «أوينز»، لأنه فتح فاه وترك الحلمة المطاطية التي كان يمتصها تسقط. ثم إنه مد قبضة مكتنزة صغيرة يحاول بها جاهدًا أن يتشبث بإصبع مسز «أوينز» الشاحبة.
قال مستر «أوينز»:
ـ فلْأكُن أحمق إن لم يكن هذا طفلًا.
قالت مسز «أوينز»:
ـ بالطبع هو طفل، السؤال هو ما نفعله به؟
قال زوجها:
ـ أجسر على القول إن هذا هو السؤال يا سيدة «أوينز». برغم ذلك هو ليس سؤالنا، لأن هذا الطفل حي بما لا يقبل الشك، لهذا لا علاقة له بنا وليس جزءًا من عالمنا.
قالت مسز «أوينز»:
ـ انظر إليه، إنه يبتسم! ابتسامته جميلة جدًّا.
وبيد غير مادية، ملست على شعر الطفل الأشقر الخفيف. قهقه الطفل في سرور.
هبت ريح باردة عبر المقبرة وبعثرت الضباب في منحدرات المكان (لأن المقبرة كانت تغطي قمة التل وكانت ممراتها تلتف حوله). دوى صوت ضجيج. شخص عند البوابة الرئيسية للمقبرة كان يهزها، فتقعقع كل مِن البوابة العتيقة والقفل الثقيل والجنزير الذي يربطها.

قال «أوينز»:
ـ ها هي ذي أسرة الصغير جاءت لتسترده إلى صدرها العطوف. دعي الرجل الصغير يرحل.
أضاف هذا لأن مسز «أوينز» كانت تضع يديها غير الماديتين حول الرضيع، وهي تهدهده وتمسحه.
قالت مسز «أوينز»:
ـ لا يبدو كأنه من أسرةٍ ما هذا القادم.
كان الرجل ذو المعطف الأسود قد تخلى عن هز البوابات وراح يتفقد البوابة الصغرى، هي كذلك كانت موصدة. هناك بعض التخريب تم في المقبرة العام الماضي وقد اتخذ مجلس المدينة بعض الإجراءات.
قال مستر «أوينز»:
ـ هلم يا مسز «أوينز»، دعيه وشأنه.
لقد رأى شبحًا فانفتح فمه ووجد نفسه عاجزًا عن قول شيء. يمكنك أن تعتقد ـ ومعك حق لو فعلت ـ أن مستر «أوينز» لا يجب أن يُؤخذ هكذا لدى رؤية شبح، باعتبار أن مستر ومسز «أوينز» هما أنفسهما ميتان وكانا كذلك منذ مئات الأعوام. وباعتبار أن حياتيهما الاجتماعية كلها أو معظمها قد تم قضاؤها مع الموتى. لكنْ كان هناك فارق بين قوم المقبرة وهذا الشبح. شكل خام مخيف يتوهج باللون الرمادي لاستاتيكية التلفزيون، والرعب والعاطفة اللذان أغرقا آل «أوينز» كأنهما منهما. ثلاثة أشكال، اثنان كبيران وواحد أصغر، لكن واحدًا منهم فقط ظل في البؤرة، وبدا أوضح من مجرد شكل خارجي أو وميض.
قال الشكل: «طفلي! يحاول أن يؤذي طفلي!».
ضوضاء! الرجل بالخارج كان يطوِّح سلة مهملات معدنية ثقيلة عبر الزقاق إلى جدار القرميد الأحمر الذي يلتف حول هذا الجزء من المقبرة.
قال الشبح الذي خطر لمسز «أوينز» أنه امرأة ـ بالتأكيد أم الطفل:
ـ احموا طفلي!
سألت مسز «أوينز»:
ـ ماذا فعل لكم؟
لكنها لم تكن متأكدة أن بوسع الشبح سماعها. فكرت: «ماتوا منذ وقت قريب، المساكين». من الأسهل دومًا أن تموت بلطف وأن تصحو عندما يحين الوقت في مكان دفنك، وأن تتأقلم مع موتك وتتعرف على باقي السكان. هذه المخلوقة لم تكن سوى هلعة وخائفة على طفلها، وذعرها الذي بدا لـ«أوينز» كصرخة خفيضة قد بدأ يجذب الانتباه، لأن هناك أشكالًا شاحبة تأتي من أرجاء المقبرة.
سأل «كايوس بومبيوس» الشبحَ:
ـ من أنت؟
لم يعد شاهدُ قبر «كايوس بومبيوس» سوى كتلة صخرية أفنتها عوامل التعرية. لكنْ منذ ألفَي عام كان قد طلب أن يرقدوه جوار الضريح الرخامي بدلًا من أن يرسلوا جسده لروما، وكان من أقدم مُواطني المقبرة. وقد تولى

مسؤولياته بجدية بالغة:
ـ هل أنتِ مدفونة هنا؟
قالت مسز «أوينز»:
ـ بالتأكيد لا، واضح أنها ماتت لتوها.
ووضعت ذراعها على طيف المرأة وتكلمت معها بشكل شخصي وصوت خفيض هادئ متعقل. دوى صوت ارتطام وتحطُّم شيءٍ من الجدار العالي جوار الزقاق. لقد سقطت سلة المهملات وتسلق رجل إلى أعلى الجدار، على أضواء الشارع التي يضيئها الضباب. توقف للحظة ثم بدأ يهبط على الجانب الآخر متمسكًا بقمة الجدار، وقدماه تتدليان. ثم ترك نفسه ليسقط آخر أقدام قليلة، ليهبط في المقبرة.
قالت مسز «أوينز» للطيف الذي بقي وحده ضمن الأطياف الثلاثة التي ظهرت في المقبرة:
ـ لكنْ يا عزيزتي، إنه حي ونحن لا، هل تتخيلين هذا؟
كان الطفل ينظر نحوهم مندهشًا. مد يده محاولًا مسك أحدهم لكنه لم يمسك سوى الهواء. كان شكل المرأة يتلاشى بسرعة.
ـ نعم.
قالتها مسز «أوينز» مستجيبة لشيء لم يسمعه سواها:
ـ لو استطعنا فلسوف نفعل.
ثم استدارت للرجل جوارها وقالت:
ـ وأنت يا «أوينز»؟ هل تصير أبًا لهذا الشاب الصغير؟
قال «أوينز» وقد تجعد حاجباه:
ـ أنا ماذا؟
قالت الزوجة:
ـ لم يكن لدينا طفل قَطُّ، وأمه تريد أن نحميه، هلا قلت نعم؟
كان الرجل ذو المعطف الأسود قد تعثر وسط أشجار اللبلاب المتشابكة وشواهد القبور نصف المهشمة. نهض على قدميه ومشى بحذر فأفزع بومة، فرت في صمت. رأى الطفل فظهر الانتصار في عينيه.
كان «أوينز» يعرف ما تفكر فيه زوجته عندما تكلمت بهذه النبرة. لم يكونا زوجين طوال ٢٥٠ عامًا في الموت والحياة بلا مقابل. سألها:
ـ هل أنتِ متأكدة؟
قالت مسز «أوينز»:
ـ متأكدة كما أنا متأكدة من أي شيء.
ـ إذن ليكن، ستكونين أمه وأكون أباه.
سألت مسز «أوينز» الشبح الوامض في المقبرة والذي تلاشت معالمه تمامًا:
ـ هل سمعت هذا؟
قال الشبح شيئًا لم يسمعه سواها ثم اختفى.
قالت مسز «أوينز»:
ـ لن تعود ثانية، عندما تفيق المرة المقبلة ستكون في قبرها، أو حيثما هي

ذاهبة.
انحنت مسز «أوينز» على الطفل ومدت ذراعيها وقالت بدفء:
ـ تعالَ، تعالَ لماما.
بدا الأمر للرجل المدعو «جاك»، الذي يمشي عبر المقبرة نحوهم، والسكين في يده، كأنه دوامة من ضباب التفت حول الطفل. رمش بعينيه وتشمم الهواء. شيء ما قد حدث، لكنه لا يعرف ما هو. زمجر في مؤخرة حلقه كوحش أو فريسة، غاضبًا محبطًا.
نادى الرجل المدعو «جاك»:
ـ هيه؟
وخطر له أن الطفل قد توارى وراء شيء ما. كان صوته قاتمًا خشنًا، وكان فيه شيء غريب كأنما هذا بدافع الدهشة أو المفاجأة لسماع نفسه يتكلم. إن المقبرة احتفظت بأسرارها. عاد يصيح ثانية:
ـ هيه!
وتمنى أن يسمع بكاء الطفل أو يسمعه ينطق نصف كلمة أو يتحرك. لكنه لم يتوقع قَطُّ ما سمعه، هذا صوت.. صوت ناعم كالحرير، يقول:
ـ هل لي أن أساعدك؟
كان «جاك» فارع الطول، لكن الرجل كان أطول. كان الرجل المدعو «جاك» يلبس ثيابًا داكنة، لكن ثياب الرجل كانت أكثر سوادًا. كان الناس الذين يلاحظون «جاك» وهو يمارس عمله ـ وهو لم يكن يحب أن يلاحظه أحد ـ يتعرضون للمتاعب أو يشعرون بعدم الراحة أو يصيبهم الهلع بما لا يُقاس. نظر الرجل المدعو «جاك» إلى الغريب، هنا كان الرجل المدعو «جاك» هو من شعر بالقلق.
قال الرجل المدعو «جاك» وهو يدس يده اليمنى في جيب المعطف ـ السكين مخفية، لكنها هناك إن احتاجها:
ـ كنت أبحث عن شخص ما.
قال الغريب في جفاف:
ـ في مقبرة مغلقة، ليلًا؟
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ هو مجرد طفل، كنت مارًّا عندما سمعت بكاء طفل، ونظرت عبر البوابة فرأيته، ماذا يفعل أي شخص آخر؟
قال الغريب:
ـ أحيي روحك الجماعية، لكنْ لو وجدت هذا الطفل فكيف كنت تنوي المغادرة من هنا؟ لا يمكنك تسلق الجدار وأنت تمسك بطفل.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ كنت سأنادي حتى يخرجني أحدهم.
دوى صوت مفاتيح ثقيل وقال الغريب:
ـ حسن، كنت ستناديني أنا عندئذ، وكنت سأخرجك.
وانتقى مفتاحًا كبيرًا وقال:

ـ اتبعني.
مشى الرجل المدعو «جاك» خلف الغريب وأخرج السكين من جيبه، وسأل:
ـ هل أنت الحانوتي إذن؟
ـ أنا؟ بالتأكيد.. بشكل أو بآخر.
كانا يمشيان نحو البوابة، وكان الرجل المدعو «جاك» واثقًا من أنهما يبتعدان عن الطفل. لكن الحانوتي كان يملك المفاتيح. سكين في الظلام، هذا هو كل ما تحتاج له الأمور. ثم يمكنه أن يبحث عن الطفل طوال الليل لو أراد.
رفع السكين.
هنا قال الغريب دون أن ينظر للخلف:
ـ لو كان هناك طفل لن يكون هنا في المقبرة. ربما أخطأت، من الصعب أن يأتي طفل هنا على كل حال. من الأرجح أنك سمعت طائرًا ليليًّا ورأيت قطًّا وربما ثعلبًا. لقد اعتبروا هذا المكان محمية طبيعية منذ ٣٠ عامًا كما تعلم، في زمن آخِر جنازة جاءت هنا. فكِّر بحذر وقل لي إنك واثق من أنك رأيت طفلًا.
فكر الرجل المدعو «جاك».
فتح الغريب البوابة الجانبية وقال:
ـ ثعالب، إنها تُصدر أكثر الأصوات غرابة، ربما تبدو كشخص يبكي. إن زيارتك لهذه المقبرة خطوة خاطئة يا سيد. الطفل الذي تبحث عنه ينتظر في مكان ما لكنْ ليس هنا.
ثم ترك الفكرة تستقر في رأس الرجل المدعو «جاك» للحظة قبل أن يفتح البوابة وقال:
ـ مسرور لمعرفتك، وأثق أنك ستجد كل ما تريد هناك.
وقف الرجل المدعو «جاك» جوار بوابة المقبرة، ووقف الغريب بداخلها وأعاد غلقها وأخفى المفتاح.
سأله الرجل المدعو «جاك»:
ـ إلى أين أنت ذاهب؟
قال الغريب:
ـ هناك بوابات أخرى غير هذه، سيارتي على الجانب الآخر من التل. لا تقلق عليَّ. بل لا تتذكر حتى هذه المحاورة.
قال الرجل المدعو «جاك» موافقًا:
ـ لا.
وتذكر رحلته للتل وأن ما حسبه طفلًا لم يكن سوى ثعلب، وأن حانوتيًّا متعاونًا أعاده للشارع. أعاد السكين لغمدها وقال:
ـ حسن.. عمت مساء.
قال الغريب الذي اعتبره «جاك» حانوتيًّا:
ـ عمت مساء.
وانطلق «جاك» نازلًا التل بحثًا عن الطفل.
من الظلال راقب الغريب «جاك» حتى توارى عن العيان. ثم تحرك عبر الظلام نحو الموضع المسطح تحت التل. مكانٌ تبرز فيه مسلة وصخرة مسطحة في

ذكرى «جوزياه ورثنجتون» صانع الخمور بالبلدة والسياسي والبارون، والذي ابتاع ـ منذ ٣٠٠ سنة ـ هذه المقبرة القديمة والأرض حولها، وتبرع بها للبلدة. كان قد احتفظ لنفسه بأفضل مكان في التل؛ مَدرج طبيعي يكشف البلدة كلها، وتأكد أن المقبرة ستظل مقبرة، وهو ما امتن له السكان، لكنهم لم يمتنوا مثلما توقع «جوزياه ورثنجتون» أن يفعلوا.

كان يقال إنهم عشرة آلاف في المقبرة، لكن أكثرهم كان تحت عمق كبير أو لم يكن مهتمًّا بشؤون المكان الليلية. وكان عدد أقل من ٣٠٠ منهم هناك في المَدرج في ضوء القمر. دنا منهم الغريب صامتًا كأنه الضباب نفسه، وراح يراقب الجماعات تظهر عبر الظلال ولم يتكلم.

كان «جوزياه ورثنجتون» يتكلم. قال:

ـ يا سيدتي العزيزة، إن تعنتكِ لشديد، ألا ترين كم أنه سخيف؟

قالت مسز «أوينز»:

ـ نعم، لا أرى ذلك.

كانت تجلس القرفصاء على الأرض والطفل الحي يغفو في حجرها. راحت تملس على رأسه بيدها الشاحبة.

قال مستر «أوينز» وهو يقف جوارها:

ـ ما تريد السيدة «أوينز» قوله يا سيدي، لو سمحت سعادتك بذلك، هو أنها لا ترى الأمور بهذه الطريقة، بل ترى الأمر جزءًا من واجبها.

كان السيد «أوينز» قد رأى «جوزياه ورثنجتون» لحمًا ودمًا عندما كان كلاهما حيًّا، وقد صنع له قطعًا من الأثاث الجميل لبيته في الضيعة قرب إنجلسهام، وهو ما زال يحمل له الكثير من الإجلال.

هز «جوزياه ورثنجتون» رأسه كأنما يطرد نسيج عنكبوت وقال:

ـ واجبها؟ واجبكِ يا مدام هو نحو المقبرة وهذا الحشد من الأرواح غير ذات الجسد والأشباح. واجبكِ هو أن تُرجعي هذا المخلوق بأسرع ما يمكن لبيته الطبيعي، والذي لا يوجد هنا.

قالت مسز «أوينز»:

ـ أمه منحته لي.

كأن هذا كل ما يجب قوله.

ـ سيدتي العزيزة...

قالت مسز «أوينز» وهي تنهض على قدميها:

ـ أنا لست سيدتك العزيزة، الحق يقال إنني لا أفهم لماذا أنا هنا، أتكلم مع أحمق يشبه رأسُه الكمان مثلك، بينما هذا الشاب سوف ينهض جائعًا بعد قليل وسيكون عليَّ أن أجد له طعامًا في هذه المقبرة. أريد أن أعرف.

قال «كايوس بومبيوس» بصرامة:

ـ وهي النقطة بالضبط، ماذا سوف تطعمينه؟ كيف تعنين به؟

التهبت عينا مسز «أوينز» وقالت:

ـ يمكن أن أُعنى به. وكذلك أمه، لقد أعطته لي. انظر! أنا أحتفظ به أليس كذلك؟ أنا ألمسه.

قالت «الأم ذبح»، وهي شيء عجوز رقيق ما زالت تلبس البونيه والعباءة اللتين لبستهما في حياتها ودفنت بهما:
ـ تعقلي يا «بتسي»، أين سيعيش؟
قالت مسز «أوينز»:
ـ هنا.. سوف نمنحه «حرية المقبرة».
استدارت شفتا «الأم ذبح» لتصنعا حرف O رقيقًا. ثم قالت:
ـ لكنْ، لكنْ، أنا لن...
ـ لمَ لا؟ ليست هذه أول مرة نعطي فيها «حرية المقبرة» لشخص من الخارج.
قال «كايوس بومبيوس»:
ـ هذا صحيح، لكنه لم يكن حيًّا.
وهنا أدرك الغريب أنه يُقاد للاشتراك في المحادثة سواء أحب هذا أم لا، وخطا خارج الظلال في غير حماسة كأنه رقعة من الظلام. وقال موافقًا:
ـ لا، لست كذلك، لكني أوافق على نقطة مسز «أوينز».
قال «جوزياه ورثنجتون»:
ـ هل تفعل هذا يا «سيلاس»؟
ـ أفعل في السراء والضراء، وبالتأكيد أرى أن هذا للخير، لقد أخذ مستر ومسز «أوينز» هذا الطفل تحت حمايتهما. سوف نحتاج إلى ما هو أكثر من اثنين طيبي القلب كي نربي الطفل. سوف يحتاج الأمر إلى مقبرة كاملة.
ـ وماذا عن الطعام وما إلى ذلك؟
قال «سيلاس»:
ـ يمكنني أن أغادر المقبرة ثم أعود، يمكنني أن أجلب له طعامًا.
قالت «الأم ذبح»:
ـ جميل أن تقول هذا، لكنك تأتي وترحل فلا يستطيع أحد أن يقتفي أثرك. لو أنك رحلت لأسبوع لمات الطفل.
قال «سيلاس»:
ـ أنتِ امرأة حكيمة، يمكنني أن أفهم لماذا يتكلمون عنكِ بكل التقدير.
ما كان يستطيع تحريك أذهان الموتى كما يفعل مع الأحياء، لكنه استطاع استعمال كل أدوات التملق والإقناع لديه، فالموتى ليسوا محصنين ضدها.
ثم إنه اتخذ قرارًا:
ـ حسن، لو صار مستر ومسز «أوينز» أبويه، فلسوف أكون راعيه. سأظل هنا ولسوف أتأكد لو رحلت من أن سواي يأخذ مكاني. يجلب للطفل الطعام ويُعنى به. يمكننا استعمال قبو الكنيسة.
جادله «جوزياه ورثنجتون»:
ـ لكنْ، لكنْ، طفل بشري، طفل حي، أعني، أعني، أعني، هذه مقبرة وليست حضانة، تبًّا.
قال «سيلاس» وهو يهز رأسه:
ـ بالضبط، نقطة ممتازة فعلًا يا سير «جوزياه». ما كنت لأضع الأمر بصورة أفضل. ولهذا السبب دون سواه يجب أن يشب الطفل من دون أن يسبب اضطرابًا ـ إذا

سمحت لي ـ لحياة المقبرة.
ثم مشى نحو مسز «أوينز» ونظر للرضيع النائم بين ذراعيها، ورفع حاجبًا:
ـ هل له اسم يا مسز «أوينز»؟
قالت:
ـ لم تخبرني أمه.
قال «سيلاس»:
ـ إذن لن ينفعه اسمه القديم على كل حال. هناك من يريدون له الأذى بالخارج. ماذا لو أطلقنا عليه اسمًا؟
تقدم «كايوس بومبيوس» وتفحص الصغير، ثم قال:
ـ يبدو مثل قنصلي «ماركوس» نوعًا، يمكن أن نسميه «ماركوس».
قال «جوزياه ورثنجتون»:
ـ يبدو مثل كبير البستانيين عندي، «ستيبنز». أنا لا أقترح هذا الاسم، كان يشرب الخمر كأنه سمكة.
قالت «الأم ذبح»:
ـ يبدو مثل ابن أخي «هاري».
وهنا بدا كأن كل المقبرة تريد أن تشارك، كل ساكن يقدم رأيه في تشابه الطفل مع شخص منسي. هنا تدخلت مسز «أوينز» بصرامة:
ـ هو لا يشبه أحدًا سوى نفسه، هو لا يبدو كأحد.
قال «سيلاس»:
ـ إذن هو «لا أحد»، «لا أحد أوينز».
هنا بدا كأن الطفل يستجيب للاسم، ففتح عينيه عن آخرهما. حملق فيما حوله يرمق وجوه الموتى والضباب والقمر. ثم نظر إلى «سيلاس»، وبدا جادًّا جدًّا.
تساءلت «الأم ذبح» مستاءة:
ـ وأي اسم هذا، «لا أحد»؟
قال لها «سيلاس»:
ـ اسمه، وهو اسم جيد كذلك، سوف يبقيه سالمًا.
قال «جوزياه ورثنجتون»:
ـ لا أريد متاعب.
نظر الطفل له ثم شاعرًا بالجوع أو التعب أو مفتقدًا أسرته، وبيته وعالمه، تقلص وجهه الرقيق وبدأ يبكي.
قال «كايوس بومبيوس» لمسز «أوينز»:
ـ اتركينا الآن، سوف نناقش هذا من دونكِ.
انتظرت مسز «أوينز» خارج الكنيسة. لقد اقتضى الأمر ٤٠ عامًا قبل أن يصير المبنى ـ الذي له شكل كنيسة صغيرة ـ مصنفًا كمبنى ذي أهمية تاريخية. قرر قنصل المدينة أنه سيكلف الكثير جدًّا في التجديد. كنيسة صغيرة وسط مقبرة عتيقة الطراز، لذا قاموا بإغلاق البوابة وانتظروا أن تتداعى من تلقاء نفسها. غطاها اللبلاب، لكنها كانت مبنية جيدًا وما كانت لتنهار هذا القرن.

كان الطفل قد نام بين ذراعَي مسز «أوينز». هزته برفق وغنت له أغنية قديمة، أغنية غنتها أمها لها عندما كانت طفلة، في تلك الأيام عندما كان الرجال يلبسون جمات شعر مستعار مغطى بالبودرة. تقول الأغنية:

نم يا طفلي الصغير... أوه
نم حتى تصحو
عندما تكبر سترى العالم
إن لم أكن مخطئة
قبِّل حبيبة
ارقص قليلًا،
جد اسمك
وكنزك المخبأ...

غنت هذا كله ثم اكتشفت أنها لا تذكر كيف تنتهي الأغنية، وكانت تشعر أن آخر مقطع هو شيء على غرار «ولحم خنزير مكسو بالشعر»، لكنْ ربما كانت هذه أغنية أخرى. لذا توقفت وبدأت تغني له أغنية عن الرجل في القمر الذي هبط مبكرًا جدًّا. بعد هذا غنت له بصوت ريفي دافئ أغنية أحدث عن صبي مد إبهامه والتقط حبة برقوق، ثم بدأت ملحمة طويلة عن سيد ريفي شاب قامت حبيبته بتسميمه ـ دون سبب واضح ـ بطبق من الحنكليس المبرقش، عندما جاء «سيلاس» من جانب الكنيسة وهو يحمل صندوقًا من الورق المقوى.

قال:

ـ هلم يا مسز «أوينز»، أشياء طيبة لطفل ينمو، يمكننا أن نبقيه في السرداب، هه؟

وفتح الباب الحديدي الذي يقود للسرداب.

مشت مسز «أوينز» للداخل وهي تنظر في ريبة للأرفف والمقاعد الخشبية العتيقة المثبتة في الجدار. كانت هناك صناديق متعفنة في ركن المكان بها سجلات كنسية. وكان هناك باب مفتوح يظهر من خلفه تواليت فكتوري وحوض فيه صنبور ماء بارد.

فتح الرضيع عينيه وحملق. فقال «سيلاس»:

ـ يمكننا وضع الطعام هنا. المكان بارد وسيظل الطعام فترة أطول.

ومد يده في الصندوق والتقط موزة.

راحت مسز «أوينز» تنظر للشيء الأصفر والبني في شك وقالت:

ـ وماذا كان ذلك عندما كان في البيت؟

قال «سيلاس»:

ـ هذه موزة، فاكهة استوائية. أعتقد أنكِ تقشرين هذا الغطاء الخارجي. هكذا.

تملص الطفل ـ «لا أحد» ـ بين ذراعَي مسز «أوينز» فأنزلته على الأرض. زحف بسرعة نحو «سيلاس» وتمسك بسرواله. أعطاه «سيلاس» الموزة.

راقبت مسز «أوينز» الطفلَ يأكل وقالت:

ـ م و ز ة، لم أسمع عنها قَطُّ، كيف مذاقها؟

قال «سيلاس»:

ـ لا أملك أدنى فكرة.
كان «سيلاس» لا يأكل إلا نوعًا واحدًا من الطعام، ولم يكن موزًا.
ـ يمكنكِ أن تعدي فراشًا هنا للطفل، تعرفين هذا.
ـ لن أفعل هذا بينما أنا و«أوينز» لدينا قبر صغير جميل جوار حوض النرجس الأصفر. هناك متسع للجميع. على كل حال...
وأضافت قبل أن يحسب «سيلاس» أنها ترفض ضيافته:
ـ لا أريد للطفل أن يضايقك.
ـ لن يفعل.

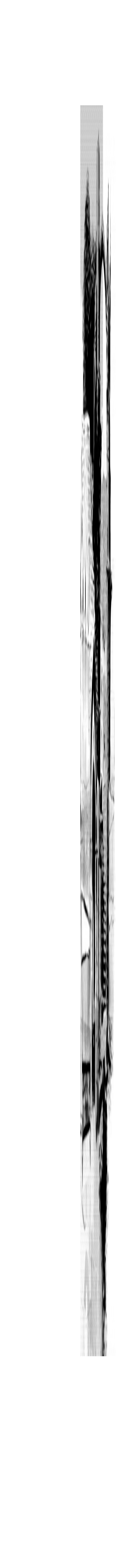
كان الطفل قد أنهى الموزة، وما لم يأكله لطخ به نفسه، وراح يلمع بخدين كالتفاح.
قال في سعادة:
ـ نارنا.
قالت مسز «أوينز»:
ـ يا له من شيء صغير بارع، ويا للفوضى التي سببها!
والتقطت قطع الموز من ثيابه وشعره، ثم قالت:
ـ ماذا تعتقد أنهم سيقررون؟
ـ لا أعرف.
ـ لا أستطيع التخلي عنه، ليس بعدما وعدت أمه.
قال «سيلاس»:
ـ برغم أنني كنت أشياء كثيرة مهمة في زمني، فإنني لم أكن أمًّا قَطُّ، ولا أنتوي أن أبدأ هذا اليوم، لكن بوسعي ترك هذا المكان.
قالت مسز «أوينز» ببساطة:
ـ لا أقدر، عظامي هنا وكذلك عظام زوجي.
قال «سيلاس»:
ـ لا بد أنه من الجميل أن يكون هناك مكانٌ تنتمين له، مكان هو وطنكِ.
لم يكن في كلامه حنين. كان صوته جافًّا كالصحراء وبدا كأنه يطرح قضية لا تناقَش. لم تجادل مسز «أوينز».
ـ هل تحسب أننا سننتظر طويلًا؟
قال «سيلاس»:
ـ ليس طويلًا.
لكنه كان مخطئًا؛ في المدرجات على جانبَي التل استمر الجدال، كانت القضية هي أن مستر ومسز «أوينز» هما المتورطان في هذا الهراء، وليس أحد المستجدين التافهين، لأن مستر ومسز «أوينز» كانا محترمين وجديرين بالاحترام. إنَّ تطوع «سيلاس» ليكون راعي الطفل كان أمرًا مهمًّا كذلك، كان الجميع يرمقون «سيلاس» بإجلال حذِر من قِبل سكان المقبرة، فهو يوجد على الحافة بين عالمهم والعالم الذي تركوه، وبرغم هذا، برغم هذا...
ليست المقابر أماكن لممارسة الديمقراطية في الأحوال الطبيعية، لكن الموت ديمقراطية عظمى، وكل واحد من الموتى له صوت ورأي يحدد ما إذا كان

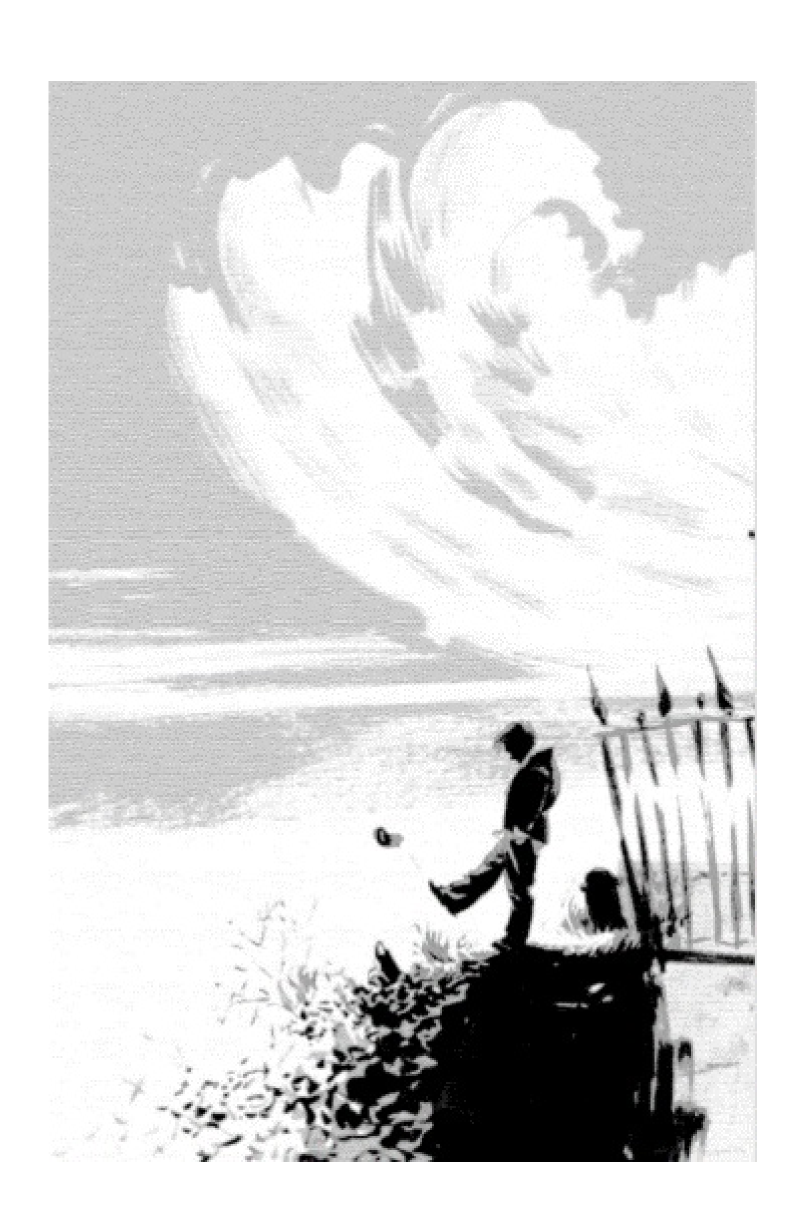
الطفل الحي سيبقى، وقد صمم الجميع على إسماع صوتهم تلك الليلة.
كان هذا آخر الخريف، عندما كان النهار يتأخر في المجيء، برغم أن السماء ما زالت مظلمة، فقد كان بوسعك سماع السيارات تهبط التل، وبينما الأحياء يقودون سياراتهم لمقارِّ عملهم في الصباح المظلم، فإن سكان المقبرة كانوا يتكلمون عن الطفل الذي جاء وما يجب عمله. ثلاثمائة صوت، ثلاثمائة رأي.
كان الشاعر «نيمياه تروت» من شمال غربيِّ المقبرة المنخفض قد بدأ يعلن رأيه. برغم أن أحدًا لم يعرف ما هو، عندما حدث شيء، شيء جعل كل الأفواه ذات الرأي تصمت، شيء لم يحدث من قبل في تاريخ هذه المقبرة.
حصان أبيض عملاق من الطراز الذي يطلق عليه خبراء الخيول «رماديًّا»، جاء عبر جانب التل، وكان بوسعك سماع حوافره قبل أن تراه، مع صوت التهشيم وهو يندفع عبر الشجيرات الصغيرة وعبر الأشواك واللبلاب على جانب التل.
كان بحجم حصان «شاير» وارتفاعه ١٩ يدًا أو أكثر. كان حصانًا قادرًا على حمل فارس بكامل دروعه إلى القتال، لكنه لم يكن يحمل على ظهره هنا سوى امرأة تتدثر من قمة رأسها لأخمصي قدميها باللون الرمادي. كان الشال الذي تضعه وتنورتها الطويلة يبدوان كأنهما من نسيج العناكب. كان وجهها هادئًا ومسالمًا.
كانوا يعرفونها، كل سكان المقبرة يعرفونها، لأن كلًّا منا يقابل السيدة التي تركب الحصان الرمادي في نهاية حياته، ومن المستحيل أن تنساها. توقف الحصان جوار المسلة، في الشرق كانت السماء تبرق بشكل خفيفٍ ما قبل الفجر، مما جعل سكان المقبرة لا يشعرون براحة ويفكرون في العودة لبيوتهم المريحة.
حتى ذلك الوقت لم يتحرك واحد منهم. كانوا يراقبون السيدة التي تركب الحصان الرمادي، وقد شعر كل منهم بإثارة شديدة وخوف شديد. إن الموتى لا يؤمنون بالخرافات، ليست قاعدة، لكنهم كانوا يرونها كما كان العرافون الرومان ينظرون لدائرة من الغربان المقدسة، يطلبون الحكمة ويطلبون العلم. عندها تكلمت معهم.
بصوت كأنه رنين مائة جرس فضي دقيق قالت:
ـ يجب أن يكون لدى الموتى إحسان.
وابتسمت. هنا توقف الحصان الذي كان يمضغ حزمة من العشب الكثيف، لمست السيدة عنقه واستدارت، خطا عدة خطوات صاخبة واسعة ثم سرعان ما فارق جانب التل وحلق في السماء، صارت حوافره دويَّ رعد بعيد، وخلال لحظات توارى عن العيون.
وهذا هو ما زعم سكان المقبرة أنه حدث في تلك الليلة على الأقل. انتهت المجادلة وتقررت أشياء. سوف يُمنح الطفل المسمى «لا أحد أوينز» «حرية المقبرة».
«الأم ذبح» و«جوزياه ورثنجتون» اصطحبا مستر «أوينز» إلى كهف بالكنيسة القديمة وأبلغا مسز «أوينز» الأخبار. بدت أنها لم تندهش من هذه المعجزة.
قالت:

ـ هذا صواب، بعضهم لا يملك أي ذرة تعقل في رؤوسهم. لكنها تملك، بالتأكيد تملك.
قبل أن تشرق الشمس معلنة صباحًا عاصفًا رماديًّا كان الطفل قد نام بعمق في قبر آل «أوينز» الجميل (لأن كبير أسرة «أوينز» كان رئيس نقابة النجارين، وقد أراد أعضاء النقابة أن يكرموه).
خرج «سيلاس» في رحلة أخيرة قبل الشروق. رأى البيت المرتفع على جانب التل وتفحص الأجساد الثلاثة التي وجدها، ودرس شكل جروح السكين. عندما اكتفى خرج ليمشي في ظلمات النهار ورأسه يتماوج باحتمالات غير سارة، ثم عاد للمقبرة، إلى فناء الكنيسة حيث ينام وينتظر أيامًا.
وفي البلدة الصغيرة أسفل التل كان غضب الرجل المدعو «جاك» يتزايد. كان ينتظر هذه الليلة منذ زمن بعيد، تتويجًا لأشهر وسنين من العمل. وقد بدت الليلة واعدة في بدايتها، ثلاثة قد ماتوا قبل أن يجد أحدهم فرصة للصراخ. ثم... ثم صار كل شيء خطأ بشكل يثير الجنون. لماذا بحق السماء صعد إلى التل بينما من الواضح تمامًا أن الطفل نزل التل؟ عندما بلغ أسفل التل كان الأثر قد برد، لا بد أن أحدهم وجد الطفل وأخذه وأخفاه، لا يوجد تفسير آخر.
دوى الرعد عاليًا مباغتًا كأنه طلقة بندقية، وانهمر المطر بغزارة. كان الرجل المدعو «جاك» منظمًا وقد بدأ يخطط لحركته التالية، الزيارات التي يجب أن يقوم بها لبعض سكان البلد، الناس الذين سيصيرون عينيه وأذنيه، لن يكون عليه أن يخبر المحفل أنه قد فشل.
قال لنفسه وهو يحتمي بواجهة محل من مطر الصباح الذي ينهمر كالدموع: على كل حال هو لم يفشل، ليس بعد، ليس لأعوام مقبلة، هناك الكثير من الوقت، وقت يسمح بإنهاء مهمته، وقت يسمح بقطع آخر خيط.
عندما دوت سرينة سيارات الشرطة، ثم مرت أول سيارة شرطة ثم سيارة إسعاف ثم سيارة شرطة بلا علامات لكن لها سرينة مدوية، كلها متجهة إلى أعلى التل، عندها فقط وبلا رغبة رفع الرجل المدعو «جاك» ياقة معطفه وخفض رأسه، ومشى في ضوء النهار. كانت السكين في جيبه جافة آمنة في غمدها، بعيدًا عن شقاء العناصر.

الفصل الثاني
الصديق الجديد

كان «بود»([1]) طفلًا هادئ الطباع له عينان رماديتان يقظتان، وشعر ثائر بلون الفئران، وكان في أغلب الوقت مطيعًا. تعلم كيف يتكلم ومنذ تعلم ذلك راح يلح على سكان المقبرة بأسئلته: «لمَ لا يُسمح لي بمغادرة المقبرة؟»، أو «كيف أفعل ما فعله هو؟»، أو «من يعيش هنا؟».







الكبار كانوا يبذلون جهدهم ليجيبوا عن أسئلته، لكن أجوبتهم كانت مبهمة أو متناقضة. عندها كان «بود» ينزل إلى الكنيسة العتيقة ويكلم «سيلاس». يكون هناك عند الغروب في موعد استيقاظ «سيلاس». كان بوسعه دومًا أن يعتمد على راعيه ليفسر الأمور بوضوح وببساطة كما يريد «بود» كي يفهم.

ـ ليس مسموحًا لك بمغادرة المقبرة، استعمِل الضمير الصحيح، فقط في المقبرة نستطيع أن نحميك. هنا تعيش وهنا يمكنك العثور على من تحبهم. الخارج لن يكون مأمونًا لك، ليس بعد.

ـ أنت تخرج، تخرج كل ليلة.

ـ أنا أكبر منك سنًّا بما لا يقاس يا فتى، وأنا في أمان حيثما كنت.

ـ أنا كذلك في أمان هناك.

ـ وددت لو كان هذا صحيحًا، لكنْ ما دمت بقيت هنا فأنت في أمان.

أو:

ـ كيف لك أن تفعل هذا؟ بعض المهارات يتم اكتسابها بالتدريب وبعضها بالوقت. هذه المهارات تأتي لو درست. سرعان ما تجيد فن التلاشي والمشي في الأحلام والانزلاق، لكن هناك مهارات لا يمكن أن يكتسبها الأحياء، وعليك أن تصبر من أجلها. برغم هذا لا أشك في أنك سوف تكسب هذه المهارات مع

الوقت.
لقد مُنحتَ «حرية المقبرة» على كل حال، لهذا تُعنى المقبرة بك، وأنت هنا يمكنك الرؤية في الظلام، يمكنك المشي في بعض الدروب التي لا يجب على الأحياء أن يمشوا فيها. لن تراك عيون الأحياء. أنا كذلك مُنحت «حرية المقبرة» برغم أنها في حالتي لا تعني سوى الحق في الإقامة.
قال «بود» وهو يدفع شفته السفلى للخارج:
ـ أريد أن أكون مثلك.
قال «سيلاس» في صرامة:
ـ لا، أنت لا تريد.
أو:
ـ من يرقد هناك؟ أنت تعرف يا «بود» أن هذا مكتوب على الحجارة في معظم الحالات، هل تقدر على قراءتها؟ هل تعرف الحروف؟
ـ الـ... ماذا؟
هز «سيلاس» رأسه ولم يقل شيئًا. لم يكن مستر ومسز «أوينز» ممن يقرأون عندما كانا حيين، لذا لم يكن هناك كتاب يحوي الحروف في المقبرة كلها.
في الليلة التالية ظهر «سيلاس» عند باب قبر مستر ومسز «أوينز» المريح، ومعه ثلاثة كتب ضخمة، منها اثنان ملونان بألوان زاهية («ت»، تفاحة، و«ك»، كرة)، مع نسخة من كتاب «القط في القبعة»، وكان معه ورق وعلبة ألوان شمع. جال بـ«بود» عبر المقبرة وهو يضع أنامل الطفل الصغيرة على أحدث وأوضح شواهد القبور، وعلم «بود» كيف يجد حروف الهجاء عندما تظهر، بادئًا بقمة حرف A المدبب. كلف «سيلاس» «بود» بعملية البحث عن كل الحروف الـ٢٦ في المقبرة، وقد فعل «بود» هذا فخورًا مع اكتشاف صخر مقبرة حزقيال الموصلي المبني في جدار الكنيسة العتيقة، سُرَّ مرشده بذلك جدًّا.
وفي كل يوم كان «بود» يأخذ أوراقه وأقلام الشمع للمقبرة، وهناك ينسخ الأسماء والكلمات أفضل ما يستطيع، وفي كل ليلة قبل أن ينطلق «سيلاس» للعالم، كان «بود» يجعل «سيلاس» يشرح له ما كتبه ويترجم له المقاطع اللاتينية التي كانت تحيِّر آل «أوينز».
في يوم مشمس كان النحل يستكشف الزهور البرية النامية في ركن المقبرة، وهو يطلق أزيزه الكسول العميق، بينما كان «بود» يرقد في شمس الربيع، يراقب خنفساء لها لون البرونز تمشي عبر شاهد قبر «جيو». حيث «ريدر» وزوجته «دوركاس» وابنهما «سِباستيان» (مخلصون حتى الموت). كان «بود» قد نسخ المكتوب على قبرهم وكان يفكر في الخنفساء عندما قال شخص ما:
ـ يا فتى، ماذا تعمل؟
نظر «بود» لأعلى. كان هناك شخص على الجانب الآخر من حوض الأزهار يراقبه.
ـ لا سيء.
قالها «بود» وهو يخرج لسانه.

تحول الوجه على الجانب الآخر من الأزهار إلى وجه غول، وبرز لسانه وجحظت عيناه، ثم تحول إلى فتاة.
قال «بود» منبهرًا:
ـ هذا جميل.
قالت الفتاة:
ـ بوسعي رسم تعبيرات جميلة بوجهي. انظر لهذا.
ودفعت أنفها لأعلى بإصبعها وجعدت وجهها في ابتسامة راضية وحوَّلت عينيها ونفخت خديها.
ـ هل تعرف ما كان هذا؟
ـ لا.
ـ كان هذا خنزيرًا أيها السخيف.
قال «بود» مفكرًا:
ـ هل تعنين، مثل «خ»، خنزير؟
ـ بالطبع هو كذلك، انتظر.
وجاءت من خلف الشجيرات المتشابكة ووقفت أمام «بود» الذي نهض على قدميه. كانت أكبر قليلًا منه، وأطول نوعًا وكانت تلبس ألوانًا زاهية صفراء ووردية وبرتقالية. وشعر «بود» في ملاءته الملفوفة الرمادية بأنه يفتقر للأناقة وغير مهندم وغبي.
قالت الفتاة:
ـ كم عمرك؟ ماذا تصنع هنا؟ هل تعيش هنا؟ ما اسمك؟
قال «بود»:
ـ لا أعرف.
قالت الفتاة:
ـ لا تعرف اسمك؟ بالتأكيد تعرف، كل واحد يعرف اسمه، أيها الكذاب الصغير.
قال «بود»:
ـ أعرف اسمي وأعرف ما أقوم به هنا، لكنْ لا أعرف الشيء الثالث الذي تقولين.
ـ كم عمرك؟
هز «بود» رأسه.
قالت الفتاة:
ـ كم كان عمرك في عيد ميلادك الأخير؟
قال «بود»:
ـ لم يكن لي عيد ميلاد قَطٌّ.
ـ كل واحد له عيد ميلاد، هل تعني أنك لم تظفر قَطٌّ بكعك وشموع وما إلى ذلك؟
هز «بود» رأسه. بدت الفتاة متعاطفة.
ـ يا لك من مسكين، أنا في الخامسة، أراهن أنك في الخامسة كذلك.
هز «بود» رأسه بحماسة، لم يكن ليجادل مع صديقته الجديدة فقد جعلته

سعيدًا. كان اسمها «سكارليت أمبر بيركنز» كما قالت له. وكانت تعيش في شقة بلا حديقة. أمها كانت تجلس على مقعد أسفل التل تقرأ مجلة، وطلبت من «سكارليت» أن تعود خلال نصف ساعة، وأن تقوم ببعض الرياضة، وألا تقع في مشاكل أو تتكلم مع الغرباء.

قال «بود»:

ـ أنا غريب؟

قالت في تصميم:

ـ لا لست غريبًا. أنت صبي صغير.

ثم قالت:

ـ أنت صديقي فلا يمكن أن تكون غريبًا.

كان «بود» نادر الابتسام، لكنه في هذه المرة ابتسم ابتسامة عريضة وشعر بالسرور وقال:

ـ أنا صديقكِ.

ـ ما اسمك؟

ـ «بود»، هذا اختصار لاسم «لا أحد».

ضحكت وقالت:

ـ هذا اسم غريب، وماذا تفعل الآن؟

قال «بود»:

ـ ألتقط حروف ABC من على شواهد القبور، وعليَّ أن أكتبها.

ـ هل لي أن أفعلها معك؟

للحظة شعر «بود» بأنه يريد أن يحمي ما يملك، شواهد القبور ملكه، أليس كذلك؟ ثم فطن إلى مدى حماقته. وخطر له أن هناك أشياء أكثر إمتاعًا يمكن عملها في الشمس مع صديق. لذا قال لها:

ـ نعم.

نسخا الأسماء من على شواهد القبور، وساعدته على نطق الأسماء والكلمات غير المألوفة، وكان «بود» يخبرها بالمعاني اللاتينية، لو كان يعرف، وبدا لهما أن الوقت مبكر جدًّا على سماع صوت من أسفل التل يصيح:

ـ «سكارليت»!

ألقت الفتاة بالأقلام الشمعية والورق لـ«بود» وقالت:

ـ يجب أن أذهب.

قال «بود»:

ـ سأراكِ في المرة المقبلة، أليس كذلك؟

سألته:

ـ أين تعيش؟

قال:

ـ هنا.

ووقف يراقبها وهي تركض هابطة التل.

في الطريق للبيت أخبرت «سكارليت» أمها بالصبي المدعو «لا أحد» الذي

يعيش في المقبرة ولعب معها. وفي تلك الليلة ذكرت أم «سكارليت» هذا لأبي «سكارليت»، فقال إن الأصدقاء التخيليين شيء مألوف في هذه السن، والأمر لا يدعو للقلق، وإنه من حظهما أن هناك محمية طبيعية قريبة.
بعد أول لقاء لم تبدأ «سكارليت» برؤية «بود» قَطُّ. في الأيام التي لا يهطل فيها المطر كان أحد أبويها يحضرها للمقبرة. يجلس الأب على مقعد ويقرأ بينما تجوب «سكارليت» الممر كأنها لطخة من الأخضر المتوهج أو البرتقالي، وتستكشف. ودائمًا ما ترى وجهًا متجهمًا صغيرًا وعينين رماديتين تنظران لها من تحت كتلة من شعر بلون الفئران، من ثم تلهو هي و«بود»، يلعبان الاستغماية أو يتسلقان الأشياء أو يراقبان الأرانب خلف الكنيسة العتيقة. كان «بود» يقدم «سكارليت» لبعضٍ من أصدقائه الآخرين. كونها لا تراهم ليس ذا أهمية. لقد قال لها أبواها بحزمٍ إن «بود» وهمٌ ولا يوجد خطأ في هذا، بل إن أمها لعدة أيام أصرت على أن تترك موضعًا إضافيًّا على مائدة العشاء لـ«بود».
لهذا لم تندهش عندما عرفت أن «بود» لديه أصدقاء تخيليون. كان ينقل لها تعليقاتهم.
ـ يقول «بارتلبي» إن لكِ وجهًا كالكرز المعصور.
ـ وكذلك هو، لكن لماذا يتكلم بهذه الطريقة؟ هل يقصد الطماطم المعصورة؟
قال «بود»:
ـ لا أعتقد أنهم كان عندهم طماطم حيث جاءوا، وكانوا يتكلمون بهذه الطريقة وقتها.
كانت «سكارليت» سعيدة. كانت طفلة ذكية وحيدة تعمل أمها في جامعة بعيدة، تُعلم أناسًا لم تلقهم قَطُّ وجهًا لوجه، وتضع علامات لأوراق إنجليزية ترسَل لها عبر أجهزة الكمبيوتر وترد عليها بخطاباتٍ نصح أو تشجيع. والدها كان يدرس فيزياء الجسيمات ولكنْ ـ كما قالت لـ«بود» ـ كان هناك أناس كثيرون يريدون تدريس فيزياء الجسيمات ولا يوجد كثيرون يرغبون في تعلمها. لذا كانت أسرة «سكارليت» تتنقل عبر مدن الجامعات، وفي كل مدينة كان أبوها يأمل في وظيفة تدريس دائمة لا تأتي أبدًا.
سألها «بود»:
ـ ما هي فيزياء الجسيمات؟
هزت «سكارليت» كتفيها وقالت:
ـ حسن، هناك ذرات، وهي أشياء أصغر من أن نراها، وكلنا صُنعنا منها، وهناك أشياء أصغر من الذرات هي فيزياء الجسيمات.
هز «بود» رأسه وقرر أن أبا «سكارليت» على الأرجح كان مهتمًّا بأمور تخيلية.
مشى «بود» و«سكارليت» عبر المقبرة معًا في عصر كل أيام الأسبوع عدا الأحد، يتفقدان الأسماء بأناملهما ويكتبانها. وكان «بود» يخبرها بما يعرف عن السكان في المقبرة أو الضريح، وكانت تقص عليه قصصًا قرأتها أو سمعتها، وأحيانًا كانت تخبره عن العالم الخارجي، وعن السيارات والحافلات والتلفزيون والطائرات (رآها «بود» تطير وحسبها طيورًا فضية صاخبة، لكنه لم يهتم بها قَطُّ حتى الآن).

أما هو فبدوره كان يحكي لها عن الأيام التي كان فيها سكان القبور أحياء، كيف ذهب «سباستيان ريدر» إلى مدينة لندن ليرى الملكة، وكانت امرأة بدينة تلبس الفراء تحملق في الجميع ولا تتكلم الإنجليزية. لا يذكر أي ملكة كانت، لكنه يذكر أنها لم تظل ملكة طويلًا.
سألته «سكارليت»:
ـ متى كان هذا؟
ـ تقول الكتابة على قبره إنه مات عام ١٥٨٣، إذن قبل هذا.
ـ من أقدم شخص في هذه المقبرة بأسرها؟
قطب «بود» وقال:
ـ غالبًا هو «كايوس بومبيوس»، جاء هنا بعدما جاء الرومان أول مرة بمائة عام، قال لي هذا، كان مولعًا بالطرق.
ـ إذن هو الأقدم؟
ـ أعتقد هذا.
ـ هل يمكن أن نقيم بيتًا صغيرًا في واحد من هذه البيوت الحجرية؟
ـ لا يمكن الدخول، كلها مغلقة.
ـ هل بوسعك أنت الدخول؟
ـ بالطبع.
ـ ولمَ لا أستطيع أنا؟
شرح لها:
ـ المقبرة، عندي «حرية المقبرة»، وهي تسمح لي بالتنقل في عدة أماكن.
ـ أريد الدخول في البيت الحجري لأصنع بيوتًا صغيرة.
ـ ليس هذا بوسعكِ.
ـ أنت منحط.
ـ لا.
ـ سافل.
ـ لا.
وضعت «سكارليت» يديها في جيبَي سترتها ذات القلنسوة ومشت هابطة التل دون أن تودعه. كانت مقتنعة أن «بود» يخفي عنها شيئًا وفي نفس الوقت تشك في أنها ظلمته، وهذا زاد من غضبها.
هذه الليلة وعلى العشاء سألت أمها وأباها عما إذا كان هناك شخص في البلاد قبل قدوم الرومان.
سألها أبوها:
ـ أين سمعتِ عن الرومان؟
قالت «سكارليت»:
ـ الكل يعرف هذا.
ثم قالت في اشمئزاز:
ـ هل كان هناك شخص؟
قالت أمها:

ـ كانت قبائل السلت، كانوا هنا أولًا، زمنهم سابق للرومان وكانوا هم مَن قهرهم الرومان.
وعلى المقعد جوار الكنيسة العتيقة، كان «بود» يتبادل محاورة مماثلة.
قال «سيلاس»:
ـ الأقدم؟ بصراحة يا «بود» لا أعرف. أقدم من أعرفه في المقبرة هو «كايوس بومبيوس»، لكنْ كان هناك أناس هنا قبل الرومان، الكثير منهم وهمٌ من زمن سحيق

جدًّا، كيف حالك مع الحروف؟
ـ جيد كما أظن، متى أتعلم الكتابة بحروف مشبكة؟
صمت «سيلاس» ثم قال بعد تفكير للحظة:
ـ لا شك لديَّ أنه بين الأشخاص الموهوبين المدفونين هنا معلمون، سوف أسأل عن هذا.
شعر «بود» بإثارة. تخيل مستقبلًا يمكنه فيه أن يقرأ كل شيء، حيث يمكنه أن يفتح كل القصص ويكتشفها.
عندما ترك «سيلاس» المقبرة ليذهب لشؤونه، مشى «بود» لشجرة الصفصاف جوار الكنيسة القديمة ونادى «كايوس بومبيوس».
خرج الروماني العجوز من قبره متثائبًا، وقال:
ـ آه، الولد الحي، كيف حالك أيها الولد الحي؟
قال «بود»:
ـ أنا بخير يا سيدي.
ـ جميل، يسعدني سماع هذا.
كان شعر الروماني شاحبًا في ضوء القمر وكان يلبس المسوح الذي دفن به، وتحته صدرية من الصوف لأن ذلك البلد كان بلدًا باردًا على حافة العالم. كان المكان الوحيد الأكثر برودة هو كاليدونيا في الشمال، حيث الرجال أقرب للحيوان من البشر والفراء البرتقالي يغطيهم، وهم أكثر توحشًا من أن يغزوهم الرومان، لذا احتموا سريعًا بشتائهم الأبدي.
سأل «بود»:
ـ هل أنت الأقدم؟
ـ الأقدم في المقبرة؟ أنا كذلك.
ـ إذن أنت أول من دفن هنا؟
بعد تردد قال «كايوس بومبيوس»:
ـ تقريبًا الأول، قبل السلت كان هناك أناس آخرون على هذه الجزيرة، وقد دفن أحدهم هنا.
فكر «بود» للحظة:
ـ أوه، أين قبره؟
أشار «كايوس» للتل:
ـ إنه هناك عند القمة.
هز «كايوس» رأسه.

ـ إذن؟
مد الروماني العجوز يده ومسح شعر «بود» وقال:
ـ في التل نفسه، داخله، جلبني أصدقائي هنا أولًا وتبعهم المسؤولون المحليون، والممثلون الذين وضعوا أقنعة شمعية تمثل زوجتي التي ماتت بحمًّى في كامولودونام وأبي الذي قُتل في مناوشة على حدود الغال. بعد موتي بثلاثمائة عام كان هناك فلاح يبحث عن موضع جديد للرعي، فوجد هذا الجلمود الذي يغطي المدخل. أزاحه ونزل وهو يحسب أن هناك كنزًا، بعد فترة خرج وشعر رأسه أبيض كشعري.
ـ ماذا رأى؟
صمت «كايوس» وقال:
ـ لم يتكلم عن هذا، ولم يعد قَطُّ. أعادوا الجلمود ونسوا كل شيء عنه. منذ مائتي عام وهم يبنون قبو «فروبيشر» وجدوه من جديد. كان الشاب الذي وجد المكان يحلم بالثروة لذا لم يخبر أحدًا.. وأخفى فتحة الباب خلف تابوت «أفرايم بيتيفير»، وذات ليلة نزل وحده دون أن يلحظه أحد أو هكذا حسب.
ـ هل ابيض شعره عندما خرج؟
ـ لم يخرج.
ـ إممم، إذن من المدفون هناك؟
هز «كايوس» رأسه وقال:
ـ لا أعرف يا «أوينز» الصغير، لكني شعرت به عندما كان المكان خاليًا. كنت أشعر بشيء يتوارى هناك داخل التل.
ـ وماذا ينتظر؟
ـ كل ما شعرت به هو الانتظار.
كانت «سكارليت» تحمل كتاب صور عملاقًا، وجلست جوار أمها على المقعد الأخضر قرب البوابات، وراحت تطالع الكتاب بينما أمها تراجع نشرة تعليمية. كانت تستمتع بشمس الربيع وتحاول أن تتجاهل الطفل الذي يلوح لها من وراء أثر مغطى باللبلاب، وعندما كفت عن النظر للأثر، وثب الصبي ـ حرفيًّا كأنه عفريت العلبة ـ من وراء شاهد قبر («جوجي ج شوجي» مات في ١٩٢١، كنت غريبًا لكنك ضممتني إليك). أشار لها في حماسة فتجاهلته. في النهاية وضعت كتابها على المقعد وقالت:
ـ ماما، أنا ذاهبة في نزهة الآن.
ـ التزمي بالمسار يا عزيزتي.
التزمت بالمسار حتى الركن، وكان بوسعها أن ترى «بود» يلوح لها من بعيد أعلى التل. أشارت له بوجهها وقالت:
ـ لقد وجدت أشياء.
قال «بود»:
ـ أنا كذلك.
قالت:
ـ كان هناك أناس قبل الرومان، كانوا يعيشون منذ زمن فلما ماتوا وضعوهم

تحت الأرض في هذه التلال، ومعهم كنوز وأشياء كهذا، وكان اسم هذه القبور «barrows».
قال «بود»:
ـ أه، نعم، هذا يفسر الأمر، هل تريدين أن تأتي وتري واحدًا؟
بدا الشك على وجه «سكارليت» وقالت:
ـ الآن؟ أنت لا تعرف مواضع هذه، أليس كذلك؟ وأعرف أنه ليس بوسعي أن أتبعك حيثما ذهبت.
كانت قد رأته ينزلق عبر الجدار كالظل.
أجابها بأن أمسَك مفتاحًا صدئًا من الحديد وقال:
ـ هذا كان في الكنيسة، يفتح كل البوابات هناك. يستعملون ذات المفتاح لها جميعًا، هذا يسهل العمل.
نزلت «سكارليت» التل معه.
ـ هل تقول الحق؟
هز رأسه وابتسامة مسرورة تتلاعب على جانبَي شفتيه وقال:
ـ تعالَي.
كان يوم ربيع رائعًا والهواء مفعم بتغريد الطيور وأزيز النحل. تَلاعب النرجس مع الأزهار، وهناك على جانب التل هزت بعض أزهار التيوليب رؤوسها. تناثرت أزهار البانسيه مع البريمروز الصفراء، بينما مشى الطفلان نحو ضريح «فروبيشر» الصغير.
كان بيتًا حجريًّا قديمًا بسيط التصميم له بوابة حديدية. فتح «بود» قفل البوابة بمفتاحه ودخلا. قال «بود»:
ـ هذه فتحة، أو باب خلف أحد التوابيت.
وجداها خلف تابوت على الرف العلوي. مساحة تسمح بالزحف. فقال «بود»:
ـ هنا، سنهبط من هنا.
شعرت «سكارليت» فجأة بأن استمتاعها بالمغامرة يقل وقالت:
ـ نحن لا نرى ما في الأسفل، إنه مظلم.
قال «بود»:
ـ لا أحتاج إلى الضوء، ليس وأنا في المقبرة.
قالت «سكارليت»:
ـ أنا أحتاج له، المكان مظلم.
فكر «بود» في الأشياء المُطمْئنة التي يستطيع قولها مثل: «لا يوجد شيء سيئ هناك»، لكن قصص الشَّعر الذي يَبْيض والناس الذين لم يعودوا، تعني أنه ليس بوسعه قول هذا بضمير مستريح. لذا قال:
ـ سوف أنزل وانتظريني أنتِ هنا.
قطبت «سكارليت» وقالت:
ـ يجب ألا تتركني.
قال «بود»:
ـ سوف أنزل، سأرى مَن هناك تحت وسوف أعود وأخبركِ به.

واستدار للفتحة وانحنى ونزل فيها على يديه وركبتيه. كان في فراغ واسع بما يكفي لأن يقف، وكان يرى درجات محفورة في الحجر. قال:

ـ سوف أهبط هذه الدرجات الآن.

ـ هل ستهبط مسافة طويلة؟

ـ أظن هذا.

قالت:

ـ لو أمسكت بيدي وأخبرتني أين أمشي، فلربما جئت معك. لو كنت على يقين أن هذا مناسب.

قال «بود»:

ـ بالطبع.

وقبل أن ينهي الكلام كانت الفتاة قد عبرت الفتحة على يديها وركبتيها. قال لها «بود»:

ـ يمكنكِ أن تقفي.

وأمسك بيدها وقال:

ـ الدرجات هنا، لو مددتِ قدمكِ للأمام فلسوف تجدينها، هكذا، سوف أتقدم أنا.

سألَتْه:

ـ هل ترى فعلًا؟

قال «بود»:

ـ ظلام دامس، لكني أرى.

بدأ يقود «سكارليت» أسفل الدرجات إلى عمق التل، وهو يصف لها ما يراه أثناء المشي:

ـ هناك درجات لأسفل، هناك مَن رسم على الجدار.

ـ أي رسم؟

ـ هناك رسم لبقرة مشعرة على ما أعتقد، ثم شيء أقرب لعقدة كبيرة، إنها محفورة في الصخر وليست مرسومة فقط، هل ترين؟

وأمسك بأناملها ووضعها على الحجر المنقوش.

قالت:

ـ يمكنني أن أشعر به.

ـ الدرجات الآن تكبر، نحن ندخل نوعًا من الغرف الكبيرة المستديرة، لكن الدرجات مستمرة. لا تتحركي. أنا بينكِ وبين الحجرة. أبقي يدكِ اليسرى على الجدار.

واصلا النزول وقال «بود»:

ـ خطوة أخرى ونصير على القاع الحجري، إنه غير منتظم نوعًا.

كانت الغرفة صغيرة. كان هناك لوح من الحجر على الأرض وإفريز منخفض في ركن عليه أشياء صغيرة. كانت هناك عظام على الأرض وهي عظام قديمة فعلًا، برغم أنه في الأسفل حيث تدخل الدرجات الغرفة، كان بوسع «بود» أن يرى جثة متكومة تلبس بقايا معطف بني طويل، وخطر لـ«بود» أن هذا هو

الشاب الذي حلم بالثراء. لا بد أنه انزلق وسقط في الظلام.
بدأت الضوضاء من حولهما، صوت صدئ كأنه ثعبان يزحف فوق أوراق جافة.
ازدادت قبضة «سكارليت» على يد «بود» قوةً.
ـ ما هذا؟ هل ترى أي شيء؟
ـ لا.
أصدرت «سكارليت» ضوضاء هي نصف شهيق ونصف ولولة، ورأى «بود» شيئًا فعرف دون أن يسأل أن بوسعها كذلك أن تراه.
كان هناك ضوء في نهاية الغرفة، وفي هذا الضوء جاء رجل يمشي عبر الصخور. سمع «بود» «سكارليت» تكتم صرخة. بدا الرجل محفوظًا بشكل جيد لكنْ ما زال يبدو كشيء مات منذ فترة طويلة. كان جلده مدهونًا (كما خطر لـ«بود») أو موشومًا (كما فكرت «سكارليت») بنقوش أرجوانية. حول عنقه كانت قلادة من أسنان حادة.
قال الشبح في كلمات عتيقة وحلقية جدًّا حتى إنها لم تعد كلمات:
ـ أنا سيد هذا المكان! أنا أحرس المكان ممن يؤذونه!
كانت عيناه واسعتين في رأسه. لاحظ «بود» أن السبب هو دوائر حولهما بلون بنفسجي مما جعل وجهه يبدو كوجه بومة.
سأله «بود»:
ـ من أنت؟
واعتصر يد «سكارليت» وهو يقول هذا. لم يبدُ على الرجل النيلي أنه سمع السؤال، ونظر لهما بتوحش.
قال بكلمات سمعها «بود» في عقله، كلمات هي حشرجة حلقية:
ـ ارحلا!
سألت «سكارليت»:
ـ هل سوف يؤذينا؟
قال «بود»:
ـ لا أظن.
ثم قال للرجل النيلي كما تعلَّم:
ـ لديَّ «حرية المقبرة» ويمكنني أن أمشي حيث أريد.
لم يأتِ الرجل النيلي برد فعلٍ لهذا، وهذا أثار دهشة «بود» لأن أشد سكان المقبرة عصبيةً كانوا يهدأون بهذه الكلمات. قال «بود»:
ـ «سكارليت»، هل ترينه؟
ـ بالطبع أراه، هو رجل موشوم ضخم مخيف، وهو يبغي قتلنا. اجعله يرحل يا «بود»!
نظر «بود» لبقايا السيد ذي المعطف البني. كان جواره مصباح مهشم على الأرض الصخرية. فقال «بود»:
ـ لقد فر، فر لأنه كان مذعورًا، انزلق وسقط على الدرجات.
ـ من فعل هذا؟
ـ الرجل على الأرض.

بدت «سكارليت» قلقة الآن ومندهشة وخائفة.
ـ أي رجل على الأرض؟ الظلام دامس. الرجل الوحيد الذي أراه هو الرجل ذو الوشم.
هنا وكأنما يتأكد من أنهما يعرفان بوجوده، ألقى الرجل النيلي برأسه للخلف وأطلق سلسلة من الصرخات الغنائية. عواء من مجمع حلقه جعل قبضة «سكارليت» تتقلص حتى انغرست أناملها في لحم «بود».
لكن «بود» لم يعد مذعورًا.
قالت «سكارليت»:
ـ آسفة لأنني اعتبرتهم وهميين، أنا أصدقك الآن، هم حقيقيون.
رفع الرجل النيلي شيئًا فوق رأسه. بدا كنصل حجري حاد. وصرخ بصوته الحلقي:
ـ كل من يغزون هذا المكان سيموتون.
فكر «بود» في الرجل الذي ابيض شعره بعدما وجد الحجرة، وكيف لم يعد للمقبرة قَطُّ ولم يتكلم عما رآه.
قال «بود»:
ـ لا، أحسبك على حق، هذا الشخص كذلك.
ـ كذلك ماذا؟
ـ وهمٌ.
قالت «سكارليت»:
ـ لا تكن غبيًّا، يمكنني أن أراه.
قال «بود»:
ـ نعم، وليس بوسعكِ رؤية الموتى.
ونظر في أرجاء الحجرة وقال:
ـ يمكنك التوقف الآن، نعرف أن هذا ليس حقيقيًّا.
صرخ الرجل النيلي:
ـ سوف ألتهم كبدك!
قالت «سكارليت» وهي تتنهد:
ـ لا، لن تفعل، «بود» محق.
ثم قالت:
ـ أحسبه فزَّاعة.
سألها «بود»:
ـ وما هي الفزَّاعة؟
ـ شيء يضعه الفلاحون في الحقول ليخيفوا الغربان.
كان «بود» يحب الغربان، لذا سألها:
ـ لمَ يعملون هذا؟
كان يعتقد أن الغربان مضحكة، وكان يحب طريقتها في جعلِ المقبرة نظيفة.
ـ لا أعرف، سأسأل ماما، لكنني رأيت واحدًا من داخل القطارَ وسألت عن كنهه. الغربان تحسبه شخصًا حقيقيًّا لكنه ليس كذلك. الهدف منه تخويف الغربان لا

أكثر.
نظر «بود» في أرجاء الغرفة وقال:
ـ أيًّا مَن كنت، فلا جدوى من هذا، هذا لا يخيفنا، نحن نعرف أنه ليس حقيقيًّا، توقف.
توقف الرجل النيلي. مشى إلى اللوح الصخري ورقد عليه، ثم اختفى.
بالنسبة لـ«سكارليت» عادت الغرفة من جديد تغرق في الظلام. لكنْ في الظلام كان بوسعها أن تسمع الصوت ثانية، يعلو ويعلو. كأن شيئًا ما يدور حول الغرفة. وقال شيءٌ ما:
ـ نحن السفاح!
بدأ الشعر على مؤخرة عنق «بود» يخزُّه. الصوت في رأسه كان عجوزًا جدًّا وجافًّا جدًّا، كأنه غصن ميت يحتك بزجاج نافذة كنيسة، وبدا لـ«بود» أن هناك أكثر من صوت، وكلها تتكلم معًا.
سأل «سكارليت»:
ـ هل سمعتِ هذا؟
ـ لم أسمع أي شيء، مجرد صوت زاحف جعلني أشعر شعورًا غريبًا، شيء يخزُّ معدتي، كأن هناك شيئًا مرعبًا سيحدث.
قال «بود»:
ـ لن يحدث شيء مرعب.
ثم قال مخاطبًا الغرفة:
ـ من أنتَ؟
ـ نحن السفاح، نحن نحرس ونحمي.
ـ ماذا تحمون؟
ـ نحمي موضع راحة السيد، هذا هو أقدس المواضع المقدسة، ويحميه السفاح.
قال «بود»:
ـ ليس بوسعكم أن تلمسونا، لا تقدرون إلا على التخويف.
بدت التعاسة على الأصوات الزاحفة.
ـ الخوف هو سلاح السفاح.
نظر «بود» لأسفل إلى الإفريز وقال:
ـ هل هذه كنوز سيدكم؟ بروش قديم وقدح وسكين حجرية؟ لا يبدو أن لها قيمة.
ـ السفاح يحرس الكنوز، البروش والكأس والسكين. نحن نحرسها للسيد. عندما يعود. إنه يعود، دومًا يعود.
ـ كم واحدًا منكم هنا؟
لكن السفاح لم يَرُد. شعر «بود» بأن رأسه مليء بنسيج العناكب فهزه محاولًا أن ينظفه. ثم ضغط على يد «سكارليت» وقال:
ـ يجب أن نرحل.
مشى بها عابرَين الرجل الميت ذا المعطف البني، فكر «بود»: بأمانة، إن

الرجل لو لم يصبه الذعر ويسقط كان سيُصاب بخيبة أمل من هذا الكنز المزعوم. إن الكنوز منذ عشرة آلاف سنة ليست كنوزًا اليوم. واقتاد «سكارليت» بحذر عبر الدرجات إلى قمة التل، حتى بلغا البناء الناتئ حول ضريح «فروبيشر».
كان ضوء آخر الربيع يشرق عبر شقوق البناء وعبر البوابة ذات القضبان صادمًا في سطوعه، مما جعل «سكارليت» تغطي عينيها إذ فاجأها الضوء. كانت الطيور تغرد بين الشجيرات وبدا كل شيء مدهشًا في طبيعته.
فتح «بود» بوابة الضريح وأغلقها من خلفهما.
كانت ثياب «سكارليت» الزاهية مكسوة بالسخام ونسيج العناكب، وكان وجهها الأسمر مغطى بالغبار.
عند أسفل التل كان أحدهم ـ في الحقيقة بعض الناس ـ يصيح، يصيحون بصوت عالٍ، يصيحون بجنون. ونادى أحدهم:
ـ «سكارليت»! «سكارليت بيركنز»!
قالت «سكارليت»:
ـ نعم.. مرحبًا.
وقبل أن تجد فرصة لمناقشة ما رأته مع «بود»، أو التكلم عن الرجل النيلي، ظهرت امرأة في سترة صفراء لامعة مضيئة (فلورسنت) كُتب عليها «شُرطة»، وكانت تسألها إن كانت بخير وأين كانت، وهل هناك من حاول خطفها، ثم راحت المرأة تتكلم في جهاز راديو تخبرهم أنها وجدت الطفلة.
انزلق «بود» جوارهما وهما يهبطان التل. كان باب الكنيسة مفتوحًا وبالداخل كان أبوَا «سكارليت» ينتظران، وأمها كانت تبكي، ووالدها يتكلم في قلق مع أناس على الهاتف الجوال، وكانت هناك شرطية أخرى.
لم يرَ أحدٌ «بود» وهو ينتظر في الركن. راح الناس يسألون «سكارليت» عما حدث لها، فأجابت بأمانة قدر ما استطاعت. حكت لهم عن صبي اسمه «لا أحد» أخذها لأعماق التل حيث ظهر رجل موشوم بنفسجي اللون من الظلام، لكنه كان فزّاعة. أعطوها شوكولاتة ومسحوا وجهها وسألوها إن كان الموشوم لديه دراجة بخارية، وكان أبو «سكارليت» وأمها قد هدآ ولم يعودا خائفين عليها، من ثم كانا غاضبين عليها وعلى أنفسهما، واتهم كل واحد الآخر بأنه مسؤول عن ترك الطفلة تلعب في المقبرة، حتى لو كانت محمية طبيعية، وأن العالم صار مكانًا خطرًا هذه الأيام، فلو لم تبقِ عينيك على أطفالك كل ثانية، فلا يمكنك تصوُّر الأشياء الفظيعة التي يمكن أن يتورطوا فيها، خصوصًا طفلة مثل «سكارليت».
بدأت أم «سكارليت» تبكي مما جعل «سكارليت» بدورها تبكي. وتجادلت إحدى ضابطات الشرطة مع أبي «سكارليت» الذي حاول أن يخبرها أنه كدافع ضرائب يدفع راتبها، فقالت له إنها تدفع الضرائب كذلك وربما تدفع راتبه كذلك.
كل هذا بينما «بود» يجلس في الركن ذي الظلال بالكنيسة لا يراه أحد حتى «سكارليت»، وقد راح يراقب ويصغي حتى لم يعد يتحمل أكثر.
كان هذا وقت الشفق في المقبرة، وقد جاء «سيلاس» ليجد «بود» قرب

المدرج، ينظر إلى المدينة. وقف جوار الفتى ولم يقل شيئًا، وكانت هذه طريقته. قال «بود»:
ـ لم تكن غلطتها، كانت غلطتي، والآن هي في مشكلة.
سأله «سيلاس»:
ـ إلى أين أخذتها؟
ـ إلى قلب التل لنرى أقدم المقابر، فقط لا أحد هنالك، مجرد شيء ثعباني اسمه «السفاح» يخيف الناس.
ـ مدهش.
مشيا أسفل التل معًا وهما يراقبان كيف أُغلقت الكنيسة من جديد، واختفت «سكارليت» وأبواها في الليل.
قال «سيلاس»:
ـ سوف تعلمك مس «باروز» الحروف المتشابكة. هل قرأت «القط في القبعة» بعد؟
قال «بود»:
ـ نعم، منذ أجيال، هل يمكنك أن تحضر لي المزيد؟
قال «سيلاس»:
ـ أتوقع هذا.
ـ هل تظن أنني سأراها ثانية؟
ـ الفتاة؟ أشك في هذا كثيرًا.
لكن «سيلاس» كان مخطئًا. فبعد ثلاثة أسابيع ذات عصر رمادي كئيب جاءت «سكارليت» للمقبرة ومعها أبواها. أصرَّا أن تكون في مجال بصرهما طوال الوقت برغم أنهما تقهقرا من خلفها قليلًا. كانت أم «سكارليت» تتعجب كم هو جميل أنهم سيفارقون كل هذا سريعًا.
عندما بدأ أبوَا «سكارليت» في الكلام معًا، قال «بود»:
ـ مرحبًا.
قالت «سكارليت» بهدوء شديد:
ـ مرحبًا.
ـ لم أحسبني سأراكِ ثانية.
ـ قلت إنني لن أذهب معهما ما لم يجلباني هنا مرة أخيرة.
ـ إلى أين تذهبون؟
ـ اسكتلندا، هناك جامعة، أبي سيدرِّس فيها فيزياء الجسيمات.
مشيَا معًا في الممر، وكانت هناك طفلة تلبس سترة ذات قلنسوة برتقالية زاهية اللون، وصبي في ملاءة رمادية ملتفة حوله.
ـ هل اسكتلندا بعيدة؟
قالت:
ـ نعم.
ـ أه!
ـ وددت أن تكون هنا لأودعك.

ـ أنا هنا دومًا.
ـ لكنك لست ميتًا، أليس كذلك يا «لا أحد أوينز»؟
ـ بالطبع لا.
ـ لا يمكنك أن تبقى هنا طوال حياتك، يومًا ما سوف تكبر وترى العالم.
هز رأسه وقال:
ـ ليس مأمونًا بالنسبة لي.
ـ من قال هذا؟
ـ «سيلاس»، أسرتي، الجميع.
صمتت الفتاة.
ناداها أبوها:
ـ «سكارليت»! تعالَي يا حبيبتي، حان وقت الرحيل، لقد ظفرتِ برحلتكِ الأخيرة للمقبرة، الآن فلنرحل.
قالت «سكارليت» لـ«بود»:
ـ أنت شجاع، أنت أشجع شخص عرفته وأنت صديقي، لا أبالي إن كنتَ وهمًا.
ثم انطلقت إلى الطريق من حيث جاءوا، عائدة لأبويها والعالم.

الفصل الثالث
كلاب الرب

في كل مقبرة يوجد قبر خاص بالغيلان، امش فترة طويلة في أي مقبرة ولسوف تجده، إنه مبتلٌّ بالماء وبارز، له حجارة مشققة مهشمة وحوله عشب مبعثر مع شعور غامر بالعزلة. لربما كان أكثر برودة من شواهد القبور الأخرى، والاسم على الشاهد مستحيل أن تقرأه غالبًا.
لو كان هناك تمثال على القبر فلا بد أنه بلا رأس أو غطته الطحالب ونبات الحزاز حتى ليبدو كأنه فطر هو نفسه. لو بدا قبر في المقبرة هدفًا للمخربين فهو باب الغيلان هذا. ولو كان هذا القبر يجعلك تتمنى لو كنت في مكان آخر، فهذا هو باب الغيلان.
في مقبرة «بود» كان هناك واحد.
هناك واحد في كل مقبرة.

يستعد «سيلاس» للرحيل.
كان «بود» متضايقًا عندما سمع بهذا أول مرة. لكنه لم يعد متضايقًا، لقد صار غاضبًا.
قال «بود»:

ـ لكنْ لماذا؟
ـ قلت لك، أريد بعض المعلومات ولأفعل هذا يجب أن أسافر، ولأسافر يجب أن أرحل من هنا، لقد تكلمنا عن هذا كله.
ـ وما هو المهم لدرجة جعلِك ترحل؟
حاول عقل «بود» ذي الأعوام الستة أن يتخيل سبب رحيل «سيلاس»، لكنه فشل.
ـ هذا ليس عدلًا.
لكن حارسه لم يتردد:
ـ الأمر ليس عدلًا أو لا عدل يا «لا أحد أوينز»، الأمر فقط كذلك.
لم يتأثر «بود» وقال:
ـ أنت قلت إنك سترعاني.
ـ كحارسك أنا مسؤول عنك، نعم، لحسن الحظ أنا لست الوحيد في العالم الراغب في تولي هذه المسؤولية.
ـ ولأين أنت ذاهب على كل حال؟
ـ خارجًا، بعيدًا، هناك أمور أريد كشفها لا أستطيع كشفها هنا.
غطَّ «بود» وابتعد وهو يركل حجارة وهمية. شماليَّ غرب المقبرة كانت هناك أشياء نمَت وتشابكت أكثر من اللازم، وقد تجاوزَت قدرات أصدقاء المقبرة على ترويضها. ذهب هناك وأيقظ أسرة من الصبية الفكتوريين الذين ماتوا قبل عيد ميلادهم العاشر، وكانوا يلعبون الاستغماية في ضوء القمر في الغابة ذات أشجار اللبلاب. حاول «بود» التظاهر بأن «سيلاس» لن يرحل وأن شيئًا لن يتغير، لكنْ عندما انتهت اللعبة وعاد للكنيسة العتيقة، رأى شيئين بدَّلا تفكيره؛ الأول كان حقيبة، كانت هذه حقيبة «سيلاس» كما أدرك «بود» على الفور. كان عمرها ١٥٠ عامًا، قطعة من الجمال، جلد أسود له مقبض أسود، نوع الحقيبة التي كان سيحملها طبيب فكتوري أو حانوتي، وفيها كل ما سيحتاج له.
لم يكن «بود» قد رأى حقيبة «سيلاس» من قبل، ولم يعرف أن «سيلاس» لديه حقيبة، لكنها كانت نوعية الحقائب التي لن يحملها سوى «سيلاس».
حاول «بود» أن يختلس النظر داخلها، لكنها كانت مغلقة بقفل نحاسي كبير، وكانت ثقيلة لا يقدر على رفعها.
هذا كان أول شيء.
الشيء الثاني كان يجلس على المقعد جوار الكنيسة.
قال «سيلاس»:
ـ «بود»، هذه مس «لوبسكو»([2]).
لم تكن مس «لوبسكو» جميلة؛ كان وجهها متقلصًا وتعبير وجهها غير مشجع، كان شعرها رماديًّا برغم أن وجهها بدا أصغر من أن يكون له شعر رمادي، وكانت أسنانها الأمامية متداعية، كانت تلبس مريولة وربطة عنق رجالية حول عنقها.
قال «بود»:

ـ كيف الحال يا مس «لوبسكو»؟
لم تقل مس «لوبسكو» شيئًا. تنفست من أنفها ثم نظرت لـ«سيلاس» وقالت:
ـ إذن هذا هو الصبي.
ونهضت من مقعدها ودارت حول «بود» وطاقتا أنفها تتسعان، كأنها تتشممه، وعندما أتمت دورة كاملة قالت:
ـ سوف تخبرني بحضورك عندما تصحو وقبل أن تخلد للنوم، لقد استأجرت غرفة في المنزل هناك.
وأشارت إلى السقف الظاهر من حيث كانا، وقالت:
ـ لكني سأمضي وقتي في هذه المقبرة، أنا هنا مؤرخة أبحث في تاريخ المقابر القديمة، هل تفهم يا صبي؟
قال «بود»:
ـ اسمي «بود»، «بود» وليس «صبي».
قالت:
ـ اختصار لاسم «لا أحد»، اسم أحمق، «بود» كذلك اسم حيوان أليف، أنا غير موافقة، سوف أدعوك «صبي»، وأنت تدعوني «مس لوبسكو».
نظر «بود» لـ«سيلاس» متوسلًا، لكنْ لم يرَ شفقة في وجه «سيلاس». التقط الأخير حقيبته وقال:
ـ ستكون في يدين أمينتين مع مس «لوبسكو» يا «بود»، أعرف أنكما ستتأقلمان معًا.
قال «بود»:
ـ لن نفعل، إنها مخيفة!
قال «سيلاس»:
ـ هذا شيء خشن لتقوله، يجب أن تعتذر، أليس كذلك؟
لم يعتذر «بود» لكن «سيلاس» ظل ينظر له وهو يحمل حقيبته السوداء ويتأهب للرحيل. لا أحد يعرف إلى متى، لذا قال:
ـ أنا آسف يا مس «لوبسكو».
في البداية لم تَرُد. فقط تنفست بصوت عالٍ. ثم قالت:
ـ جئت من بعيد كي أُعنى بك يا صبي، أرجو أن تستحق هذا.
لم يتصور «بود» أن يحتضن «سيلاس»، لذا مد يديه له وانحنى «سيلاس» وهز ذراعَي الصبي. ثم رفع الحقيبة الجلدية كأنها لا وزن لها ومشى خارجًا من المقبرة.
حكى «بود» لأبويه عن هذا. قال:
ـ رحل «سيلاس».
قال مستر «أوينز» ببهجة:
ـ سوف يعود، لا تُقلق رأسك بهذا، سيعود كقرش تالف كما يقولون.
قالت مسز «أوينز»:
ـ عندما ولدت أنت وعد بأنه لو اضطر للرحيل، فلسوف يجد شخصًا آخر يجلب

لك الطعام ويراقبك. وقد فعل هذا، إنه شخص جدير بالثقة.
بالفعل اعتاد «سيلاس» أن يجلب الطعام لـ«بود»، وكان يتركه في الكهف كل ليلة ليأكله. لكنْ كان هذا بالنسبة لـ«بود» أقل شيء فعله «سيلاس» له، كان يعطيه النصيحة، نصيحة عاقلة لطيفة حكيمة لا تفشل أبدًا. وكان يعرف أكثر من كل سكان المقبرة، لأن رحلاته الليلية في العالم جعلته يستطيع وصف عالم معاصر وليس عالمًا عمره مئات السنين. كان ثابت الجنان موثوقًا فيه، وكان هناك في كل ليلة عاشها «بود»، لذا كانت فكرة الكنيسة من غير ساكنها تبدو عسيرة بالنسبة لـ«بود». قبل كل شيء كان «سيلاس» يشعِر «بود» بالأمن. وكانت مس «لوبسكو» كذلك ترى أن واجبها أكبر من جلب الطعام لـ«بود»، وإن كانت تفعل هذا برغم كل شيء.
سأل «بود» بذعر:
ـ ما هذا؟
قالت مس «لوبسكو»:
ـ هذا طعام طيب.
كانا في القبو، وكانت قد وضعت وعاءين من البلاستيك على المنضدة وفتحت الغطاءين. أشارت إلى الأول وقالت:
ـ هذا حساء من عصيدة اللفت والشعير.
وأشارت إلى الثاني:
ـ وسلطة، كُلْهما معًا، فقد صنعتهما لك.
رفع «بود» عينيه نحوها ليرى إن كانت هذه مزحة. كان الطعام الذي يأتي به «سيلاس» يأتي في عبوات يبتاعه من الأماكن التي تبيع الطعام حتى ساعة متأخرة من الليل ولا تسأل أسئلة. لم يجلب له أحد طعامًا في وعاء بلاستيكي له غطاء من قبل. قال:
ـ رائحته شنيعة.
قالت:
ـ لو لم تأكل حساء العصيدة حالًا فلسوف يكون أشنع، سيبرد، كُلِ الآن.
كان «بود» جائعًا. تناول ملعقة بلاستيكية وغمسها في العصيدة القرمزية وبدأ يأكل. كان الأكل زلقًا وغير معتاد.
قالت مس «لوبسكو»:
ـ السلطة الآن!
وفتحت غطاء الوعاء الثاني. كان يحوي قطعًا كبيرة من البصل النيئ والبنجر والطماطم، كلها تسبح في تتبيلة من الخل. وضع «بود» قطعة بنجر في فمه وبدأ يمضغ. شعر بأن اللعاب يتجمع وأدرك أنه إن بلع هذه اللقمة سيقيئها. قال:
ـ لا يمكن أن آكل هذا.
ـ هي مفيدة لك.
ـ سوف يصيبني الغثيان.
تبادلا النظرات؛ الصبي ذو الشعر بلون الفئران، والمرأة الشاحبة المجعدة التي

تقبع كل شعرة فضية في رأسها في موضعها الصحيح. قالت مس «لوبسكو»:
ـ كُلْ قطعة أخرى.
ـ لا أستطيع.
ـ كُلْ قطعة أخرى الآن وإلا ستبقى هنا حتى تأكله كله.
التقط «بود» قطعة من الطماطم ذات مذاق الخل ومضغها وبصقها. أعادت مس «لوبسكو» ما أخرجته إلى الأوعية وأعادت وضع الغطاء وقالت:
ـ الآن، الدروس.
كان هذا منتصف الصيف. لن تظلم السماء تمامًا حتى منتصف الليل. لا دروس في منتصف الصيف، كان «بود» يقضي وقته متيقظًا ساعة الشفق يلعب أو يستكشف أو يتسلق.
قال:
ـ دروس؟
ـ راعيك وجد أن من المفيد أن يدرس لك أشياء.
ـ لديَّ معلمون، «ليتيسيا بوروز» تعلمني الكتابة والكلمات، ومستر «بِنِيورث» يعلمني منهجه لـ«نظام التعليم الكامل للسادة الصغار مع إضافات لما بعد الموت». أدرس الجغرافيا وكل شيء ولا أحتاج دروسًا أكثر.
ـ أنت تعرف كل شيء إذن يا صبي؟ ستة أعوام وتعرف كل شيء.
ـ لم أقل هذا.
ثنت مس «لوبسكو» ذراعيها وقالت:
ـ احكِ لي عن الغيلان.
حاول «بود» أن يتذكر ما قاله له «سيلاس» عن الغيلان منذ أعوام وقال:
ـ أبتعد عنها.
ـ وهذا كل ما تعرفه؟ ولماذا تبتعد عنها؟ من أين تأتي؟ إلى أين تذهب؟ لمَ لا تقف جوار بوابة غيلان؟ هه يا صبي؟
هز «بود» كتفيه وهز رأسه. قالت مس «لوبسكو»:
ـ اذكر أنواع الناس المختلفة، الآن.
فكر «بود» للحظات ثم قال:
ـ الأحياء.. آآآ الموتى.. القطط؟
قالها وهو غير واثق.
قالت مس «لوبسكو»:
ـ أنت جاهل يا صبي، هذا سيئ وأنت راضٍ بأن تكون جاهلًا وهذا أسوأ. كرِّر بعدي، هناك الموتى والأحياء، وهناك قوم الصباح وقوم الليل، هناك الغيلان وهناك الماشون في الضباب، هناك صيادون وهناك كلاب الرب، وبالطبع هناك أنواع منعزلة.
سألها «بود»:
ـ ما أنتِ؟
قالت في عناد:
ـ أنا مس «لوبسكو».

ـ وما «سيلاس»؟
ترددت ثم قالت:
ـ هو نوع منعزل.
تحمَّل «بود» الدرس. استمتع عندما علمه «سيلاس» الأمور، طوال الوقت كان «بود» لا يدرك أنه تعلم أي شيء على الإطلاق. كانت مس «لوبسكو» تعلمه قوائم كاملة، ولم يرَ هو نفع هذا. جلس في القبو يتمنى الخروج لغسق الصيف تحت القمر الشبحي. عندما انتهى الدرس فر ومزاجه سيئ جدًّا. بحث عن رفاق الدراسة فلم يجد أحدًا ولم يرَ شيئًا سوى كلب ضخم رمادي، يحفر في الصخور ولا يقترب منه. كان يتسلل بين الظلال.
ازداد الأسبوع سوءًا.
واصلت مس «لوبسكو» جلب أشياء طهتها له، ومنها فطائر تسبح في الشحم وحساء سميك أحمر عليه قشدة حامضة، وبطاطس مكورة صغيرة وسجق بارد مليء بالثوم، وبيض مسلوق في سائل غير شهي. أكل قليلًا جدًّا بما يكفي ليفرَّ. كانت الدروس مستمرة وليومين علمته كيف يطلب النجدة بكل لغات العالم، وكانت تضرب سلاميات أصابعه بالقلم لو أخطأ أو نسي. في اليوم الثالث كانت تطلق عليه الأسئلة كالرصاص:
ـ بالفرنسية؟
ـ «Au secours».
ـ بشفرة «مورس»؟
ـ إس أو إس، ثلاث نقاط ثلاث شرطات ثلاث نقاط.
ـ وبلغة عفاريت الليل؟
ـ هذا غباء مني، لا أتذكر ما هي عفاريت الليل.
ـ لديها أجنحة بلا شعر وتطير منخفضة وبسرعة، لا تزور هذا العالم ولكنْ تحلق في السماوات الحمراء فوق درب غولهايم.
ـ لا أحتاج لمعرفة هذا.
تقلص فمها أكثر. كل ما قالته هو:
ـ عفاريت الليل؟
أصدر «بود» حشرجة من مؤخرة حلقه كما علمته، صرخة حلقية كصرخة العُقاب. وتنفست بصوت عالٍ وقالت:
ـ هذا كافٍ.
لم يقدر «بود» على الانتظار حتى يعود «سيلاس».
قال:
ـ هناك كلب رمادي عملاق في المقبرة، أحيانًا يظهر عندما تأتين، فهل هو كلبكِ؟
أصلحت مس «لوبسكو» من ربطة عنقها وقالت:
ـ لا.
ـ هل أنهينا الدرس؟
ـ بالنسبة لليوم، ستقرأ القائمة التي أعطيها لك الليلة وتُسمعها لي غدًا.

كانت القوائم تطبع بالحبر الوردي على ورق أبيض، وكانت رائحتها غريبة. أخذ «بود» القائمة الجديدة وحاول أن يقرأ، لكن انتباهه ظل ينزلق. في النهاية طوى الورقة ووضعها تحت صخرة.
لن يلعب أحد معه هذه الليلة، لا أحد يريد أن يلعب أو يتكلم أو يركض أو يتسلق تحت قمر الصيف العملاق. هبط إلى قبر «أوينز» ليشكو لأبويه، لكن مسز «أوينز» لم تكن لتقبل كلمة واحدة تقال عن مس «لوبسكو»، ولا عن الطريقة الظالمة التي اختارها بها «سيلاس». بينما راح مستر «أوينز» يهز كتفيه ويحكي لـ«بود» عن ماضيه كصبي عمل لدى نجار، وكم كان يتمنى لو تعلَّم الأشياء الجميلة التي يتعلمها «بود»، وهذا زاد الأمور سوءًا بالنسبة لـ«بود».
سألته مسز «أوينز»:
ـ أليس من المفترض أن تدرس على كل حال؟
ضغط «بود» قبضتيه ولم يقل شيئًا. وثب للأرض شاعرًا بأنه غير محبوب وأنه ينال أقل من حقه. فكر في ظلم الموقف كله ومشى في المقبرة يركل الصخور. رأى الكلب الرمادي العملاق فناداه ليرى إن كان سيلبي النداء ويلعب معه، لكنه ظل بعيدًا، فشعر «بود» بإحباط وألقى بحفنة طين جاف عليه، تهشم الطين على شاهد قبر وتبعثر في كل مكان. نظر الكلب العملاق لـ«بود» لائمًا ثم توارى في الظلال ورحل.
مشى الصبي عائدًا عبر جنوب غرب التل وهو يتفادى الكنيسة العتيقة، لم يُرِد أن يرى المكان الذي لم يعد «سيلاس» فيه. توقف «بود» جوار قبر بدا له كما شعر به. كان تحت شجرة بلوط ضربها البرق يومًا، وصارت مجرد جذع أسود، كأنها مخلب حاد يبرز من التل. القبر نفسه كان مبتلًّا بالماء ومشققًا وفوقه كان نصبٌ تذكاري عليه تمثال لملاك بلا رأس معلقًا، وعباءته كأنها شجرة طحالب قبيحة عملاقة.
جلس «بود» على كومة من العشب وشعر بالرثاء لنفسه وبالمقت للجميع، بل إنه كره «سيلاس» الذي رحل وتخلى عنه، ثم أغمض عينيه وتكور فوق العشب وغاب

في نعاس بلا أحلام.
عبر الشارع ونحو أعلى التل جاء «دوق وستمنستر» ومعه «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر» و«مطران باث وويلز»([3])، ينزلقون من ظل إلى آخر، كلهم أعصاب وغضاريف، كان كل واحد فيهم نحيلًا جلديًّا يلبس ثيابًا رثة مزقة. كانوا يثبون ويتسللون عبر القمامة محتمين بالنواحي المظلمة من السياج.
كانوا صغيري الحجم، كأنهم أشخاص طبيعيو الحجم انكمشوا في الشمس، وكانوا يتكلمون معًا بأصوات خفيضة، وكانوا يقولون أشياء مثل: «لو كانت لدى سعادته أي أفكار مثمرة عن مكاننا أفضل مما لديَّ، فلسوف أكون ممتنًّا لو قال ما لديه، وإلا فعليه أن يبقي فمه المتعفن مغلقًا». وأيضًا: «كل ما أريد قوله يا نيافتك هو أنني أعرف بوجود قبر قريب، يمكنني أن أشم رائحته». وأيضًا: «لو

كان بوسعك أن تشم رائحته فلا بد أن هذا بوسعي أيضًا، لأن حاسة شمي أقوى من حاسة شم سعادتكم».
كان هذا يدور وهم يشقون طريقهم الملتوي عبر حدائق الضواحي، تجنبوا حديقة واحدة عندما قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»: «بسسس! كلاب!»، وفرُّوا عبر جدران الحديقة كأنهم فئران في حجم الأطفال، حتى بلغوا الشارع ثم الطريق المتجه لأعلى التل. بلغوا جدار المقبرة فتسلقوه كسناجب تسلقت شجرة، وتشمموا الهواء.
قال «دوق وستمنستر»:
ـ احترسوا من الكلب.
قال «مطران باث وويلز»:
ـ أين؟ لا أعرف، في مكان ما هنا. ليست له رائحة الكلب العادي على كل حال.
قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ هناك من لم يشم هذه المقبرة أيضًا، هل تذكُر؟ هذا مجرد كلب.
وقفز الرجال الثلاثة من الجدار إلى الأرض وركضوا وهم يستعملون أيديهم كأرجلهم ليندفعوا عبر المقبرة إلى باب الغيلان عند شجرة البرق، جوار البوابة في ضوء القمر توقفوا.
تساءل «مطران باث وويلز»:
ـ ما هذا لو كان في بيتنا إذن؟
قال «دوق وستمنستر»:
ـ ليرحمنا الله!
هنا صحا «بود» من نومه.
كان يمكن للوجوه الثلاثة التي تحملق فيه أن تكون وجوه بشر تحولوا لمومياوات جافة بلا لحم، لكن قسماتهم كانت متحركة ومهتمة، هناك أفواه انفتحت لتكشف عن أسنان حادة ملوثة وعيون لامعة كالخرز، وأنامل ذات مخالب تتحرك وتدق.
سأل «بود»:
ـ من أنتم؟
قال أحد المخلوقات:
ـ نحن شخص مهم جدًّا.
أدرك «بود» أنهم أكبر منه بقدر بسيط.
ـ هذا «دوق وستمنستر».
هز أكبر الكائنات رأسه وقال:
ـ تشرفت، أنا واثق.
ـ وهذا «مطران باث وويلز».
لم يبدُ المخلوق مناسبًا لفكرة «بود» عن المطارنة. فقد كانت له أسنان حادة ولسان مدبب طويل جدًّا. وكان جلده مبرقشًا، وكانت هناك رقعة على إحدى عينيه فبدا كأنه قرصان.

ـ وأنا يشرفني أن أكون «أرشيبالد فيتزوف الموقّر»، في خدمتك.
وانحنى الثلاثة كأنهم واحد. وقال «مطران باث وويلز»:
ـ الآن يا بُني، ما قصتك؟ هه؟ ولا تقل أي كذب لأنك تتكلم مع مطران.
قال الآخران:
ـ قل له، هذا نيافتك.
أخبرهم «بود». حكى لهم كيف أنه لا أحد يحبه أو يريد أن يلعب معه، وكيف لا يقدره أحد أو يهتم به، وكيف تخلى عنه راعيه.
قال «دوق وستمنستر» وهو يهرش أنفه (شيء صغير جاف لا يزيد على فتحة تنفُّس):
ـ يا للعجب! ما تحتاج له هو أن ترحل لمكان يُقدرك الناس فيه.
قال «بود»:
ـ لا يوجد أي مكان، ليس مسموحًا لي بمغادرة المقبرة.
قال «مطران باث وويلز» وهو يُخرج لسانه:
ـ أنت بحاجة لعالم كامل من الأصدقاء وزملاء اللهو، مدينة من المباهج والمتعة والسحر، حيث يعرفون قيمتك ولا يتجاهلونك.
قال «بود»:
ـ السيدة التي تُعنى بي تعد طعامًا شنيعًا، حساء بيض مسلوق جدًّا وأشياء أخرى.
قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ طعام! حيث نحن ذاهبون يوجد أفضل طعام في العالم، يجعل أمعائي تتلوى ولعابي يسيل بمجرد التفكير فيه.
سأل «بود»:
ـ هل لي أن آتي معكم؟
قال «دوق وستمنستر» وقد بدا مصدومًا:
ـ تأتي معنا؟
قال «مطران باث وويلز»:
ـ لا تكن كذا سعادتكم، ليكن لك قلب خافق، انظر كيف أن هذه الحشرة الصغيرة لم تظفر بوجبة محترمة منذ يعلم الله كم من الزمن.
قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ أختار أن آخذه، هناك يرقات جيدة عندنا في فيتزوف.
ـ هناك يرقات جيدة عندنا كذلك.
وربت على معدته ليبين كم أن الطعام جيد.
سأل «دوق وستمنستر» الذي سيطرت عليه فكرة جديدة:
ـ إذن أنت ترغب في المغامرة؟ أم أنك ترغب في تمضية بقية حياتك هنا؟
وأشار للمقبرة والليل بأصابع عظمية.
فكر «بود» في مس «لوبسكو» وطعامها الكريه وقوائمها وأنفها المنكمش. وقال:
ـ أنا راغب في المغامرة.

ربما كان أصدقاؤه الجدد الثلاثة في حجمه لكنهم أقوى من أي طفل، ووجد «بود» أن «مطران باث وويلز» قد حمله فوق رأسه بينما التقط «دوق وستمنستر» حفنة من العشب وصاح بما بدا أنه: «سكاه! ثيه! كافِجاه!» وسحب، انفتح اللوح الحجري الذي يغلق القبر كأنه باب مصيدة، وظهر الظلام تحته.
قال الدوق:
ـ بسرعة الآن.
فدفع «مطران باث وويلز» «بود» عبر الفتحة المظلمة ثم وثب وراءه، يتبعهما «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر» ثم بعدهم «دوق وستمنستر»، الذي ما إن دلف إلى الداخل حتى صاح: «ويه كيرادوس!» ليغلق بوابة الغيلان، فهوى الصخر فوقهم.
سقط «بود» عبر الظلام كأنه كتلة من الرخام وهو مذعور فلم يقدر على الصراخ، متسائلًا عن عمق هذا القبر، عندما أمسكته يدان قويتان من تحت إبطيه ووجد نفسه يتأرجح في الظلام الدامس. لم يكن «بود» قد جرب الظلام الكلي لأعوام طويلة. كان يرى في المقبرة كما يرى الموتى، ولم يكن جبٌّ أو قبرٌ مظلمًا تمامًا بالنسبة له. الآن كان في ظلام تام يشعر بأنه يُضرب للأمام وسط الدفعات والريح تهب من خلفه، كان هذا مخيفًا لكنه كذلك كان مثيرًا. ثم ظهر الضوء وتغير كل شيء. كانت السماء حمراء لكنْ ليس احمرار الشروق الدافئ، كانت سماء حمراء غضبى، لها لون الجرح الملوث، الشمس صغيرة وبدت كأنها عجوز بعيدة، كان الهواء باردًا وهم ينزلقون هابطين على جدار، كانت حجارة المقابر تبرز من جانب الجدران كأن مقبرة كبيرة قد وقفت على طرفها، وكثلاثة قردة شمبانزي في ثياب سود غير مهندمة، كان «دوق وستمنستر» و«أرشيبالد فيتزوف الموقَّر» و«مطران باث وويلز» يتأرجحون من حجر لتمثال، وبينهم يتأرجح «بود» يدفعونه من واحد لآخر ولا يسقطونه أبدًا، وإنما يمسكونه بسهولة ومن دون أن ينظروا.
حاول «بود» أن ينظر لأعلى ليرى القبر الذي دخلوا منه هذا العالم الغريب، لكنه لم يرَ سوى شواهد القبور. تساءل إن كان كل قبر من القبور التي يتأرجحون حولها هو باب يخص هؤلاء القوم الذين يحملونه.
سأل، لكن الريح أطارت صوته بعيدًا:
ـ إلى... إلى أين نحن ذاهبون؟
ازدادت السرعة أكثر فأكثر، رأى «بود» فوقهم تمثالًا يتأرجح، ومخلوقَين يندفعان عبر هذا العالم ذي السماء القرمزية، يشبهان هؤلاء الذين يحملون «بود»، أحدهما يلبس ثوبًا حريريًّا مهلهلًا يبدو كأنه كان أبيض يومًا ما، والآخر يلبس بدلة رمادية مبقعة واسعة عليه جدًّا، وكماها ممزقان. رأيا «بود» والثلاثة معه فهبطا ـ بسهولة تامة ـ مسافة عشرين قدمًا ليلقياهم.
أطلق «دوق وستمنستر» صيحة حلقية وتظاهر بأنه خائف، وتأرجح «بود» ورفيقاه مع الاثنين الآخرين على جدران القبر، لم يبدُ أن أحدهم تعب أو انقطع نفَسه، بينما هم تحت الشمس الحارقة التي تحدق فيهم كعين ميت، لكنهم

في النهاية استقروا على جانب تمثال ضخم لمخلوق صار وجهه كله نموًّا للطحالب. وجد «بود» أنهم يقدمونه لـ«رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثين» و«إمبراطور الصين».
قال «مطران باث وويلز»:
ـ هذا هو السيد «بود»، سوف يكون واحدًا منا.
قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ هو يبحث عن وجبة طيبة.
قال «إمبراطور الصين»:
ـ حسن، عندما تكون واحدًا منا تضمن عشاء ممتازًا أيها الشاب.
قال «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون»:
ـ يب.
قال «بود»:
ـ أصير واحدًا منكم؟ هل تعني أن أتحول لواحد منكم؟
قال «مطران باث وويلز»:
ـ ذكي كسوط، حاد كمسمار. سوف تنهض متأخرًا في الليل لتصير واحدًا منا، قويًّا مثلنا، لا تُقهر.
قال «إمبراطور الصين»:
ـ أنياب قوية تهشم أي عظام، ولسان حاد وطويل ليلعق النخاع من أعمق عظمة، أو ينزع اللحم عن وجه رجل سمين.
قال «دوق وستمنستر»:
ـ يمكنك أن تنزلق من ظل لظل ولا يراك أحد ولا يشك فيك أحد. حرًّا كالهواء، سريعًا كالأفكار، باردًا كالثلج، قاسيًا كالأظفار، خطرًا مثلنا!
نظر «بود» للمخلوقات وقال:
ـ وماذا لو لم أُرِد أن أكون واحدًا منكم؟
ـ لا تريد؟ بالتأكيد تريد! ما الأفضل من هذا؟ لا يوجد أحد في العالم لا يريد أن يكون مثلنا تمامًا.
ـ لدينا أفضل مدينة.
قال «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون»:
ـ غولهايم.
ـ أفضل حياة، أفضل طعام.
قاطعهم «مطران باث وويلز»:
ـ هل تتخيل مدى روعة شرب الإفرازات السوداء التي تتجمع في التوابيت؟ وأن تشعر بأنك أهم من أي ملك وملكة وأي رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، وتكون واثقًا من هذا، كما أن الناس أهم من الكرنب البري؟
قال «بود»:
ـ من أنتم أيها القوم؟
قال «مطران باث وويلز»:
ـ غيلان، ليرحمني الله، هناك من لم يكن منصتًا، نحن غيلان!

ـ انظر!
وتحتهم كانت مجموعة من المخلوقات الصغيرة تتواثب وتجري، متجهة للطريق تحتهم، وقبل أن يقول كلمة أخرى اختطفته أيدٍ عظمية وطار في الهواء في سلسلة من الوثبات، واتجهت المخلوقات للقاء أخرى من نوعها.
انتهت جدران المقبرة وصار هناك طريق ولا شيء سواه، طريق تمشي فيه الأقدام كثيرًا عبر صحراء من الصخور والعظام، يلتف حول مدينة على بُعد أميال، تشمخ فوق تل صخري ضخم.
نظر «بود» للمدينة وأصابه الرعب، عاطفة مختلطة ابتلعته تجمع بين النفور والخوف والاشمئزاز والمقت، كل هذا مع الصدمة، الغيلان لا تبني، إنها طفيليات تأكل الموتى والفضلات. هذه المدينة التي تُدعى غولهايم هي شيء وجدته منذ زمن لكنها لم تصنعه. لا أحد يعرف (لو عرف أي بشري) نوع المخلوقات التي صنعت هذه المباني، من ملأ الصخور بثقوب من الممرات والأبراج، لكن من المؤكد أن أحدًا لن يرغب في البقاء هنا أو حتى الاقتراب سوى الغيلان. حتى من الممر تحت غولهايم وحتى على بعد أميال، كان بوسع «بود» أن يدرك أن كل الزوايا خطأ وأن الجدران منحدرة بشكل مجنون، وأن كل كابوس عاشه من قبل قد صار في مكان واحد، كأنه فم عملاق له أسنان بارزة. كانت مدينة بُنيت كي تُهجر، حيث كل مخاوف وجنون ونفور الكائنات التي بنتها قد صارت حجرًا. لقد وجدتها الغيلان وسُرَّت بها وأطلقت عليها «الوطن». الغيلان تتحرك بسرعة، لذا احتشدت عبر الطرق وسط الصحراء أسرع من النسور، حُمل «بود» وسطهم فوق الرؤوس بوساطة ذراعين قويتين، وهو يُقذف من جانب لآخر شاعرًا بالغثيان، شاعرًا بالذعر، شاعرًا بالغباء.
فوقهم في السماوات الحمراء الملتهبة، كانت أشياء تحلق بأجنحة سود عملاقة.
قال «دوق وستمنستر»:
ـ احترسوا! داروه، لا نريد أن تسرقه عفاريت الليل، لصوص ملاعين.
صرخ «إمبراطور الصين»:
ـ نحن نكره اللصوص!
عفاريت الليل في السماوات الحمراء فوق غولهايم، أخذ «بود» شهيقًا عميقًا وصرخ كما علمته مس «لوبسكو»، صرخ من مؤخرة حلقه كأنه عُقاب.
هبط واحد من الوحوش المجنحة عليه فأطلق «بود» الصيحة من جديد، حتى خنقته أيدٍ صلبة فوق فمه. وقال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ فكرة جيدة أن تَدْعوهم للهبوط، لكنْ ثق بي، مذاقهم ليس طيبًا ما لم يتعفنوا لمدة أسبوعين أولًا، وهم يسببون المتاعب لا أكثر. لا يوجد حب مفقود بيننا وبينهم.
ارتفع عفريت الليل ثانية في هواء الصحراء الجاف ولحق برفاقه، وشعر «بود» بأن الأمل يتلاشى. أسرعت الغيلان نحو المدينة على الصخور، ووجد «بود» نفسه محمولًا بلا احتفال على الكتفين كريهتَي الرائحة لـ«دوق

وستمنستر».
غابت الشمس وارتفع قمران، أحدهما عملاق أبيض مليء بالثقوب بدا أنه يحتل نصف الأفق برغم أنه انكمش وهو يرتفع، وكان هناك قمر آخر أصغر أزرق مخضر كالطحلب في قطعة جبن، وكان قدومه مناسبة لاحتفال الغيلان. كفوا عن المشي وصنعوا معسكرًا جوار الطريق.
أحد أعضاء المجموعة الجدد، لعله ذلك الذي قدموه له باسم الكاتب الشهير «فكتور هوجو»، أخرج حقيبة تبين أنها مليئة بالحطب، قطع كثيرة وبعضها له مقابض من نحاس، وبقداحة سجائر أشعل نارًا جلست حولها كل الغيلان تستريح. نظرت لأعلى نحو القمر الأزرق المخضر وتقاتلت على أفضل أماكن قرب النار، وتبادلت الشتائم وخدشت بعضها.
قال «دوق وستمنستر»:
ـ سوف ننام حالًا، ثم ننطلق عند غياب قمر غولهايم. ما زالت أمامنا تسع أو عشر ساعات في الطريق. سوف نصل قبل أن يبزغ القمر ثانية، ثم نحتفل، هه؟ نحتفل بأنك صرت منا.
قال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ لن يؤلمك هذا، لن تلاحظ، وبعدها كم ستكون سعادتك.
بدأوا يحكون القصص وكم أنه من الرائع أن تكون غولًا وعن كل الأشياء التي ابتلعوها ومضغوها بأسنانهم القوية. قال أحدهم إنهم منيعون ضد المرض والسقم. لا يهم سبب موت عشائهم، فمن السهل عليهم أن يمضغوه. حكوا عن الأماكن التي زاروها والتي يبدو أنها كانت جميعًا مقابر جماعية ومدافن طاعون.
قال «إمبراطور الصين»:
ـ مدافن الطاعون وجبة طيبة.
فوافقه الجميع. وحكوا لـ«بود» كيف اتخذوا هذه الأسماء وكيف سيحمل اسمًا بعد الطبق الرئيسي من العشاء الأول.
قال «بود»:
ـ لكنْ لا أريد أن أكون واحدًا منكم.
قال «مطران باث وويلز» بسرور:
ـ بشكل أو بآخر ستكون منا، الطريقة الأخرى أكثر فوضى وتتضمن أن نهضمك، وأنت لن تستمتع بهذه الطريقة.
قال «إمبراطور الصين»:
ـ لكن هذا موضوع غير محبب. من الأفضل أن تكون غولًا. نحن لا نخشى أي شيء.
وعَوَت كل الغيلان حول النار المشتعلة من التوابيت، وغنت وأبدت إعجابها بمدى حكمتها ومدى قوتها وكيف أنها لا تخاف أي شيء.
كانت هناك ضوضاء من الصحراء ومن بعيد، عواء بعيد جعل الغيلان يقتربون من النيران ويثرثرون.
سأل «بود»:

ـ ما كان هذا؟
هزت الغيلان رأسها وهمس واحد منها:
ـ شيء ما في الصحراء، صمتًا! سوف يسمعنا!
وصمتت كل الغيلان لبعض الوقت حتى نسيت ذلك الشيء في الصحراء، وبدأت تغني أغاني غيلان مليئة بالبذاءات والتلميحات السيئة. ومنها أغانٍ تسرد قائمة بأجزاء الجسد المتعفنة التي يتم التهامها.
قال «بود» عندما انتهت آخر قطع اللحم في الأغنية:
ـ لا أريد أن أكون هنا.. أريد العودة لبيتي.
قال «دوق وستمنستر»:
ـ لا تنظر للأمور بهذه الطريقة، أعِدُك أيها الفرخ الصغير أنه بمجرد أن تصير واحدًا منا لن تتذكر حتى أنه كان لك بيت.
قال الكاتب الشهير «فكتور هوجو»:
ـ لا أذكر أي شيء عن الأيام التي سبقت تحولي لغول.
قال «إمبراطور الصين» في فخر:
ـ ولا أنا.
قال «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون»:
ـ نوب.
قال «مطران باث وويلز» بتفاخر:
ـ سوف تكون واحدًا من مجموعة منتقاة من أبرع وأقوى وأشجع المخلوقات.
لم يكن «بود» مهتمًّا بشجاعة الغيلان أو حكمتها. كانت قوية برغم هذا وسريعة بشكل غير بشري، وكان في وسطها. الخروج من هنا كان مستحيلًا، سوف يمسكون به قبل أن يبتعد ١٢ ياردة.
هناك في الظلام عوى شيء مرة أخرى فدنت الغيلان من النار. سمعها «بود» تشهق وتسب. أغمض عينيه في تعاسة وشوق للبيت؛ فهو لم يُرِد أن يكون من الغيلان. تساءل كيف يتمكن من النوم بهذا القلق واليأس، وبرغم هذا ولدهشته نام ساعتين أو ثلاثًا.
أيقظته ضوضاء عالية قريبة. كان هذا شخصًا يقول:
ـ حسن.. أين هما؟ هه؟
فتح عينيه ليرى «مطران باث وويلز» يصيح في «إمبراطور الصين». يبدو أن اثنين من المجموعة اختفيا في الظلام. تلاشيا ببساطة وما من أحد لديه تفسير. قامت الغيلان الباقية بحزم المعسكر بسرعة، والتقط «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون» «بود» وحمله على كتفيه. هبطت الغيلان على منحدر الطريق تحت سماء حمراء بلون الدم الفاسد، واتجهت إلى غولهايم.
بدا أنها فقدت بعض القوة، وخُيِّل لـ«بود» على الأقل أنها تفر من شيء ما.
عندما انتصف النهار والشمس التي تشبه العين الميتة فوقهم، توقفت الغيلان واحتشدت. أمامها في عنان السماء، تدور في تيارات الهواء الساخن، كانت عفاريت الليل. الكثير منها تركب التيارات الحرارية. انقسمت الغيلان إلى حزبين؛ أولئك الذين يرون أن اختفاء صديقيهما لا معنى له، وأولئك الذين

اعتقدوا أن عفاريت الليل خرجت لتظفر بهم. لم يتفقوا على شيء فيما عدا أن يتسلحوا بالصخور لرميها على عفاريت الليل لو هبطت، وملأوا الجيوب بالحصى من أرض الصحراء. عوى شيء ما في الصحراء على يسارهم فتبادلت الغيلان النظرات. كانت أعلى من الليلة السابقة وأقرب. عواء ذئب عميق.
تساءل «اللورد عمدة لندن»:
ـ هل سمعت هذا؟
قال «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون»:
ـ نوب.
وقال «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ ولا أنا.
وجاء العواء من جديد. فقال «دوق وستمنستر» وهو يدفع صخرة كبيرة:
ـ علينا أن نعود للبيت.
كانت مدينة غولهايم الكابوسية تقبع على بروز صخري أمامهم، وراحت المخلوقات تنحدر عبر الطريق إليها.
صرخ «مطران باث وويلز»:
ـ عفاريت الليل قادمة، اقذفوا الأحجار على الملاعين!
انقلبت رؤية «بود» للأمور في تلك الليلة، وهو يُتَطَّط فوق كتفَي «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثين»، ورمال الممر تتناثر في عينيه. لكنه سمع صرخات كصرخات العُقبان، ومن جديد طلب العون من عفاريت الليل. لم يحاول أحد أن يوقفه هذه المرة، لكنه كان واثقًا أنه ما من أحد سمعه وسط صراخ عفاريت الليل أو لعنات الغيلان وهم يقذفون الحجارة في الهواء.
سمع «بود» العواء من جديد، وهذه المرة كان من اليمين.
قال «دوق وستمنستر» في كآبة:
ـ هناك الكثير من هؤلاء الأوغاد.
ناول «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون» «بود» للكاتب الشهير «فكتور هوجو»، الذي وضع الصبي في حقيبة ووضعها على كتفه. شعر «بود» بسعادة لأن الحقيبة لم تكن رائحتها أسوأ من الخشب المغبر.
صاح غولٌ:
ـ إنهم يتراجعون! أنظر لهم يرحلون!
قال صوت آخر بدا لـ«بود» كأنه «مطران باث وويلز»:
ـ سوف ينتهي هذا الهراء عندما نأخذك إلى غولهايم، لا أحد يقدر على دخولها.
لم يستطع «بود» تحديد إن كان أحد الغيلان قُتل أو أوذي وهو يحارب عفاريت الليل. شك من سباب «مطران باث وويلز» أن المزيد من الغيلان قد فر. صاح واحد ربما كان «دوق وستمنستر»:
ـ بسرعة.
فانطلقت الغيلان فارة، وظل «بود» في الحقيبة شاعرًا بعدم الراحة وهو يرتطم

بلا توقف بالكاتب الشهير «فكتور هوجو» وأحيانًا يرتطم بالأرض. ومما جعل وقته في الحقيبة أسوأ أنه كانت هناك قطع خشب، ولا داعي لذكر المسامير، ففي الحقيبة معه كان حطب النار الذي صُنع من بقايا التوابيت. كان هناك مسمار تحت يده يطعن فيه في كل خطوة من خطوات معتقليه، أمسك «بود» بالمسمار في يده اليمنى. كان يشعر بطرفه الحاد. دعا الله في أعماقه، ثم دفع المسمار في قماش الحقيبة من خلفه، مستخدمًا الطرف الحاد، ثم جذب المسمار وصنع ثقبًا آخر تحت الأول. من خلفه سمع شيئًا يعوي من جديد، وخطر له أن الشيء الذي يخيف الغيلان لا بد أنه أكثر إفزاعًا مما يتصور، وللحظة توقف عن الطعن بالمسمار. ماذا لو سقط من الحقيبة ليقع في فك وحش شرير؟ على الأقل لو مات فسيموت هو نفسه، سيحتفظ بذكرياته وسيعرف مَن أبواه ومن «سيلاس» ومن مس «لوبسكو». هذا جميل.
انقض على الحقيبة من جديد بهذا المسمار المعدني وراح يدفع حتى صنع فجوة أخرى في القماش.
صاح «مطران باث وويلز»:
ـ هلم يا شباب! اصعدوا الدرجات ولسوف نكون في بيتنا في أمان تام في غولهايم.
صاح شخص آخر ربما هو «أرشيبالد فيتزوف الموقَّر»:
ـ مرحى يا عظمتكم.
الآن تبدلت حركة القانصين. لم تعد حركة للأمام، بل صارت حركة متواصلة من الصعود والتقدم، الصعود والتقدم. ضرب «بود» على الحقيبة بيده وحاول أن يثقب موضعًا يبصر منه، نظر للخارج. في الأعلى؛ السماء الحمراء المخيفة، وفي الأسفل...
... استطاع أن يرى أرض الصحراء، لكنها تبعد مئات الأقدام تحته. كانت هناك درجات تمتد خلفهم لكنها درجات صُنعت للعمالقة. لا بد أن غولهايم ـ التي لا يراها «بود» من مكانه ـ تقع فوقهم. إلى يساره كانت هاوية، قرر أن يقفز مباشرة إلى الدرجات، وتمنى ألا تلاحظ الغيلان فراره أثناء لهفتها إلى العودة للبيت والأمان. رأى عفاريت الليل عالية في السماء الحمراء، تدور حولهم. سره أنه لم يرَ المزيد من الغيلان خلفه. كان الكاتب الشهير «فكتور هوجو» يحمله خلفه وما من أحد يمكن أن ينذر الغيلان الأخرى بشأن الفتحة التي تتسع في الحقيبة، أو يرى «بود» لو سقط منها، لكن هناك شيئًا آخر.
كان «بود» ساقطًا على جانبه بعيدًا عن الفتحة، لكنه رأى شيئًا عملاقًا ورماديًّا على الدرجات تحته، وهو يطاردهم، سمع صوت زئير غاضب.
كان مستر «أوينز» يقول دائمًا معبرًا عن الوقوع بين أمرين غير محببين للنفس: «أنا بين الشيطان والبحر الأزرق العميق»، وكان «بود» يتساءل عن معنى هذا. فهو لم يرَ في حياته لا الشيطان ولا البحر الأزرق العميق.
الآن فكر: أنا بين الغيلان والوحش.
وبينما كان يفكر أطبقت أنياب حيوان كالكلب على الحقيبة وجذبتها حتى تَمزق القماش عبر الفتحة التي صنعها «بود». سقط الصبي على الدرجات

الصخرية حيث راح حيوان ضخم رمادي يشبه الكلب، لكنه أكبر بمراحل، يزأر ويسيل لعابه، حيوان له عينان متوهجتان وأنياب بيض ومخالب عملاقة. كان يلهث ويحملق في «بود».
أمامه توقفت الغيلان وصاح «دوق وستمنستر»:
ـ «نورا» اللعينة! لقد ظفر كلب الجحيم بالصبي الذي يغمز بعينيه.
قال «إمبراطور الصين»:
ـ دعه يأخذه، اجرِ!
قال «رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون»:
ـ يع!
ركضت الغيلان صاعدة الدرجات. أيقن «بود» الآن أن الدرجات حَفرها عمالقة لأن كل درجة كانت أعلى من قامته. إذ راحت تركض توقفت الغيلان فقط لتستدير وتأتي بحركات فظة تجاه الوحش ونحو «بود». ظل الوحش حيث هو.
فكر «بود» في مرارة: لسوف يلتهمني. أنت ذكي يا «بود».
وتذكر بيته في المقبرة، ولم يعد يتذكر لماذا رحل. كلب وحش أو لا كلب وحش، يجب أن يعود للبيت مرة أخرى، هناك أناس ينتظرونه.
تجاوز الوحش مندفعًا، ووثب إلى الدرجة التالية التي على بعد أربع أقدام تحته، فهبط على كاحليه اللذين انثنيا من تحته بشكل مؤلم، وسقط بقوة على الصخرة. سمع الوحش يركض ويَثِب لأسفل نحوه، فحاول أن يتملص وأن يقف على قدميه، لكن كاحليه صارا بلا نفع، مؤلمين مخدَّلين، وقبل أن يستطيع النهوض سقط من جديد. سقط في الفضاء على جانب المنحدر، هوى مسافات كابوسية لم يستطع تخيلها قَطُّ.
وبينما كان يسقط كان على يقين من أنه سمع صوتًا آتيًا من اتجاه الوحش الرمادي. كان يقول بصوت مس «لوبسكو»:
ـ أه يا «بود»!
كان هذا يشبه كل أحلام السقوط التي عرفها من قبل، سقوط مفزع عبر الفضاء وهو يتجه للأرض من تحته. شعر «بود» بأن عقله تحتله فكرة واحدة عملاقة: إذن فهذا الكلب العملاق كان مس «لوبسكو»، وفكرة: سوف أرتطم بالأرض الصخرية وأتهشم. كلا الفكرتين تُصارع لتحتل رأسه.
التف حوله شيء هوى بنفس سرعة سقوطه، ثم سمع صوت جناحين جلديين وصار كل شيء بطيئًا. لم تعد الأرض تندفع نحوه بذات السرعة.
خفق الجناحان بقوة أكثر، وارتفعا، فكانت الفكرة الوحيدة في رأس «بود» هي: أنا أطير! وكان كذلك. أدار رأسه فرأى فوقه رأسًا بنيًّا ضخمًا أصلع تمامًا، له عينان كأنهما من زجاج أسود مصقول. أطلق «بود» الصوت الذي يعني «النجدة» في لغة عفاريت الليل، فابتسم عفريت الليل وأصدر صوتًا كالبوم. بدا مسرورًا.
وبهدوء هبطا على أرض الصحراء بارتطام بسيط. حاول «بود» أن يقف لكن كاحله تخلى عنه من جديد، فسقط على الرمال. كانت الريح قوية ورمال الصحراء تهب بقوة وتلسع جلد «بود». ركع عفريت الليل جواره وقد ثنى

جناحيه الجلديين إلى ظهره. لقد نشأ «بود» في مقبرة واعتاد رؤية الناس المجنحين، لكن الملائكة على شواهد القبور لا يبدون هكذا أبدًا.
عبر الصحراء في ظلال غولهايم جاء وحش رمادي عملاق نحوهما، يبدو ككلب عملاق. وتكلم الكلب بصوت مس «لوبسكو»:
ـ هذه ثالث مرة تنقذ فيها عفاريت الليل حياتك يا «بود». أول مرة عندما طلبت الغوث وسمعوك، نقلوا الرسالة إليَّ وقالوا لي أين أنت. الثانية عندما كنا حول النار ليلة أمس عندما كنت نائمًا، كانوا يدورون في الظلام وسمعوا الغيلان تقول إنك جلبت لهم النحس وإنها ستهشم رأسك بصخرة، ثم تتركك في مكان يمكنها أن تجده ثانية عندما تتعفن بما يكفي بحيث تأكلك. تعاملت عفاريت الليل مع الموضوع بصمت. والآن هذه المرة.
ـ مس «لوبسكو»؟
انخفض الرأس العملاق الشبيه برأس الكلب نحوه، وللحظة مجنونة مذعورة خطر له أنها ستقضم منه قضمة، لكن لسانها لعق جانب وجهه في عطف وقالت:
ـ هل آذيت كاحلك؟
ـ نعم، لا أستطيع الوقوف عليه.
قال الوحش الرمادي العملاق الذي كان مس «لوبسكو»:
ـ تعالَ نضعك على ظهري.
وقالت شيئًا لعفاريت الليل بتلك اللغة الصارخة، ثم دنت منه فوضع ذراعيه حول عنق مس «لوبسكو». قالت:
ـ تمسَّك بالفراء، تمسَّك جيدًا. والآن قبل أن نرحل قُل...
وأطلقت المزيد من صوت الصراخ.
ـ ما معنى هذا؟
ـ شكرًا أو وداعًا، نفس المعنى.
أصدر الصراخ بأفضل ما بوسعه، فردَّ عفريت الليل بقهقهة مكتومة مستمتعة بالموقف. ثم أصدر ضوضاء مماثلة وفرد جناحيه الجلديين العظيمين وحلق في ريح الصحراء وارتفع كأنه طيارة ورقية بدأت في الارتفاع.
قال الوحش الذي كان مس «لوبسكو»:
ـ تمسَّك.
وبدأت تركض.
ـ هل نحن ذاهبان لحائط المقابر؟
ـ لبوابات الغيلان؟ لا، هذه بوابات مخصصة للغيلان. أنا من كلاب الرب، أمضي في طريقي وأدخل الجحيم وأخرج منه.
وبدا لـ«بود» أنها تركض أسرع.
ارتفع القمر العملاق ومعه القمر الأصغر بلون العفن، ثم لحق بهما قمر أحمر كالعقيق. ركض الذئب الرمادي عبر صحراء من العظام. توقف عند بناية من الخزف المهشم تبدو كخلية نحل عملاقة، بنيت جوار جدول ماء يتدفق بين صخور الصحراء، ويصب في بركة صغيرة ثم يختفي ثانية. وضع الذئب الرمادي

رأسه أسفل وشرب، وجمع «بود» الماء في يديه وراح يشرب بجرعات صغيرة عديدة.
قال الذئب الرمادي الذي كان مس «لوبسكو»:
ـ هذه هي الحدود.
فنظر «بود» لأعلى، استطاع أن يرى درب التبانة كما لم يرَه من قبل. عَبْر قوس السماء، كانت السماء مفعمة بالنجوم. قال «بود»:
ـ إنها رائعة.
قالت مس «لوبسكو»:
ـ عندما آخذك للبيت سوف أعلمك أسماء النجوم والأبراج.
وافق «بود» وقال:
ـ أحب هذا.
تسلق «بود» ظهرها الرمادي العملاق مرة أخرى، ودفن وجهه في فرائها وتشبث بقوة، وخلال لحظات شعر بأنه يُحمل على ظهرها، في نوع من الارتباك كأنها امرأة مسنة تحمل طفلًا في السادسة، وعبرَا المقبرة نحو قبر «أوينز» في المقبرة.
كانت مس «لوبسكو» تقول:
ـ لقد آذى كاحله.
قالت السيدة «أوينز»:
ـ يا للمسكين الصغير.
وأخذت الصبي منها وراحت تهدهده بين ذراعيها القويتين وإن كانتا غير ماديتين.
ـ لا أستطيع أن أقول إنني لم أقلق لأنني قلقت فعلًا، لكنه قد عاد الآن، وهذا كل ما يهم.
وشعر براحة تامة تحت الأرض، وفي مكان طيب، ورأسه على وسادته وهناك ظلمة لطيفة منهكة من حوله.
كان كاحل «بود» متورمًا قرمزيًّا، وقد تفحصه دكتور «تريفوسيس» (١٨٧٠-١٩٣٦، لينهض من أجل المجد) وقال إنه مجرد التواء. عادت مس «لوبسكو» من رحلتها إلى متجر الكيميائي، ومعها رباط كاحل ضيق و«جوزياه ورثنجتون»، و«بارت»، الذي دُفن مع عصاه الأبنوسية. وأصر هذا على أن يقرض عصاه لـ«بود» الذي استمتع حقًّا بالاستناد على العصا والتظاهر بأن عمره مائة عام.
راح «بود» يعرج حتى بلغ قمة التل واستعاد قصاصة ورق مطوية من تحت صخرة.
كلاب الرب
كانت مطبوعة بحبر أرجواني وكانت أول عنصر في قائمة.
إن هؤلاء الذين يطلق الناس عليهم «مذؤوبين» أو «لايكانثروب» يطلقون على أنفسهم «كلاب الرب»، لأنهم يزعمون أن تحولهم هبة من خالقهم، وهم يَردون الجميل بجَلَدِهم إذ يطاردون الأشرار حتى بوابات الجحيم ذاتها.

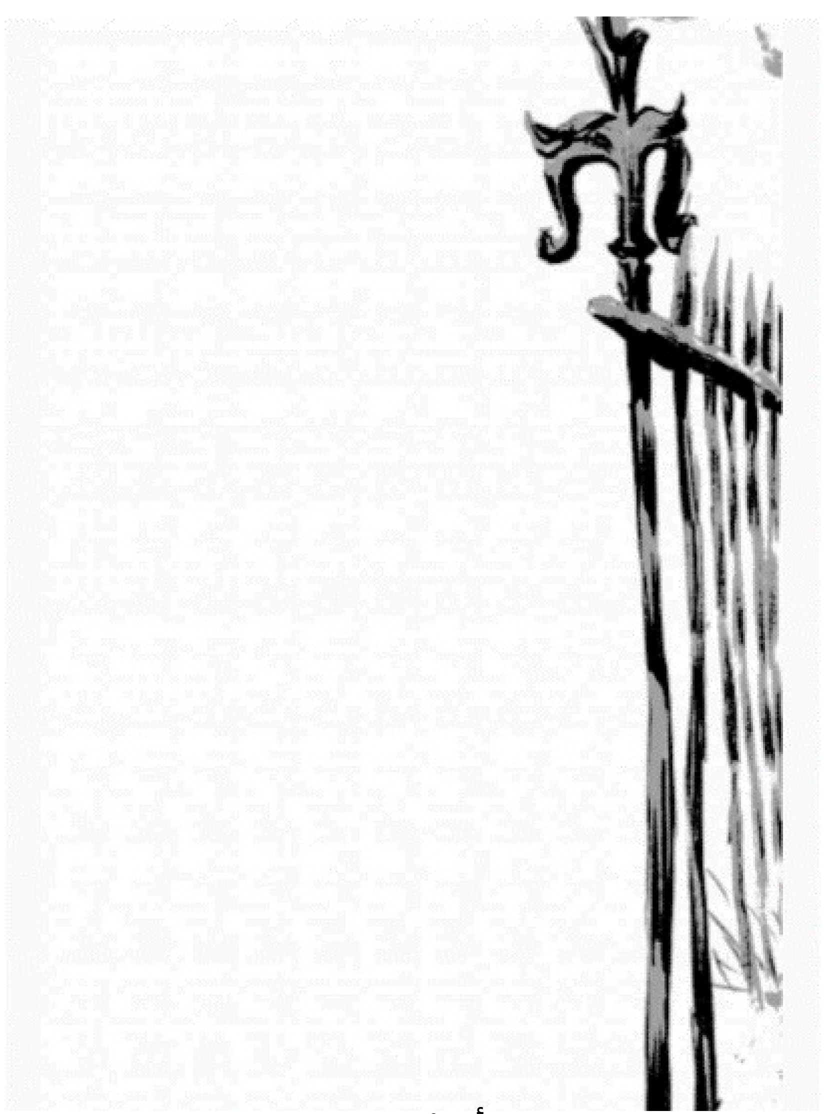
وهز «بود» رأسه.
فكر: ليس الأشرار فقط.
قرأ باقي القائمة محاولًا أن يتذكر ما بها قدر استطاعته، ثم هبط إلى الكنيسة حيث كانت مس «لوبسكو» تنتظره، ومعها فطيرة لحم صغيرة وكيس كبير مليء بالبطاطس المقلية اشترتها من متجر البطاطس والسمك أسفل التل. ومعها كومة أخرى من القوائم المكتوبة بحبر أرجواني.
تناولا البطاطس معًا وابتسمت مس «لوبسكو» مرة أو مرتين.
عاد «سيلاس» في نهاية الشهر، وكان يحمل حقيبته السوداء في يده اليسرى ويده اليمنى متخشبة. لكنه كان «سيلاس» نفسه وقد سُرَّ «بود» لأنه رآه. وازدادت سعادته عندما منحه «سيلاس» هدية؛ هي نموذج لجسر البوابة الذهبية في سان فرانسسكو. كان منتصف الليل تقريبًا ولم يحُل الظلام بعد. كان ثلاثتهم يجلسون عند قمة التل وأضواء المدينة تتألق تحتهم.
قال «سيلاس»:
ـ أعتقد أن كل شيء مضى على ما يرام أثناء غيابي.
قال «بود» وهو ما زال يمسك بالجسر:
ـ تعلمت الكثير.
وأشار لسماء الليل وقال:
ـ هذه هي نجمة الدب الأكبر هناك هي وابنها الدب الصغير، وهذا دراكو التنين يتسلل بينهما.
قال «سيلاس»:
ـ ممتاز.
سأل «بود»:
ـ وأنت؟ هل تعلمت شيئًا أثناء غيابك؟
ـ أه طبعًا.
قالها «سيلاس» ولم يوضح.
قالت مس «لوبسكو»:
ـ أنا أيضًا تعلمت أشياء.
قال «سيلاس»:
ـ جميل.
وأطلقت بومة صرختها المكتومة بين أغصان شجرة بلوط.
ـ تعرف، لقد سمعت إشاعات وأنا بعيد، عن أنكما منذ أسبوع ذهبتما لمكان أبعد من أن أستطيع أن أتبعكما، في العادة أنصح بالحذر، لكن الغيلان تتمتع بذاكرة قصيرة الأمد على عكس البعض.
قال «بود»:
ـ لا بأس، لقد اعتنت مس «لوبسكو» بي، لم أتعرض لأي خطر.
نظرت مس «لوبسكو» لـ«بود» والتمعت عيناها، ثم نظرت لـ«سيلاس».
قالت:
ـ هناك أشياء عديدة يجب أن نعرفها، ربما أعود العام المقبل في منتصف

الصيف لأعلم الصبي ثانية.
نظر «سيلاس» لمس «لوبسكو» فرفعت حاجبها قليلًا ثم نظرت لـ«بود».
قال «بود»:
ـ يروق لي هذا.

الفصل الرابع
شاهدُ قبر الساحرة

كانت هناك ساحرة دُفنت على حافة المقبرة، وكان الجميع يعرف هذا. قالت مسز «أوينز» لـ«بود» أن يبتعد عن هذا الركن من العالم منذ زمن بعيد. سألها:
ـ لماذا؟
قالت مسز «أوينز»:
ـ ليس مكانًا صحيًّا لجسد حي، المكان رطب هناك، إنه مستنقع من الناحية العملية، ولسوف تلقى نهايتك.
أما مستر «أوينز» نفسه فكان أكثر مراوغة وأضيق خيالًا، فكان كل ما يقول هو:
ـ ليس مكانًا طيبًا.
كانت المقبرة تنتهي عند أسفل الجهة الغربية من التل تحت شجرة التفاح العتيقة، حيث سورٌ من القضبان الحديدية الصدئة وفوق كل منها رأس رمح صدئ، لكنْ كانت هناك أرض خراب خلف هذا، كتلة من الأعشاب وأوراق الشجر ومخلفات الخريف. ولم يحاول «بود» الذي كان بطبعه مطيعًا أن ينحشر وسط القضبان، إلا إنه اختلس النظر عبرها. كان يعرف أن القصة الكاملة لم تُحكَ له وهذا جعله متوترًا.
عاد «بود» لأعلى التل حيث الكنيسة الصغيرة قرب مدخل المقبرة، وانتظر حتى ساد الظلام. إذ انحدر الشفق من اللون الرمادي إلى القرمزي، دوت ضوضاء في العشب كأنه مخمل ثقيل يرفرف، وغادر «سيلاس» موضع راحته في الجرس وهبط برأسه إلى العشب.
سأل «بود»:
ـ ماذا في الركن القَصِي من المقبرة؟ ما بعد «هاريسون وستود» خباز الأبرشية، وزوجتاه «ماريون» و«جون»؟
سأله راعيه وهو ينفض الغبار عن حلته السوداء بأصابع كالعاج:
ـ لمَ تسأل؟
هز «بود» كتفيه:
ـ فقط أتساءل.
قال «سيلاس»:
ـ هي أرض غير مباركة، هل تعرف معنى هذا؟
قال «بود»:
ـ ليس بالضبط.





مشى «سيلاس» عبر الممر دون أن يُسقط ورقة واحدة، وجلس على المقعد جوار «بود» وقال بصوته الناعم:

ـ هناك من يعتبرون الأرض كلها مقدسة، مقدسة قبل أن نأتي إليها ومقدسة بعد رحيلنا. لكنْ هنا في أرضك باركوا الكنائس والأرض التي خصصوها لدفن الموتى كي تصير مقدسة. لكنهم تركوا أرضًا غير مباركة جوار الأرض المقدسة، حيث يدفنون المجرمين والمنتحرين أو هؤلاء الذين لم يؤمنوا.

ـ إذن الناس المدفونون على الجانب الآخر من السور سيئون؟

رفع «سيلاس» حاجبًا واحدًا وقال:

ـ إممم، ليس بالضبط، لنرَ، لقد مر زمن منذ هبطت في هذا الطريق. لكنْ لا أتذكر شخصًا شريرًا بشكل خاص. فيما مضى كان يمكن أن تُشنق لسرقة شلن، وهناك دائمًا أشخاص يجدون أن حياتهم تفتقر للدعم، من ثم يعتقدون أن أفضل ما يفعلونه هو أن يعجلوا بانتقالهم لمستوى آخر من الوجود.

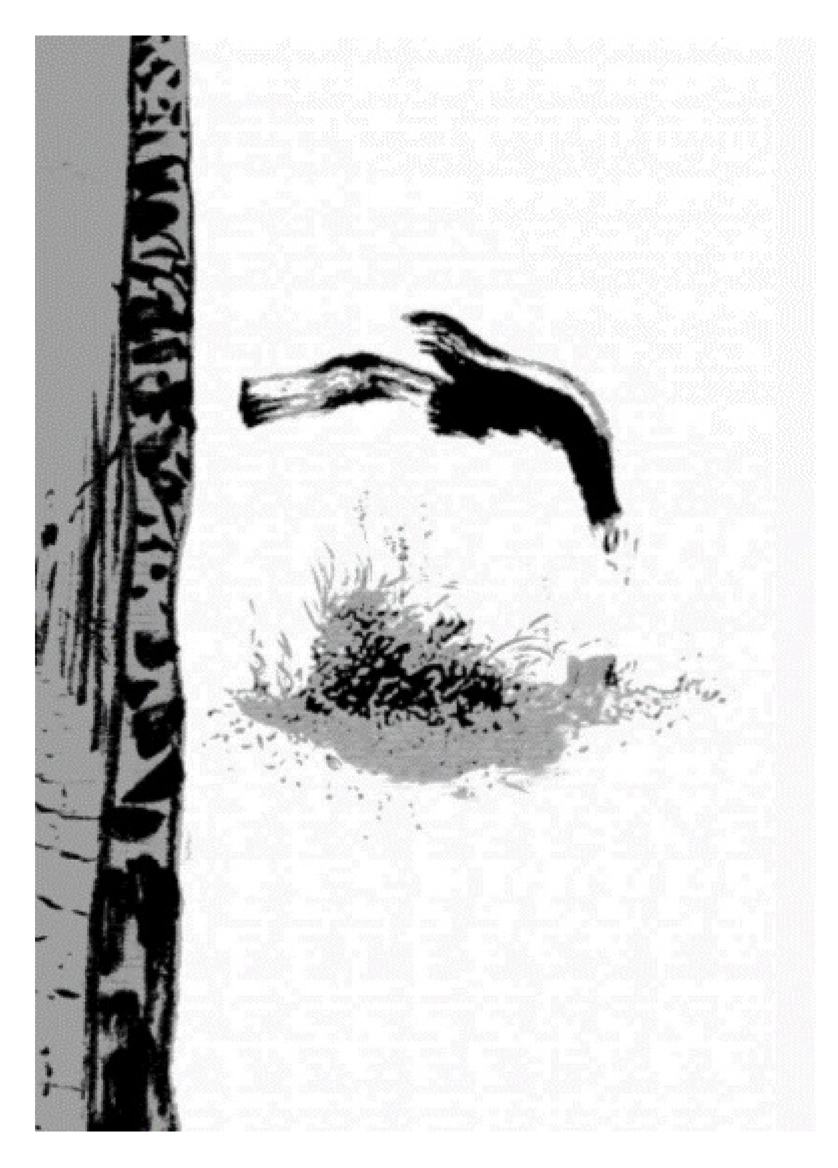
قال «بود»:

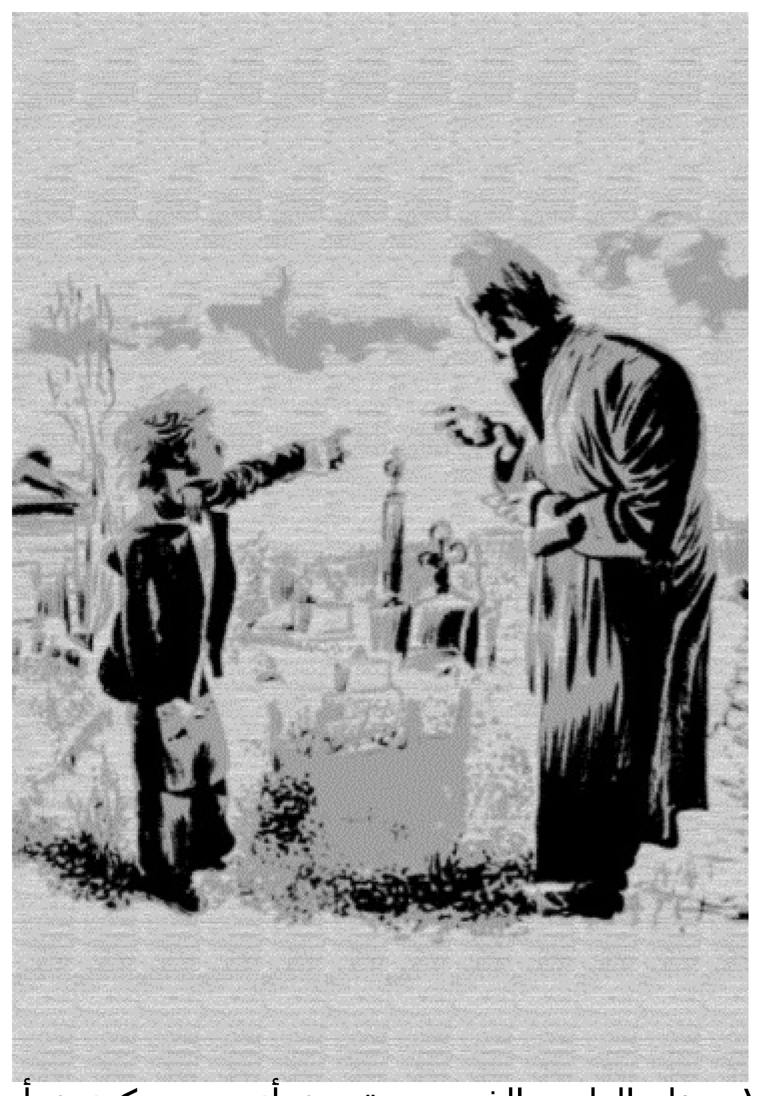
ـ تعني أنهم يقتلون أنفسهم؟

كان في الثامنة من عمره وعيناه متسعتان فضوليتان. ولم يكن غبيًّا.

ـ نعم.

ـ وهل يجدي هذا؟ هل هم أسعد وهم موتى؟





ـ في الغالب لا، مثل الناس الذين يعتقدون أنهم سيكونون أسعد لو ارتحلوا لمكان آخر، لكنهم يكتشفون أن الأمور لا تسير بهذا الشكل. عندما تذهب لأي مكان تأخذ نفسك معك، لو كنت تفهم قصدي.

قال «بود»:

ـ نوعًا.

مد «سيلاس» يده وداعب شعر الصبي.

قال «بود»:

ـ وماذا عن الساحرة؟

قال «سيلاس»:

ـ نعم بالضبط، الانتحار، المجرمون، الساحرات. من ماتوا قبل أن يتم خلاصهم.

ووقف كأنه ظِل من ظلال منتصف الليل في ضوء الشفق، وقال:

ـ كل هذا الكلام وأنا لم أنَل طعام الإفطار بعد. وأنت ستتأخر عن الدروس.

وفي شفق المقبرة كان هناك انفجار داخلي صامت. رفرفة الظلام المخملي. ثم اختفى «سيلاس».

بدأ القمر يرتفع عندما بلغ «بود» ضريح مستر «بِنِيورث»، كان «توماس بِنِيورث» (هنا يرقد موقنًا بقيامة عظيمة) ينتظره، ولم يكن رائق المزاج.

قال:
ـ أنت تأخرت.
ـ آسف يا مستر «بِنِيورث».
أصدر «بِنِيورث» صوت احتجاج من شفتيه. الأسبوع الماضي كان «بِنِيورث» يعلِّم «بود» العناصر وخلائط الجسد. وكان «بود» ينسى بلا توقف أي شيء هو ماذا، كان ينتظر امتحانًا لكن مستر «بِنِيورث» قال:
ـ أظن أنه حان وقت قضاء بضعة أيام مع الأمور العملية. إن الوقت يمر.
سأل «بود»:
ـ هل الأمر كذلك؟
ـ أخشى هذا يا سيد «أوينز» الصغير، كيف حال قدرتك على التلاشي؟
تمنى «بود» لو لم يكن قد سُئل هذا السؤال.
قال:
ـ لا بأس، أعني... أنت تعرف.
ـ لا يا سيد «أوينز»، لا أعرف، لمَ لا تريني هذا بنفسك؟
غاص قلب «بود» في قدميه. أخذ شهيقًا عميقًا وبذل ما بوسعه وحاول أن يتلاشى. لكن مستر «بِنِيورث» لم يتأثر.
ـ باه! ليس هذا ما أعنيه. ليس شيئًا على الإطلاق، التلاشي والاختفاء يا صبي بطريقة الموتى، انزلق بين الظلال، تلاشَ بعيدًا عن وعي الناس. جرِّب ثانية.
وجرب «بود» بجهد أكبر.
قال مستر «بِنِيورث»:
ـ أنت مكشوف كالأنف في وجهك، وأنفك واضح بشكل ملحوظ، مثل باقي وجهك أيها الشاب، بل مثلك أنت. بحق كل ما هو مقدس أفرِغ عقلك. الآن أنت زقاق مهجور، أنت باب فارغ، أنت لا شيء، لن تراك الأعين ولن تعيك العقول، حيث أنت لا يوجد شيء ولا يوجد أحد.
حاول «بود» مرة ثالثة، أغمض عينيه وتخيلَ أنه يذوب في صخور الضريح ليصير من ظلال الليل، وتثاءب.
قال مستر «بِنِيورث» متنهدًا:
ـ مخيف، مخيف تمامًا، سوف أتكلم مع راعيك بصدد هذا.
وهز رأسه وقال:
ـ ننتقل إلى أخلاط الجسد، اتلُها عليَّ.
ـ إممم.. الدم، الصفراء، البلغم، والأخرى.. إممم.. السوداوية على ما أظن؟
هكذا مضى الدرس حتى جاء وقت القواعد اللغوية مع مس «ليتيسيا بوروز»، عانس الأبرشية (التي لم تؤذِ إنسانًا طوال حياتها. وأنت يا من يقرأ هذه الكلمات هل بوسعك قول الشيء ذاته؟). كان «بود» يحب مس «بوروز» وكهفها المريح الصغير وفكرة أنه من السهل أن تُشتت انتباهها.
قال لها:
ـ يقولون إن هناك ساحرة في أرض غير.. غير مباركة.

ـ هذا صحيح يا عزيزي، لكنْ ليس من مصلحتك أن تذهب هناك.
ـ لمَ لا؟
ابتسمت مس «بوروز» ابتسامة الموتى الصادقة وقالت:
ـ هم ليسوا من طرازنا.
ـ لكنها المقبرة. أليس كذلك؟ أعني أنه مسموح لي بالذهاب هناك لو أردت؟
قالت مس «بوروز»:
ـ هذا لا أنصح به.
كان «بود» مطيعًا لكنه بالغ الفضول، لذا عندما جاء الليل مشى عابرًا قبر «هاريسون وستود» وأسرته، حيث كان تمثال محطم الذراع، لكنه لم يهبط التل حيث حقل الصلصال. بدلًا من ذلك صعد جانب التل حيث كانت هناك نزهة خلوية منذ ثلاثين عامًا تركت آثارها على شكل شجرة تفاح كبيرة. كانت هناك بضعة دروس أتقنها «بود»، كان قد أكل ملء بطنه من التفاح غير الناضج حريف المذاق منذ أعوام وندم على ذلك عدة أيام. كانت أحشاؤه تؤلمه بينما مسز «أوينز» تُعلمه ما لا يجب أن يأكله. هكذا صار ينتظر حتى ينضج التفاح قبل الأكل ولم يأكل أكثر من اثنتين أو ثلاث في الليلة. كان قد أنهى آخر التفاح منذ أسابيع لكنه كان يحب شجرة التفاح كمكان للتفكير.
تسلق الجذع حتى موضعه المفضل بين انحناءة غصنين ونظر لأسفل حيث حقل الصلصال من تحته، حزم من الأعشاب والكلأ الذي لم يقصه أحد في ضوء القمر. تساءل إن كانت الساحرة مُسنَّةً ولها أسنان من حديد وتسافر في بيت له أقدام دجاج، أم أنها نحيلة لها أنف مدبب وتحمل عصا مكنسة.
تقلصت معدة «بود» وأدرك أنه جائع. تمنى لو لم يكن قد التهم كل التفاح من على الشجرة، ليته ترك واحدة.
نظر لأعلى وخطر له أنه لمح شيئًا، نظر مرة، نظر مرتين ليتأكد، هناك تفاحة حمراء ناضجة.
كان «بود» يفخر بمهارته في تسلق الشجر. تأرجح لأعلى غصنًا تلو غصن وتخيل أنه «سيلاس» يحلق بنعومة فوق جدار من القرميد. التفاحة التي صار لونها الأحمر شبه أسود في ضوء القمر تتدلى بعيدًا عن مناله. تحرك «بود» ببطء للأمام عبر الغصن حتى صار تحت التفاحة، ثم مد نفسه فلمست أناملُه التفاحة. لم يكن له أن يتذوقها. دوى صوت فرقعة عالية كأنه سلاح صياد إذ تحطم الغصن من تحته. أيقظه وميض خاطف من الألم، حادٌّ كالثلج، له لون البرق البطيء في ليل الصيف هذا. كانت الأرض من تحته ناعمة نوعًا ودافئة بشكل غريب. مد يده تحته فشعر بشيء كفراء دافئ من تحته، حيث كان البستاني يلقي بما تقطعه آلة جزِّ العشب. وهي التي أوقفت سقطته. كان يشعر بألم في صدره، وآلمته قدمه كأنه سقط فوقها أولًا فالتَوت.
أطلق «بود» أنينًا.
قال صوت مِن خلفه:
ـ صه يا صبي، صه. من أين جئت؟ تهبط كنيزك، من أين جئت؟
قال «بود»:

ـ كنت على شجرة التفاح.
ـ دعني أرى رِجلك، مهشمة كغصن شجرة.
وراحت أنامل باردة تتحسس الرِّجل اليسرى.
ـ ليست محطمة، ملوية، نعم، مرضوضة، ربما، إن لك حظ الشيطان إذ سقطتَ فوق كومة السماد العضوي. هذه ليست نهاية العالم.
قال «بود»:
ـ رباه! لكن هذا يؤلم.
وأدار وجهه ونظر خلفه. كانت أكبر منه سنًّا لكنها ليست من البالغين، ولم تبدُ ودودًا أو عدوانية. حذرة غالبًا، ولها وجه ذكي لكنه خالٍ من الجمال تمامًا.
قال:
ـ أنا «بود».
سألته:
ـ الصبي الحي؟
هز رأسه موافقًا.
قالت:
ـ فكرت في ذلك. سمعنا عنك حتى هنا في هذا الحقل. ماذا يسمونك؟
قال:
ـ «لا أحد أوينز»، «بود» للاختصار.
ـ وكيف حالك أيها السيد الصغير «بود»؟
نظر لها «بود» من فوق لتحت. كانت تلبس قميصًا أبيض، وشعرها طويل له لون الفئران، وهناك نظرة شيطانية معينة في وجهها. ثمة شبح ابتسامة باقية مهما كان باقي وجهها يفعله.
سألها:
ـ هل أنتِ منتحرة؟ هل سرقتِ شلنًا؟
قالت في حماس:
ـ لم أسرق شيئًا في حياتي، ولا منديلًا، لكن الانتحار كله هناك، على الجانب الآخر من حقل النرجس الأصفر هذا. أما المشنوقان فهما في حقل التوت، أحدهما كان مزوِّر عملة، والآخر قاطع طريق أو هكذا يقولون. لو سألتَني لقلتُ إنه مجرد لص حقير يجول ليلًا.
قال «بود»:
ـ أوه.
ثم بدأ يشعر بالشك فقال بعناد:
ـ يقولون إن ساحرة دُفنت هنا.
هزت رأسها وقالت:
ـ احترقت وغرقت ودُفنت هنا، من دون مجرد صخرة تحدد موضع الدفن.
ـ أنتِ غرقتِ وأُحرقتِ؟
جلست على كومة العشب المجزوزة جواره وأمسكت بقدمه التي تنبض ألمًا بأناملها الباردة، وقالت:

ـ يأتون لكوخي الصغير فجرًا قبل أن أصحو من النوم. يجرُّونني إلى المرج ويصرخون: «أنتِ ساحرة!»، بدينون متوردون كأنهم الخنازير في يوم السوق. واحدًا تلو الآخر يخرجون ليحكوا عن كيف فسد اللبن وكيف صارت الخيول سقيمة، وفي النهاية تنهض «السيدة جيميما»، وهي الأكثر بدانة وتوردًا ونظافة، وتحكي كيف أن «سولومون بوريت» مات لكنه ظل يحوم في المغسلة كأنه دبور حول إناء عسل. كل هذا نتيجة لسحري الذي جعله كذلك، ويجب نزع اللعنة عن هذا البائس. هكذا قيدوني لمقعد العقاب وأنزلوه تحت الماء في بِركة البط، وقالوا لو أنني ساحرة فلن أغرق أو أهتم، أما لو لم أكن ساحرة فلسوف أشعر بذلك. أعطاهم أبو السيدة «جيميما» قطعًا من العملة الفضية ليُبقوا المقعد تحت الماء العطِن الأخضر لفترة طويلة، وليرى إن كنتُ سأختنق أم لا.

ـ وهل فعلتِ؟

ـ بالطبع، امتلأت رئتاي بالماء وهذا قضى عليَّ.

قال «بود»:

ـ أوه، إذن لم تكوني ساحرة قَطُّ.

نظرت له الفتاة بعينيها الشبحيتين الخرزيتين وابتسمت ابتسامة منحرفة. ظلت تبدو كعفريت إلا إنه عفريت جميل نوعًا. ولم يعتقد «بود» أنها احتاجت للسحر كي تجذب «سولومون بوريت»، ليس بابتسامة كهذه.

ـ يا للكلام الفارغ، بالطبع كنتُ ساحرة. عرفوا هذا عندما فكوا وثاقي من المقعد وفردوا جثتي على العشب. ميتة ومغطاة ببقايا البط وقذارة البركة العفنة. قلبت عينيَّ في رأسي وشتمت كل واحد في القرية هذا الصباح، فلا يرتاح أيٌّ منهم في قبره أبدًا. دهشت لسهولة هذا. السباب كأنه الرقص، عندما تمضي في مدى جديد لم تسمع به أذناك ولم يعرفه عقلك من قبل، وترقص حتى الفجر.

ووقفت وراحت تركل ولمعت قدمها العارية في ضوء القمر.

ـ هكذا سببتُهم بآخر أنفاسي التي امتلأت بماء البركة، ثم قضيت نحبي. أحرقوا جسدي على الخضرة حتى صرت كتلة سوداء متفحمة، ثم ألقوا بي في حفرة في الحقل بلا شاهد قبر يحمل اسمي.

وهنا توقفتْ وبدا عليها الشجن.

سألها «بود»:

ـ هل دُفن أحدهم في المقبرة بعد؟

قالت الفتاة وعيناها تلمعان:

ـ ولا واحد منهم، يوم السبت الذي تلا غرقي وحرقي، تم جلب بساط للسيد «بورنجر» من لندن وكان بساطًا ممتازًا. لكنْ تبين أنه كان يحوي ما هو أفضل من الصوف الممتاز والنسج المتقن، لأنه كان يحمل الطاعون في نسيجه، ويوم الخميس راح خمسة منهم يسعلون الدم واسودت جلودهم كجلدي بعد الاحتراق. بعد أسبوع قضى الطاعون على أكثر من في القرية، وكانوا يلقون بالأجساد بلا تمييز في حفرة طاعون حفروها خارج المدينة ملأوها بالجثث.

ـ هل مات كل واحد في القرية؟
هزت كتفيها:
ـ كل من رآني أغرق وأُحرق قد مات. كيف رِجلك الآن؟
قال:
ـ أفضل، شكرًا.
وقف «بود» ببطء، وخرج من كومة العشب وهو يعرج، وانحنى على الترابزين الحديدي، وسأل:
ـ إذن كنتِ ساحرة دومًا؟ أعني قبل أن تلعنيهم جميعًا؟
قالت وهي تنشق الهواء بمنخريها:
ـ كأنما الأمر يحتاج للسحر كي يدور «سولومون بوريت» حول كوخي.
فكر «بود» ـ وإن لم يقل هذا ـ أن هذه ليست إجابة عن سؤاله على الإطلاق.
سألها:
ـ ما اسمك؟
قالت وهي تقلب زاويتَي فمها لأسفل:
ـ ليس لديَّ شاهدُ قبر، يمكن أن أكون أي شخص، أليس كذلك؟
ـ لكن لكِ اسمًا؟
ـ «ليزا همبستوك» لو أردتَ.
قالتها في حدة ثم أردفت:
ـ ليس هذا مطلبًا كبيرًا، أليس كذلك؟ شيء يميز قبري. أنا هنا بالأسفل ولا شيء يميز موضع رقادي سوى النباتات الشوكية.
وللحظة بدت في غاية التعاسة حتى تمنى لو يحتضنها. ثم خطر له وهو يحشر جسده بين قضبان السور. يمكنه أن يجد لـ«ليزا همبستوك» شاهد قبر. سوف يجعلها تبتسم.
استدار ليلوح مودعًا وهو يهبط التل، لكنها كانت قد رحلت فعلًا.
كانت هناك قطع محطمة من قبور الآخرين في المقبرة. لكن «بود» كان يعرف أن هذا سيكون خطأ لو جلب هذه الأشياء للساحرة رمادية العينين. سيحتاج الأمر إلى أكثر من هذا. قرر ألا يخبر أحدًا بما يخطط له لأنه يتوقع أنهم سيَنهونه عن ذلك بلا سبب. وفي الأيام التالية امتلأ عقله بالخطط، كل خطة أعقد من سابقتها، وشعر مستر «بِنِيورث» بالقنوط.
قال وهو يحكُّ شاربه المغبر:

ـ أنا أؤمن أنك تزداد سوءًا، أنت لا تتلاشى، أنت ولد ظاهر، من الصعب ألا يراك أحد. لو جئت لي ومعك أسد أرجواني اللون وفيل أخضر و«يونيكورن» قرمزي يمتطيه ملك إنجلترا في ثيابه الملكية، فإن الناس لن تلاحظ سواك أنت، وأنت وحدك، ولن يهتموا بالأشياء الأخرى.
نظر له «بود» ولم يقل شيئًا. كان يتساءل إن كانت هناك متاجر خاصة يمكن للأحياء أن يبتاعوا منها شواهد القبور. ولو كان الأمر كذلك فبوسعه أن يبتاع لها واحدًا، لذا كان فن التلاشي أقل المشاكل التي تَعنيه الآن. انتهز فرصة أن مس «بوروز» تَشرد كثيرًا في أمور القواعد والتعبير إذا تعلق الأمر بالمال، وكان

هذا سهلًا. كان معه عدد من قطع العملة وجدها على مدى أعوام (وكان قد تعلم أن خير طريقة للعثور على المال هي المكان الذي كان أيٌّ عاشقين قد اتخذاه على العشب، كان دائمًا يجد قطع العملة في المكان الذي كانا فيه) وخطر له أن بوسعه الاستفادة من قطع العملة هذه.
سأل مس «بوروز»:
ـ ما ثمن شاهد القبر يا مس «بوروز»؟
قالت له:
ـ في زمني كان يساوي ٥٠ جنيهًا. لا أعرف كم يساوي اليوم. أكثر، أعتقد أنه أكثر.
كان مع «بود» جنيهان و٥٣ بنسًا. ولن يكون هذا ـ كان واثقًا ـ كافيًا. قد مرت أربعة أعوام، أي نصف عمر، منذ زار قبر الرجل النيلي، لكنه ظل يتذكر الطريق. تسلق لِقمة التل حتى صار فوق المدينة كلها، فوق قمم شجر التفاح، وفوق برج الكنيسة الخربة، وفوق موضع ضريح «فروبيشر» المنتصب كأنه سِن نخرة. انسلَّ لداخله خلف التابوت، ولتحت أكثر عبر الدرجات الصخرية الرفيعة المنحوتة في مركز الجبل. وظل يهبط حتى بلغ الغرفة الحجرية. كانت مظلمة في هذا القبر كأنها منجم قصدير، لكن «بود» كان يرى كما يرى الموتى وقد منحته الغرفة أسرارها.
كان السفاح يلتف على جدار القبر. كان قادرًا على أن يشعر به. كان كما يتذكره شيئًا رماديًّا مليئًا بالمقت والجشع وله خياشيم ينبعث منها الدخان. لكنه هذه المرة لا يخشاه.
همس السفاح:
ـ لِتخَف منا، نحن نحرس الأشياء الثمينة والتي لا تضيع.
قال «بود»:
ـ لا أخشاكم، أتذكرون؟ أنا بحاجة إلى أخذ شيء من هنا.
ـ لا شيء يفارق المكان.
جاءت الإجابة من الشيء الملتف في الظلام.
ـ السفاح يحرس الكنوز، البروش والكأس والسكين. نحن نحرسها في الظلام. نحن ننتظر.
قال «بود»:
ـ معذرة لأني أسأل، لكنْ هل كان هذا قبرك؟
ـ السيد يجلس هنا ليحرس، يدفن جماجمنا تحت هذا الحجر، يتركنا هنا عارفين ما يجب عمله. نحن نحرس الكنوز حتى يعود السيد.
قال «بود»:
ـ أتوقع أنه نسي كل شيء عنكم، أنا متأكد من أنه مات منذ عصور.
ـ نحن السفاح، نحن نحرس.
تساءل «بود» عن الزمن الذي كان فيه، كان أعمق قبر في قلب التل على سهل، فلا بد أن هذا كان منذ زمن سحيق. كان يشعر بالسفاح يلف موجات الفزع من حوله. كأنها ممسات نبات آكل للحوم. بدأ يشعر بالبرد وشعر بأنه

بطيء كأن أفعى قطبية قد لدغته في قلبه، وبدأت تضخ سمها الثلجي في جسده.
خطا للأمام ووقف على حافة صخرية ومد يده لأسفل وأطبق أنامله على برودة البروش.
همس السفاح:
ـ هششش! نحن نحرس هذا للسيد.
قال «بود»:
ـ هو لن يهتم.
وخطا للخلف نحو الدرجات الحجرية، متجنبًا بقايا البشر والحيوانات على الأرض.
تلوى السفاح في غضب والتف حول الغرفة الصغيرة كأنه دخان شبحي. ثم أبطأ من حركته. قال بصوته الثلاثي المتشابك:
ـ إنه سيعود. دومًا يعود.
اتجه «بود» إلى الدرجات الحجرية التي تقود لداخل التل بأقصى ما استطاع من سرعة. عند نقطة معينة تخيل أن هناك شيئًا يأتي من خلفه. لكنه حين خرج من القمة إلى ضريح «فروبيشر» وعندما استطاع أن يتنفس الهواء النقي البارد، لم يتحرك أو يلحق به شيء.
جلس «بود» في الهواء الطلق على قمة التل وأمسك بالبروش. خُيل له في البداية أنه أسود تمامًا، لكنْ عندما ارتفعت الشمس رأى أن الصخرة في مركز المعدن حمراء دوامية. كانت في حجم بيضة طائر أبو الحناء. وحملق «بود» في الحجر متسائلًا عما إذا كان هناك شيء يتحرك في القلب، وغرق قلبه وروحه في عالم قرمزي. لو كان «بود» أصغر لوضعها في فمه. كان الحجر مثبتًا في مكانه بمشبك معدني أسود وأشياء تبدو كالمخالب وأشياء أخرى تزحف فوقه. كانت هذه الأشياء الأخرى أقرب للثعبان لكنْ كانت لها عدة رؤوس. تساءل «بود» إن كان السفاح يبدو هكذا في ضوء النهار.
نزل إلى أسفل التل مختصرًا الطرق على قدر علمه، عبر غابة اللبلاب المتشابكة التي تغطي قبر أسرة «بارتلبي»، وبالداخل كان يسمع آل «بارتلبي» يزمجرون ويستعدون للنوم، واخترق الطريق إلى حقل الصلصال.
نادى:
ـ «ليزا»! «ليزا»!
ونظر من حوله.
جاء صوت «ليزا»:
ـ صباح الخير أيها الأحمق الصغير.
لم يستطع «بود» أن يراها لكنْ كان هناك ظِل إضافي تحت شجرة النرجس الأصفر، إذ دنا أكثر فتكشَّف الظل عن شيء لؤلؤي شفاف في ضوء النهار المبكر. شيء شبيه بفتاة، شيء رمادي العينين. قالت له:
ـ كان يجب أن أنام في هدوء، ما الذي تقوم به؟
قال:

ـ شاهدُ قبرك، أردت أن أعرف ما تريدين مكتوبًا عليه.
قالت:
ـ اسمي، يجب أن يحمل اسمي عليه مع حرف «E» كبير ليدل على «إليزابيث»، كالملكة العجوز التي ماتت عندما وُلدت. وحرف «H» كبير ليدل على «همبستوك». أكثر من هذا لا يهمني، لأنني لم أحسن الهجاء قَطُّ.
سألها «بود»:
ـ ماذا عن التواريخ؟
غنت بصوت كأنه صوت رياح الفجر في غابة النرجس:
ـ «ويليام الفاتح» ١٠٦٦، أريد حرف «E» كبيرًا لو سمحت ومعه حرف «H» كبير.
سألها «بود»:
ـ هل لكِ مهنة؟ أعني عندما لم تكوني ساحرة.
ـ كنت غسالة.
قالتها الفتاة الميتة، ثم أغرقت شمس الصباح الأرض الخراب وصار «بود» وحيدًا.
كانت التاسعة صباحًا والعالم كله نائم. كان «بود» مصممًا على البقاء متيقظًا، فهو بعد كل شيء في مهمة. كان في الثامنة من العمر ولم يكن العالم خلف المقبرة يخيفه.
ثياب. يحتاج إلى ثياب. ثيابه المعتادة المصنوعة من ملاءة رمادية هي خطأ تمامًا. كان هذا مناسبًا في المقبرة لأنه نفس لون الصخور والظلال، لكنْ لو كان سيواجه العالم خلف جدران المقبرة فعليه أن يندمج هناك.
كانت هناك ثياب في السرداب تحت الكنيسة المهدمة، لكنه لم يرغب في النزول للسرداب، ولا حتى في النهار. بينما كان يتأهب كي يبرر نفسه أمام مستر ومسز «أوينز»، لم يكن ليشرح موقفه أمام «سيلاس». إن تخيل هاتين العينين غاضبتين، أو ـ وهذا أسوأ ـ مليئتين بخيبة الأمل، هذا الشعور كان يشعره بالعار.
هناك كوخ بستانيٍّ عند طرف المقبرة البعيد. بناية بعيدة خضراء تنبعث منها رائحة زيت الموتور. وفيها كانت آلة جزِّ أعشاب صدئة ومعها مجموعة فريدة من أدوات الحديقة. كان الكوخ مهجورًا عندما تقاعد آخر بستاني قبل أن يُولد «بود»، وصارت مهمة العناية بالحديقة مقسمة بين القنصل الذي كان يرسل من ينظف العشب والمسالك مرةً كل شهر من أبريل إلى سبتمبر، وبين المتطوعين المحليين في المقبرة.
على الباب كان هناك قفل عملاق يحمي محتويات الكوخ، لكن «بود» كان قد اكتشف منذ زمن لوحَ الخشب السائب في الخلفية. أحيانًا كان يدخل كوخ البستاني ويجلس ويفكر عندما يريد أن يكون وحيدًا.
كلما ذهب للكوخ كانت هناك سترة عامل بنية معلقة خلف الباب، منسية منذ أعوام، مع سراويل خضراء من الجينز. كانت السراويل أكبر من قياسه بكثير، لكنه طوى الأرجل حتى ظهرت قدماه، ثم اصطنع حزامًا من خيط بني، وربطه حول الخصر. كان هناك حذاء برقبة لكنه عجز عن ارتدائه لأنه كان كبيرًا وعليه

طين جاف. لو خطا خطوة يظل الحذاء على الأرض. حشر السترة ليخرجها من التجويف، ثم حشر نفسه ليخرج وارتداها. لو شمر الكمين فلسوف تكون النتيجة طيبة. كان له جيبان كبيران لذا دس يديه فيهما وشعر بأنه متأنق جدًّا.
مشى «بود» إلى البوابة الرئيسية للمقبرة ونظر عبر القضبان. مرت به حافلة، كانت هناك سيارات وضوضاء ومتاجر. خلفه كانت ظليلة من اللون الأخضر الرطيب مليئة بالأشجار واللبلاب.
تواثب قلبه، وخرج «بود» للعالم الخارجي.
رأى «أبانازر بولجر» أنماطًا غريبة من البشر في حياته.. لو كان عندك متجر مثل متجر «أبانازر» لرأيت هذه الأنماط كذلك. إنه متجر في منطقة الحي المزدحمة بالبلدة القديمة، متجر عاديَّات نوعًا، متجر مهملات نوعًا، متجر رهونات نوعًا (وحتى «أبانازر» نفسه لم يكن متأكدًا من معنى «نوعًا» هذه) وكان هذا يجلب أنماطًا غريبة وأناسًا عجيبين، بعضهم يريد الشراء وبعضهم يريد البيع. كان «أبانازر بولجر» يتعامل على الكاونتر، يبتاع ويبيع، لكنه كان يقوم بأفضل الصفقات من وراء الكاونتر وفي الخلف. يقبل أشياء يحتمل أنهم لم يحصلوا عليها بشكل شريف. كان عمله هذا جبل جليد. فقط ترى على السطح المتجر الصغير المغبر، لكن الباقي كان تحت السطح، بالضبط كما أراد له «أبانازر» أن يكون.
كان «أبانازر» يضع عوينات سميكة وتعبيرًا دائمًا من ازدراء خفيف، كأنه اكتشف فجأة أن اللبن في قدحه قد بدأ يتغير، وهو لا يستطيع التخلص من المذاق الحريف في فمه. كان هذا التعبير يفيده جدًّا عندما يبيع له الناس أشياء.
اعتاد أن يقول بهذا الوجه المرير: «بأمانة، هو لا يساوي أي شيء على الإطلاق. سوف أعطيك ما أستطيع لأن له قيمة عاطفية».
من حسن الحظ أن تنال شيئًا تريده من «أبانازر بولجر». كان عمل مثل عمل «أبانازر بولجر» يجلب عينات غريبة من الناس، لكن الصبي الذي جاء هذا الصباح كان من أغرب الذين يستطيع تذكرهم، بعد عمر طويل من خداع الغرباء وسلبهم أشياءهم الثمينة. بدا الصبي في السابعة من العمر وكان يلبس ثياب جده، وكانت له رائحة مخزن. كان شعره طويلًا أشعث وبدا جادًّا جدًّا. كانت يداه في جيبَي سترة بنية مغبرة، وبرغم أنهما كانتا بعيدتين عن عينه، فإن «أبانازر» أدرك أن اليد اليمنى تمسك بشيء بقوة، على سبيل الحماية.
قال الصبي:
ـ معذرة.
قال «أبانازر بولجر» في تعب:
ـ أيوه أيوه يا «سوني جيم».
فكر في نفسه: الصِّبية إما أن يكونوا قد خطفوا شيئًا، أو هم يحاولون بيع لعبهم. وفي الحالتين كان يقول «لا» دومًا. اشترِ أشياء مسروقة من صبي، وفي اللحظة التالية تجد أن أمامك شخصًا بالغًا يتهمك بأنك أعطيت «جوني» أو «ماتيلدا» الصغيرة عشرة قروش مقابل خاتم الزفاف. الصِّبية... متاعب أكثر مما يستحقه الأمر.

قال الصبي:
ـ أريد شيئًا لصديق لي، وخطر لي أن بوسعك شراء شيء معي.
قال «أبانازر بولجر» في جفاف:
ـ أنا لا أشتري أشياء من الصِّبية.
أخرج «بود» يده من جيبه ووضع البروش على الكاونتر المغبر. نظر «بولجر» له ثم حملق فيه. نزع عويناته وتناول عدسة عين من الكاونتر وثبتها على عينه. أضاء مصباحًا صغيرًا على الكاونتر وتفحص البروش عبر العدسة، ثم قال لنفسه لا للصبي: «حجر الثعبان؟»([4])، ثم نزع العدسة وأعاد عويناته ونظر للصبي نظرة متشككة وقال:
ـ من أين جئت بهذه؟
قال «بود»:
ـ هل تريد شراءها؟
ـ أنت سرقتها، أنت سرقتها من متحف أو شيء كهذا، أليس كذلك؟
قال «بود» في جفاف:
ـ نعم. هل ستشتريها أم أذهب وأجد شخصًا آخر يريد ذلك؟
تبدل مزاج «أبانازر بولجر» الحاد عندئذ. فجأة صار مثال الدماثة وابتسم ابتسامة واسعة وقال:
ـ أنا آسف، فقط لا يرى المرء قِطعًا كثيرة مثل هذه، ليس في متجر كهذا، ليس خارج المتحف. لكني معجب بها قَطعًا. سأقول لك، لمَ لا نجلس لتناول الشاي والبسكويت، عندي علبة من سكاكر الشوكولاتة في الغرفة الخلفية، ولنقرر كم يساوي شيء كهذا؟
سُرَّ «بود» لأن الرجل صار ودودًا أخيرًا وقال:
ـ أريد ما يكفي لشراء حجر. شاهدُ قبر لصديقة لي. حسن، ليست صديقتي بالضبط، هي شخص أعرفه، أعتقد أنها ساعدت في شفاء ساقيَّ كما ترى.
لم يهتم «أبانازر بولجر» كثيرًا بثرثرة الصبي، واقتاده خلف الكاونتر وفتح باب المخزن، وهو غرفة صغيرة بلا نوافذ. وقد تغطت كل بوصة لأعلاها بصناديق ورقية امتلأت بالمخلفات. كانت هناك خزانة في ركن المكان، خزانة عملاقة. كان هناك صندوق امتلأ بآلات الكمان، وحيوانات محنطة عديدة، وكراسي بلا ألواح قعود، وكتب، وصور.
كانت هناك منضدة جوار الباب فسحب «أبانازر بولجر» المقعد الوحيد وجلس، تاركًا «بود» واقفًا. عبث «أبانازر بولجر» في دُرج رأى «بود» فيه نصف قنينة ويسكي، وأخرج عبوة شبه فارغة من سكاكر الشوكولاتة، وقدمها للصبي، وأنار الضوء ونظر للبروش ثانية حيث دوائر الأحمر والبرتقالي. ثم تفحص الرباط المعدني الأسود المحيط به، وكتم رجفته عندما رأى رأسَي الثعبانين وقال:
ـ إنه قديم.
وفكر: إنه لا يُقدر بثمن.
وعاد يقول:
ـ ربما لا يساوي الكثير، لكنك لا تستطيع أن تخمن.

تهدل وجه «بود». حاول «أبانازر بولجر» أن يُطمئن الصبي.
ـ أريد التأكد من أنه ليس مسروقًا قبل أن أعطيك قرشًا، هل أخذتَه من غرفة ثياب أمك؟ سرقته من متحف؟ لا أريد وضعك في متاعب لكن لا بد أن أعرف.
هز «بود» رأسه، وراح يقضم قطعة السكاكر.
ـ إذن من أين جئت به؟
لم يقل «بود» أي شيء.
لم يُرِد «أبانازر بولجر» أن يضع البروش. لكنه دفعه عبر المنضدة إلى الصبي وقال:
ـ لو لم تخبرني فمن الأفضل أن تأخذه معك، لا بد من ثقة بين الطرفين بعد كل شيء. كان التعامل معك لطيفًا، يؤسفني أنه لم يتقدم أكثر.
بدا «بود» قلقًا، ثم قال:
ـ وجدته في قبر قديم لكنْ لا أستطيع قول أين.
ثم توقف لأنه رأى بوضوح الجشع والإثارة يحلان محل المودة على وجه «أبانازر بولجر».
ـ وهل هناك مثل هذا أكثر هناك؟
قال «بود»:
ـ لو لم تُرِد أن تبتاعه فلسوف أجد شخصًا آخر، شكرًا على البسكويت.
قال «بولجر»:
ـ أنت متعجل؟ بابا وماما ينتظرانك على ما أظن؟
هز الصبي رأسه نافيًا، ثم تمنى لو كان قد هز رأسه موافقًا.
أطبق «أبانازر بولجر» بيديه على البروش وقال:
ـ لا أحد ينتظرك، جميل، الآن قل لي بالضبط أين وجدت هذا، هه؟
قال «بود»:
ـ لا أذكر.
قال «أبانازر بولجر»:
ـ هذه إجابة فات وقتها. لو أنك فكرت قليلًا في مصدر هذا الشيء، عندها سوف نثرثر قليلًا وسوف تخبرني.
ونهض مغادرًا الغرفة، وأغلق الباب من خلفه. أغلقه بالمفتاح المعدني الكبير.
فتح يده ونظر للبروش وابتسم في جشع.
دوَّى صوت «دينج» من الجرس على باب المتجر ليعرف أن هناك من جاء. فنظر شاعرًا بالذنب لكنْ لم يكن هناك أحد. كان الباب موارَبًا برغم هذا فأغلقه «بولجر» بقوة ثم قلب اللافتة على النافذة لتظهر من الخارج كلمة «مغلق». ثم أغلق المزلاج. لم يُرِد أي فضوليين اليوم.
تبدل يوم الخريف من الشمس إلى الرمادي، وانهمر مطر خفيف على نافذة المتجر الحقير. تناول «أبانازر بولجر» الهاتف من الكاونتر وضغط على الأزرار بأنامل كادت ترتجف.
قال:
ـ كشف مهم يا «توم»، تعالَ هنا بأقصى سرعة لديك.

أدرك «بود» أنه سجين منذ سمع القفل يغلق الباب. جذب الباب لكنه ظل موصدًا. شعر بالغباء لأنه دخل المصيدة، وبالحمق لأنه لم يثق في انطباعاته الأولى التي دفعته للفرار من الرجل حادِّ الملامح بأسرع وقت. لقد حطم كل قواعد المقبرة وفسد كل شيء. ماذا سيقول «سيلاس» أو آل «أوينز»؟ يمكنه الشعور بالذعر لكنه يقول لنفسه إن كل شيء سيصير جيدًا، لكنه بحاجة للخروج.
تفحص الغرفة التي سُجن فيها. كانت أقرب قليلًا إلى غرفة كرار فيها منضدة. المدخل الوحيد كان الباب.
فتح دُرج المنضدة فلم يجد سوى علب طلاء صغيرة (تستخدم لتُكسب الأثاث بريقًا) وفرشاة. تساءل إن كان بوسعه رمي الطلاء في وجه الرجل ليعميه بما يكفي للفرار. فتح غطاء العلبة وغمس فيها أصابعه.
سمع صوتًا جوار أذنه يقول:
ـ ماذا تفعل؟
قال «بود»:
ـ لا شيء.
وهو يغلق العلبة ويضعها في أحد جيوب السترة العملاقة.
نظرت له «ليزا همبستوك» بلا انفعال وسألته:
ـ لمَ أنت هنا؟ ومن حقيبة الشحم العجوز هذه؟
ـ هذا متجره، كنت أحاول بيع شيء له.
ـ لمَ؟
ـ ليس هذا شأنكِ.
استنشقتْ من أنفها وقالت:
ـ حسن، يجب أن تعود للمقبرة.
ـ لا أستطيع، لقد حبسني هنا.
ـ بالطبع تستطيع، فقط انزلق عبر الجدران.
هز رأسه وقال:
ـ لا أقدر، أستطيع عمل هذا في البيت فقط لأنهم أعطوني «حرية المقبرة» عندما كنتُ طفلًا.
ونظر لها تحت الضوء الكهربي. كان من الصعب أن تراها بوضوح، لكن «بود» قضى كل حياته يكلم الموتى. فقال لها:
ـ ماذا تصنعين هنا خارج المقبرة؟ إنه النهار، أنتِ لستِ كـ«سيلاس». يجب أن تبقَي في المقبرة.
قالت:
ـ هناك قوانين لمن في المقبرة، لكنْ ليس للمدفونين في أرض غير مباركة. لا أحد يخبرني بما أفعله ولا أين أذهب.
ونظرتْ للباب وقالت:
ـ لا أحب هذا الرجل، سأرى ما يفعله.
لمحة بصر وصار «بود» وحده في الغرفة من جديد.

سمع هدير الرعد البعيد.
وفي ظلام متجر «عاديَّات بولجر»، كان «أبانازر بولجر» ينظر لأعلى بِشك، شاعرًا أن هناك من يراقبه ثم أدرك أنه أحمق. قال لنفسه: «الصبي مسجون في الغرفة والباب الأمامي موصد». كان يلمِّع المقبض المعدني الذي يحيط بحجر الثعبان، برفق وعناية كأنه عالِم آثار يحفر. وكان يزيل اللون الأسود لتظهر الفضة من تحته.
كان قد بدأ يندم على استدعاء «توم هاستنجز»، برغم أن «توم» كان ضخمًا ومفيدًا في تخويف الناس. كذلك بدأ يندم على أنه سيبيع البروش عندما ينتهي. كلما تألق أكثر تحت ضوء الكاونتر، أراد أن يكون له ـ وله فقط.
لا بد أن هناك المزيد حيث جاء هذا، سوف يخبره الصبي. سوف يأخذه الصبي هناك.
الصبي...
هنا خطرت له فكرة. وضع البروش مترددًا ثم فتح دُرجًا خلف الكاونتر وأخرج علبة بسكويت من القصدير، امتلأت بالمظاريف والبطاقات وقصاصات الورق. مد يده وتناول بطاقة أكبر من بطاقات البيزنس قليلًا. كانت حافتها سوداء ولم يكن هناك اسم أو عنوان عليها، فقط كلمة واحدة مكتوبة باليد في وسطها بحبر بُهت حتى صار بنيًّا: «جاك».
وعلى ظهر البطاقة كتب «أبانازر بولجر» بالقلم تعليمات لنفسه بخطه الدقيق، كطريقة يذكِّر بها نفسه، برغم أنه لن ينسى طريقة استعمال البطاقة ليستدعي الرجل المدعو «جاك». لا، ليس يستدعيه بل يدعوه، أنت لم تستدعِ أشخاصًا مثله من قبل.
هنا دوَّت دقة على الباب الخارجي للمتجر. أخفى «بولجر» البطاقة في الكاونتر ومشى للباب وهو ينظر للخارج إلى العصر المنذر بالمطر.
نادى «توم هاستنجز»:
ـ أسرِع! الطقس رديء هنا، كئيب، أنا مبتلٌّ.
فتح «بولجر» الباب فاندفع «توم هاستنجز» للداخل ومعطفه وشعره يتساقط منهما الماء. وقال:
ـ ما هو الشيء المهم لدرجة عدم قوله على الهاتف؟
قال «أبانازر بولجر» بوجهه الحاد:
ـ ثروتنا، هذا هو كل شيء.
نزع «هاستنجز» معطفه وعلقه خلف باب المتجر، وقال:
ـ ماذا هو؟ هل من شيء طيب سقط من شاحنة؟
قال «أبانازر بولجر»:
ـ كنز، نوعان.
واقتاد صديقه إلى الكاونتر وناوله البروش تحت الضوء الخافت.
ـ هذا قديم، أليس كذلك؟
قال «أبانازر بولجر»:
ـ من عصور الوثنية، بل قبل هذا، منذ عصر الدرويد، قبل أن يأتي الرومان، هذا

يدعى «حجر الثعبان»، رأيت مثله في المتاحف. لم أرَ قَطّ شغلًا بالمعدن مثل هذا أو في جماله، لا بد أنه كان يخص ملكًا، الفتى الذي وجده قال إنه وجده في مقبرة. فكِّر في فجوة محشوة بأشياء كهذه.
قال «هاستنجز» مفكرًا:
ـ ربما يستحق الأمر أن نتصرف بشكل قانوني. اعتبِره كشفًا أثريًّا ثمينًا، سوف يدفعون لنا ثمنه في السوق وسوف يسمونه على اسمنا؛ «إرث هاستنجز وبولجر».
تلقائيًّا قال «بولجر»:
ـ بل «بولجر وهاستنجز». هناك أناس أعرفهم، أناس يملكون مالًا حقيقيًّا وهم مستعدون لدفع ما هو أكبر من قيمة السوق ليمسكوا بهذا الشيء، ولن تكون هناك أسئلة.
كان «هاستنجز» يتحسَّس البروش بلطف كأنه يملس على قِط. مد «بولجر» يده وأخذ البروش من يد «هاستنجز».
قال «هاستنجز»:
ـ تكلمتَ عن نوعين من الكنوز، ما الكنز الآخر؟
التقط «أبانازر بولجر» البطاقة ذات الحافة السوداء ورفعها أمام عينَي صاحبه وقال:
ـ هل تعرف ما هذه؟
هز صديقه رأسه.
أعاد «أبانازر بولجر» البطاقة إلى المنضدة وقال:
ـ هناك طرف يبحث عن طرف آخر.
ـ إذن؟
ـ حسب ما سمعت، الطرف الآخر صبي.
قال «توم هاستنجز»:
ـ ثمة صِبية في كل مكان، يركضون في كل مكان ويسببون المتاعب. لا أتحملهم. إذن هناك طرف يبحث عن صبي معين؟
ـ هذا الصبي يبدو في السن المناسبة، يلبس... حسن.. سوف ترى كيف يلبس. وقد وجد هذه، من الممكن أن يكون هو.
ـ ولو كان هو؟
التقط «أبانازر بولجر» البطاقة من جديد من حافتها، ولوح بها أمامًا وخلفًا ببطء كأنما يحركها على حافة لهب وهمي وقال:
ـ هنا شمعة تستنير بها في الفراش.
قال «توم» مفكرًا:
ـ وهنا شاطور يقطع رأسك([5]).
ثم أضاف:
ـ لكنِ انظر، لو اتصلنا بالرجل «جاك» فقدنا الصبي، لو فقدنا الصبي فقدنا الثروة.
وراح الرجلان يَزِنان الاحتمالات المختلفة ومزايا وعيوب الإبلاغ عن الصبي أو

الحصول على الكنز، الذي تضخم في عقليهما إلى كهف عظيم تحت الأرض امتلأ بالأشياء الثمينة، وإذ دار الجدل تناول «أبانازر بولجر» زجاجة من جين البرقوق من تحت الكاونتر، وصب جرعتين كبيرتين: «لنُسهم في الاحتفال».

ملَّت «ليزا» المناقشة التي راحت تدور في حلقات مفرغة ولا تصل لشيء. لذا عادت للمخزن لتجد «بود» يقف في منتصف الغرفة وعيناه مغلقتان وقبضتاه مغلقتان ووجهه ملتوٍ كأنه مصاب بألم أسنان. وكان لونه شبه قرمزي من فرط ما حَبس أنفاسه.

سألته بلا انفعال:

ـ ماذا تفعل؟

فتح عينيه واسترخى وقال:

ـ أحاول أن أختفي.

قالت له:

ـ حاوِل ثانية.

جرَّبَ ذلك وهو يحبس أنفاسه لفترة أطول. فقالت له:

ـ كُفَّ عن هذا وإلا انفجرتَ.

أخذ «بود» شهيقًا عميقًا وتنهد وقال:

ـ لا جدوى، ربما أضربه بصخرة ثم أجري.

لم تكن هناك صخرة لكنه وجد ثقَّالة ورق ملونة فرفعها في يده وتساءل إن كان بوسعه أن يقذفها بعيدًا ليضرب «أبانازر بولجر» ويوقفه.

قالت «ليزا»:

ـ هناك اثنان الآن. لو أفلتَّ من واحد لظفر بك الآخر. يقولان إنهما سيجعلانك تريهما موضع البروش، ثم يحفران القبر ويجدان الكنز.

ولم تخبره بباقي المناقشة ولا عن البطاقة ذات الحافة السوداء. هزت رأسها وقالت:

ـ لمَ فعلت شيئًا بهذا الغباء على كل حال؟ أنت تعرف قواعد ترك المقبرة، كل ما فعلتَه هو طلب المتاعب.

شعر «بود» بأنه تافه وأحمق. وقال بصوت خفيض:

ـ أردت أن أُحضر لكِ شاهدَ قبرٍ، وفكرت أنه غالي الثمن، لذا كنت سأبيع له البروش وأشتري شاهدَ قبرٍ.

لم تقل أي شيء.

ـ هل أنتِ غاضبة؟

هزت رأسها وقالت وقد بدا شبح ابتسامة عفاريت على شفتيها.

ـ هذا أول شيء لطيف يعمله أحد معي منذ ٥٠٠ سنة. لماذا أغضب؟

ثم سألته:

ـ ماذا تفعل عندما تحاول أن تختفي؟

ـ ما قاله لي مستر «بِنِيورث» أنا باب خالٍ، أنا زقاق مهجور، أنا لا شيء، لن تراني العيون، سوف تنزلق الحملقة من حولي. لكنها لا تنجح أبدًا.

قالت «ليزا» وهي تستنشق الهواء:

ـ لأنك حي، هناك أشياء تعمل معنا نحن الموتى، لكن هذا لا يصلح أبدًا معكم معشر الناس.
واحتضنت نفسها بقوة وراحت تحرك جسدها للأمام والخلف كأنها تشك في شيء ما. ثم قالت:
ـ أنت تورطت في هذا بسببي، تعالَ هنا يا «لا أحد أوينز».
خطا نحوها فوضعت يدها الباردة على جبينه، شعرَ كأنها وشاح حريري مبلل على جلده. قالت:
ـ الآن، ربما أقدم لك خدمة جيدة في المقابل.
وبدأت تغمغم لنفسها بكلمات لم يفهمها «بود». ثم قالت بصوت عالٍ واضح:
كن حفرة، كن غبارًا، كن حلمًا، كن ريحًا
كن الليل، كن الظلام، كن أمنية، كن عقلًا،
الآن انزلِق، الآن ازحَف، الآن تحركْ غير مرئي،
فوقٍ، تحت، بَيْنَ بَيْنَ.
هنا لمسه شيء عملاق وحكَّه من رأسه لقدميه، فارتجف. شعر بشعره ينتصب وجلده يتحول ليشبه جلد الإوزة. تغير شيء ما، فسأل:
ـ ماذا فعلتِ؟
ـ أعطيتك مساعدة فقط. ربما أنا ميتة لكني ساحرة ميتة. تذكَّرْ. ونحن لا ننسى.
ـ لكن...
قالت:
ـ صه، إنهما عائدان.
دار المفتاح في قفل المخزن، وقال صوت يذكر «بود» أنه سمعه بوضوح من قبل:
ـ الآن أيها العزيز، أنا أعرف أننا سنصير أصدقاء رائعين.
وهنا فتح «توم هاستنجز» الباب ووقف في المدخل ينظر حوله، وقد بدا مندهشًا. كان رجلًا عملاقًا له شعر أحمر ثعلبي وأنف أحمر من الخمر.
ـ هنا يا «أبانازر»؟ حسبتك قلت إنه هنا؟
قال «بولجر» من خلفه:
ـ نعم، قلت ذلك.
ـ حسن، لا أرى أي أثر له.
ظهر وجه «بولجر» خلف الرجل محتقنًا، وحملق في الغرفة، وقال وهو ينظر مباشرة حيث وقف «بود»:
ـ مختبئ، لا جدوى من الاختباء.
وأعلن بصوت عالٍ:
ـ أنا أراك هناك، تعالَ هنا.
ومشى الرجلان للغرفة الصغيرة ووقف «بود» بينهما وتذكر دروس مستر «بِنِيورث». لم يتفاعل ولم يتحرك، جعل نظرات الرجلين تنزلق فوقه دون أن يرياه.

قال «بولجر» وهو يوصد الباب:
ـ سوف تتمنى لو أنك لبَّيت النداء عندما ناديتُ.
وقال لـ«توم»:
ـ حسن. أنت قف أمام الباب حتى لا يفر منه.
ومشى في الغرفة وهو ينظر تحت كل شيء وتحت المنضدة. مشى مباشرة عابرًا بـ«بود» ثم فتح الخزانة وصاح:
ـ الآن أراك، اخرج!
قهقهت «ليزا».
تساءل «توم هاستنجز» وهو يدور حول نفسه:
ـ ماذا كان هذا؟
قال «أبانازر بولجر»:
ـ لم أسمع أي شيء.
قهقهت «ليزا» ثانية، ثم ضمت شفتيها ونفخت محدِثة جلبة بدأت بصوت صفير ثم بدت كريح قصِية. اهتز الضوء الكهربي في الغرفة الصغيرة ثم انطفأ.
قال «أبانازر بولجر»:
ـ منصهرات لعينة، هلم، هذا تضييع وقت.
دار المفتاح في القفل ووجدت «ليزا» و«بود» أنهما وحيدان في الغرفة.
قال «أبانازر بولجر»:
ـ لقد هرب.
كان «بود» يسمع ما يقال الآن عبر الباب.
ـ في غرفة كهذه لا يمكن أن يختبئ، وكنا سنراه لو فعل.
ـ الرجل «جاك» لن يحب هذا.
ـ من سيقول له؟
وساد الصمت.
ـ الآن يا «توم هاستنجز» أين ذهب البروش؟
ـ إممم؟ هذا؟ هنا، كنت أبقيه في أمان.
ـ تبقيه في أمان؟ في جيبك؟ مكان غريب لو سألتني عن رأيي، أعتقد أنك كنت تخطط كي تأخذه معك، تأخذ البروش الخاص بي.
ـ البروش الخاص بك يا «أبانازر بولجر»؟ أعتقد أنك تقصد البروش الخاص بنا.
ـ الخاص بنا حقًّا، لا أذكر أنك كنت هنا عندما أخذتُه من الصبي.
ـ الصبي الذي لم تستطع أن تبقيه في أمان للرجل المدعو «جاك»، هل تتصور ما سيفعله عندما يعرف أنك ظفرت بالصبي الذي كان يريده ثم تركته يرحل؟
ـ ربما ليس الصبي نفسه، هناك صِبية كثيرون في العالم، فما فرصة أن يكون هذا هو الصبي الذي يبحث عنه؟ لا بد أنه فر من الباب الخلفي بمجرد أن أدرت ظهري.
ثم أضاف بصوت عالٍ:
ـ لا تخَف من الرجل المدعو «جاك» يا «توم هاستنجز»، أنا متأكد من أنه صبي آخر. لقد لعب عقلي العجوز ألاعيب عليَّ، لقد انتهى ما لديَّ من جين

البرقوق، فماذا عن ويسكي اسكتلندي جيد؟ لديَّ ويسكي في الغرفة الخلفية. انتظِر هنا لحظة.
انفتح المخزن ودخل «أبانازر بولجر» وهو يحمل مصباحًا وعصا مشيٍ، وقد بدا وجهه أكثر حدة عن ذي قبل. وقال بصوت حادٍّ:
ـ لو كنت ما زلت بالداخل فلا تحاول الفرار، لقد طلبت الشرطة، هذا ما فعلته.
نقب في دُرج حتى أخرج زجاجة ويسكي نصف مليئة ومعها زجاجة سوداء صغيرة. وضع «أبانازر بولجر» بضع قطرات من الزجاجة الصغيرة في الكبيرة وغمغم لنفسه:
ـ البروش لي، ولي وحدي.
ثم صاح كأنه ينبح:
ـ أنا آتٍ يا «توم»!
تفحص الغرفة المظلمة ثم غادر المخزن حاملًا الويسكي أمامه. أغلق الباب من خلفه.
جاء صوت «أبانازر بولجر» عبر الباب:
ـ هأنتذا، أعطني الكأس يا «توم»، قطرة لطيفة من الويسكي تجعل الشعر ينمو على صدرك.
بعد صمت دوَّى صوت يقول:
ـ أيها الحثالة، ألن تشرب؟
ـ جين البرقوق ما زال في أحشائي، أعطِه بعض الوقت ليستقر.
ثم تابع:
ـ «توم»، ماذا فعلت بالبروش؟ البروش الذي يخصني؟
ـ البروش الذي يخصك؟ ماذا فعلت... أنت وضعتَ شيئًا في كأسي، أيها الوغد!
ـ وماذا لو فعلت؟ أرى في وجهك ما كنت تخطط له يا «توم هاستنجز»، أيها اللص!
ثم دوَّى الصراخ وصوت تهشُّم كأن قطعًا ثقيلة من الأثاث انقلبت...
... ثم ساد الصمت.
قالت «ليزا»:
ـ بسرعة، دعنا نُخرجك من هنا.
نظر لها وقال:
ـ لكن الباب موصد، هل بوسعكِ عمل شيء؟
ـ أنا؟ لا أملك حيلًا سحرية تُخرجك من غرفة موصدة يا صبي.
جثم «بود» ونظر من ثقب المفتاح. كان مسدودًا والمفتاح في الثقب. فكر «بود» ثم ابتسم للحظة فأضاءت البسمة وجهه كضوء مصباح. أخرج ورقة صحيفة مكرمشة من الحقيبة، وسطَّحها على قدر ما استطاع ثم دفعها تحت الباب، تاركًا فقط طرفها في جهته من الباب.
سألته «ليزا» نافدةَ الصبر:
ـ ما الذي تلهو به؟

ـ أريد شيئًا كقلم أو ما هو أرفع، ها نحن أولاء.
والتقط فرشاة رفيعة من على المنضدة ودفع نهايتها غير ذات الفرشاة في القفل ثم دفع أكثر.
دوَّى صوت ارتطام معدني مكتوم إذ اندفع المفتاح خارجًا، وسقط على الجريدة. جذب «بود» الجريدة تحت الباب والمفتاح من فوقها.
ضحكت «ليزا» وسرَّها هذا:
ـ هذا ذكاء أيها الشاب، هذه هي الحكمة.
دس «بود» المفتاح في القفل وفتح باب المخزن.
كان هناك رجلان على الأرض في وسط متجر العاديَّات المزدحم. لقد سقط الأثاث حقًّا، وصار المكان فوضى من الساعات المحطمة والمقاعد. ووسط هذا رقد «توم هاستنجز» وقد سقط فوق «أبانازر بولجر» الأصغر حجمًا. ولم يكن أحدهما يتحرك.
سأل «بود»:
ـ هل ماتا؟
قالت «ليزا»:
ـ ليسا محظوظين لهذا الحد.
على الأرض جوار الرجلين كان بروش من الفضة اللامعة، وفيه حجر كريم قرمزي برتقالي تثبته مخالب ورؤوس ثعابين، وعلى وجوه الثعابين تعبير ينمٌّ عن الرضا والنصر والجشع.
وضع «بود» البروش في جيبه جوار ثقَّالة الورق الزجاجية الثقيلة، والفرشاة ووعاء الدهان الصغير. قالت «ليزا»:
ـ خذ هذا أيضًا.
نظر «بود» إلى البطاقة ذات الحافة السوداء التي كُتب عليها باليد اسم «جاك». ضايقته، كان هناك شيء مألوف بصددها، شيء حرك ذكريات قديمة وخطيرة.
ـ لا أريدها.
قالت «ليزا»:
ـ لا يمكنك تركها معهما، كانا سيستعملانها لإيذائك.
قال «بود»:
ـ لا أريدها، إنها شريرة، أحرقيها.
شهقت «ليزا»:
ـ لا، لا تفعل هذا، لا يجب أن تفعل هذا.
قال «بود»:
ـ إذن سأعطيها لـ«سيلاس».
ودس البطاقة في مظروف في الجيب الداخلي لسترة البستاني التي يلبسها، إلى جوار قلبه.
على بعد مائتَي ميل استيقظ الرجل المدعو «جاك» من النوم وتشمم الهواء. نزل للطابق السفلي.

سألت جدته وهي تحرك محتويات قِدر حديدي كبير على النار:
ـ ماذا هنالك؟ ماذا دهاك؟
قال:
ـ لا أعرف، شيء ما يحدث، شيء مهم.
ولعق شفتيه وأردف:
ـ رائحته لذيذة، لذيذة جدًّا.
أنار البرق الشارع المرصوف بالحجارة.
هرع «بود» تحت المطر عبر البلدة القديمة متجهًا نحو المقبرة. لقد صار النهار الرمادي ليلًا مبكرًا وهو ما زال في المخزن، ولم يندهش عندما رأى ظلًّا مألوفًا تحت مصابيح الشارع. تردد «بود»، هنا تحول مخمل الليل الأسود إلى ما يشبه خيال رجل.
وقف «سيلاس» أمامه وقد ثنى ذراعيه. مشى للأمام بصبر نافد.
قال:
ـ حسن؟
قال «بود»:
ـ آسف يا «سيلاس».
قال «سيلاس» وهو يهز رأسه:
ـ لقد خاب أملي فيك يا «بود»، أبحث عنك منذ صحوت من نومي. هناك رائحة متاعب من حولك. تعرف أنك غير مسموح لك بالمجيء هنا في عالم الأحياء.
كان المطر ينساب على وجه الصبي كأنه دموع:
ـ أعرف، أنا آسف.
ـ أولًا علينا أن نعيدك للأمان.
ومد «سيلاس» يده وضم الصبي الحي داخل عباءته فشعر «بود» بالأرض تتلاشى من تحته. قال:
ـ «سيلاس».
لم يَرُد «سيلاس».
ـ كنت خائفًا، لكني عرفت أنك ستأتي وتنقذني لو ساءت الأمور. «ليزا» كانت هناك وقد ساعدتني كثيرًا.
جاء صوت «سيلاس» حادًّا:
ـ «ليزا»؟
ـ الساحرة.. من حقل الصلصال.
ـ تقول إنها ساعدتك؟
ـ نعم، ساعدتني على التلاشي، أعتقد أن بوسعي عمل هذا الآن.
لهث «سيلاس» وقال:
ـ يمكن أن تخبرني بهذا كله في البيت.
صمت «بود» حتى هبطا جوار الكنيسة. دخلا القاعة الفارغة والمطر يتزايد وسط البرك التي غطت الأرض.
أخرج «بود» المظروف الذي يحوي البطاقة ذات الحافة السوداء وقال:

ـ إحم، خطر لي أنك تريد الاحتفاظ بهذا، أعني خطر هذا لـ«ليزا».
نظر «سيلاس» للبطاقة وقلبها، ثم قرأ مذكرة «أبانازر بولجر» لنفسه بخطه الدقيق. وقرأ كيف يشرح طريقة استعمال البطاقة.
قال:
ـ قل لي كل شيء.
حكى له «بود» كل شيء يذكره عن اليوم. في النهاية هز «سيلاس» رأسه مفكرًا.
سأله «بود»:
ـ هل أنا في مشكلة؟
قال «سيلاس»:
ـ «لا أحد أوينز»... أنت في مشكلة فعلًا. لكنْ أعتقد أنني سأعهد لأبويك بأن يستعملا معك كل وسيلة للتأديب يريانها ضرورية. في الوقت ذاته أريد التخلص من هذه.
اختفت البطاقة ذات الحافة السوداء في العباءة المخملية ثم بطريقته المعتادة اختفى «سيلاس».
شد «بود» السترة على رأسه وتسلق لِقمة التل، حيث ضريح «فروبيشر». جذب تابوت «إفرايم بيتيفير» وهبط لأسفل وأسفل. أعاد البروش مكانه جوار الكأس والسكين.
قال:
ـ هأنتذا، مصقول تمامًا وجميل المنظر.
قال السفاح:
ـ إنه يعود، دائمًا يعود.
لقد كانت ليلة طويلة.
مشى «بود» ناعسًا وفي قليل من الحذر، مارًّا بقبر الآنسة ذات الاسم الرائع «ليبرتي روتش» (ما أنفقته قد ضاع، ما منحته يبقى معها للأبد، كن سخيًّا يا من تقرأ هذا الكلام)، ومر بالمثوى الأخير لـ«هاريسون وستود» خباز الدائرة وزوجتيه «ماريون» و«جون». ومشى إلى حقل الصلصال. لقد مات مستر ومسز «أوينز» منذ مئات الأعوام قبل أن يتفق الناس على أن ضرب الصِّبية خطأ، وقد قام مستر «أوينز» في تلك الليلة بما اعتبره واجبه، فراحت مؤخرة «بود» تؤلمه، لكن نظرة القلق على وجه مسز «أوينز» آلمته أسوأ من أي ضرب.
بلغ القضبان الحديدية التي تحيط بحقل الصلصال، وانزلق عبرها.
نادى:
ـ هيه.
لم يتلقَّ إجابة، لم يرَ مجرد ظِل من غابة النرجس الأصفر، فقال:
ـ أرجو ألا أكون قد سببت لك متاعب.
لا شيء.
أعاد السروال الجينز لكوخ البستاني، كان يشعر براحة أكثر في الملاءة

الرمادية، لكنه استبقى السترة. كان يحب الجيوب.
عندما عاد للكوخ كي يعيد الجينز كان قد أخذ محراثًا يدويًّا صغيرًا من على الجدار وبه هاجم الدبابير في الحقل، فراحت تحلق وهو يهوي عليها حتى لم يعد هناك سوى باقي المياسم على الأرض. من جيبه تناول ثقَّالة الورق، وفي داخلها مئات الألوان البراقة، ومعها إناء التلوين والفرشاة.



غمس الفرشاة في اللون، وبعناية وبلون بني كتب على سطح ثقَّالة الورق:
«E H»
ومن تحتها كتب:
نحن لا ننسى
كان الفجر يدنو. سيحين وقت النوم وليس من الحكمة أن يتأخر عن الفراش الفترة المقبلة. وضع ثقَّالة الورق على الأرض وثبتها في المكان الذي توقع أن يكون رأسها فيه. انتظر ليتأمل خطه بعض الوقت، ثم خرج عبر السياج وشق طريقه نحو التل.
قال صوت قوي من الحقل:
ـ ليس سيئًا، ليس سيئًا على الإطلاق.
عندما استدار لينظر لم يكن هناك أحد.

الفصل الخامس
رقصـة المـوت

شـيء ما كان يحدث. «بود» كان على يقين من هذا.
كان هناك في ريح الشـتاء الباردة، في النجوم، في الريح، في الظلام، كان هناك في توالي الليالي الطويلة والأيام الهاربة.
دفعته مسز «أوينز» خارج قبر آل «أوينز» الصغير وقالت:
ـ انصرِف لحال سـبيلك.. لديَّ عمل أقوم به.
نظر «بود» لأمه وقال:
ـ لكن الطقس بارد هنا.
قالت:
ـ آمل في هذا، إنه الشـتاء، هكذا يجب أن يكون، والآن...
ثم قالت لنفسـها أكثر مما هو لـ«بود»:
ـ أحذية، انظر إلى هذا الثوب، إنه يحتاج لحاشـية. وخيوط عناكب، في كل مكان، بحق السـماء. انصرف لحال سـبيلك.



ثم قالت له من جديد:

ـ هناك الكثير مما يجب أن أقوم به ولا أريدك في طريقي.
ثم راحت تغني لنفسها.. كوبليه لم يسمعه «بود» من قبل:
أيها الرجل الغني، أيها الفقير، تعاليا بلا صوت.
تعاليا لترقصا رقصة الموت.
سأل «بود»:
ـ ما معنى هذا؟
لكنه كان وقتًا غير مناسب لأن مسز «أوينز» بدت مكفهرة كسحابة رعدية، فجرى من القبر قبل أن تعبر عن ضيقها بقوة أكبر.
كانت المقبرة باردة ومظلمة، وقد اختفت النجوم. مر «بود» بـ«الأم ذبح» في الممر الفرعوني المغطي باللبلاب وقد راحت تحملق في الخضرة. ثم قالت:
ـ عيناك أصغر من عينيَّ أيها الشاب، هل ترى أزهارًا متفتحة؟
ـ أزهار متفتحة؟ في الشتاء؟
ـ لا تنظر لي هكذا أيها الشاب، الأشياء تزدهر في وقتها. تتبرعم وتزهر ثم تخبو، كل شيء له وقته.
وتكورت في عباءتها والقلنسوة وقالت:
وقت للعمل ووقت للهو بلا سبات.
ووقت لرقص رقصة الموت.
صحيح يا ولد؟



قال «بود»:
ـ لا أعرف، ما رقصة الموت؟
لكن «الأم ذبح» اختفت في الممر. وقال «بود» بصوت عالٍ:
ـ يا للغرابة!
وراح يبحث عن الدفء والصحبة في ضريح «بارتلبي» الصاخب. لكن آل «بارتلبي» ـ سبعة أجيال ـ لم يكن لديهم وقت له الليلة. كانوا ينظفون وينسقون من أكبرهم سنًّا (الذي مات عام ١٨٣١) حتى الأصغر (الذي مات عام ١٦٩٠). كان الصبي «فورتنبراس بارتلبي» الذي مات في سن العاشرة (مات بالاستهلاك[6]) كما حكى لـ«بود» الذي ظن لأعوام طويلة أن «فورتنبراس» أكلته الأسُود أو الدببة، وقد خاب أمله عندما عرف أن الاستهلاك مجرد مرض)، وقد اعتذر لـ«بود»:

ـ لا نستطيع التوقف للعب يا سيد «بود»، لأن ليل الغد آتٍ حالًا، وكم من مرة يستطيع المرء أن يقول هذا؟
قال «بود»:
ـ ليل الغد يأتي دومًا.
قال «فورتنبراس»:
ـ ليس هذا، ليس قمرًا أزرق أو شهرًا من أيام الأحد.
قال «بود»:
ـ ليست «ليلة جاي فوكس»([7]) أو الهالوين أو العام الجديد.
ابتسم «فورتنبراس» ابتسامة عريضة ملأت وجهه ـ المليء بالنمش ـ بالسعادة. وقال:
ـ ليس أيًّا منها، هذه ليلة خاصة.
سأله «بود»:
ـ ما اسمها؟ ماذا سيحدث غدًا؟
قال «فورتنبراس»:
ـ هذا أفضل يوم.
وكان «بود» واثقًا من أنه سيكمل، لكن جدته «لويزا بارتلبي» (وكانت في العشرين فقط) نادته، وقالت في أذنه شيئًا بحدة.
قال «فورتنبراس»:
ـ لا شيء.
ثم قال لـ«بود»:
ـ آسف، يجب أن أعمل الآن.
وتناول خرقة وراح ينفض جانب التابوت المغبر. وراح يغني:
ـ لا لا لا... أوومب، لا لا لا... أوومب.
ومع كل «أوومب» كان يلوِّح بالخرقة ليظهر جسده كله.
ـ ألن تغني تلك الأغنية؟
ـ أي أغنية؟
ـ التي يغنيها الجميع.
قال «فورتنبراس»:
ـ لا وقت لهذا، الأمر غدًا، غدًا، بعد كل شيء.
قالت «لويزا» التي ماتت وهي تلد توأمين:
ـ لا يوجد وقت، اعتنِ بأمورك.
وبصوتها العذب الصافي غنت:

الكل والجميع سيسمعون ويبقون
تعالوا لترقصوا رقصة الموتى.

مشى «بود» للكنيسة الصغيرة المنهارة وانزلق بين الأحجار وداخل الكهف، حيث جلس وانتظر عودة «سيلاس». كان يشعر ببرد حقًّا لكن هذا لم يضايقه. إن المقبرة تحتضنه والموتى لا يبالون بالبرد. عاد حارسه في ساعات الصباح الأولى ومعه حقيبة بلاستيكية كبيرة.

ـ ماذا هنا؟
ـ ثياب لك، جرِّبها.
وأخرج سترة رمادية في لون كفن «بود». وسروال جينز وثيابًا داخلية وحذاء أخضر شاحب اللون.
ـ لمَ هذه؟
ـ هل تعني فيمَ تُستخدم عدا الارتداء؟ أولًا أعتقد أنك كبرت بما يكفي، كم عمرك؟ عشرة أعوام. ثياب الأحياء الطبيعيين اختيار حكيم. يجب أن تلبسها يومًا، فلمَ لا تكسب العادة الآن؟ وهي تصلح للتخفي أيضًا.
ـ أي تخفٍّ؟
ـ عندما يبدو شيء مثل شيء آخر، حتى إن من يراقبون المشهد لا يعرفون كنه ما ينظرون له.
ارتدى «بود» الثياب. لاقى مصاعب مع رباط الحذاء فعلَّمه «سيلاس» كيف يربطه. بدا الأمر معقدًا لـ«بود» بشكل واضح، وجرب الربط وإعادة الربط عدة مرات قبل أن يروق ما صنعه لـ«سيلاس». هنا جرؤ «بود» على السؤال:
ـ «سيلاس»، ما رقصة الموت؟
ارتفع حاجبا «سيلاس» ومال رأسه لجنبٍ وقال:
ـ أين سمعت هذا؟
ـ كل من بالمقبرة يتكلم عنها، يبدو أنها شيء يتم ليلة غد. ما رقصة الموت؟
قال «سيلاس»:
ـ هي رقصة.
قال «بود» متذكرًا:
ـ الكل يجب أن يرقص رقصة الموت، هل رقصتها؟ أي رقصة هي؟
نظر له حارسه بعينين كبركتين سوداوين وقال:
ـ لا أعرف، أعرف أشياء كثيرة يا «بود» لأنني أمشي في هذه الأرض ليلًا منذ زمن سحيق، لكنْ لا أعرف كيف يرقصون رقصة الموت. يجب أن تكون حيًّا أو ميتًا لترقصها، وأنا لست هذا ولا ذاك.
ارتجف «بود»، كان يريد أن يلتصق بحارسه ليخبره أنه لن يتخلى عنه أبدًا، لكن هذا كان غير ممكن التفكير فيه. لا يمكنه احتضان «سيلاس» إلا لو احتضن شعاع قمر، ليس لأن «سيلاس» غير مادي لكنْ لأن هذا خطأ. هناك ناس يمكنك أن تحتضنهم ثم هناك «سيلاس».
راح راعيه يتفقد «بود» مفكرًا، صبي في ثياب جديدة. ثم قال:
ـ سوف تصلح، تبدو كأنك كنت تعيش خارج المقبرة طوال حياتك.
ابتسم «بود» في فخر، ثم توقفت الابتسامة وبدا عليه الجد ثانية وقال:
ـ لكنك ستظل هنا يا «سيلاس» أليس كذلك؟ وأنا لن أضطر للرحيل لو لم أُرِد.
قال «سيلاس»:
ـ لكل شيء وقته.
ولم يقل أكثر في تلك الليلة.
استيقظ «بود» في اليوم التالي مبكرًا، والشمس عملة فضية في سماء

الشتاء الرمادية. كان من السهل أن تنام في ساعات النهار وأن تمضي الشتاء كله في ليلة طويلة واحدة فلا ترى الشمس، لذا كان يعدُ نفسه في كل ليلة قبل النوم أنه سيصحو في ضوء النهار ويفارق قبر آل «أوينز» المريح. كان هناك عطر غريب في الهواء، عطر حاد. تتبَّعه «بود» حتى أعلى الممر الفرعوني، حيث تدلى لبلاب شتوي في خضرة متشابكة أخفت الجدران الفرعونية والتماثيل والنقوش الهيروغليفية. كان العطر ثقيلًا جدًّا هنا، وللحظة تساءل «بود» إن كان الثلج قد انهمر لأنه رأى كتلًا بيضاء على الخضرة. تفحص كتلة عن كثب، كانت مصنوعة من أزهار خماسية البتلات، وكان قد مد أنفه ليشم العطر عندما سمع خطوات قادمة عبر الممر.

اختفى «بود» وسط اللبلاب وراقب. كان هناك ثلاثة رجال وامرأة، كلهم أحياء ومشوا في الممر الفرعوني. كانت المرأة تضع سلسلة مزخرفة حول عنقها.

سألت:

ـ هل هذا هو؟

قال أحد الرجال وهو مكتنز أشيب قصير النفَس:

ـ نعم يا مسز «كراوية».

ومثل كل رجل كان يحمل سلة كبيرة ـ خالية ـ من الخيزران.

بدا عليها الغموض والدهشة:

ـ لكنْ ليس بوسعي قول إنني أفهم الأمر.

ونظرت للأزهار وقالت:

ـ ماذا أفعل الآن؟

مد أصغر الرجال يده في السلة الخيزرانية وأخرج مقصًّا لامعًا وقال:

ـ المقص يا سيدتي العمدة.

أخذت المقص منه وبدأت تقطع الأزهار وراح الرجال الثلاثة يملأون السلال بالزهر.

قالت مسز «كراوية» أو السيدة العمدة بعد قليل:

ـ هذا سخيف تمامًا.

قال الرجل المكتنز:

ـ هذا تقليد.

قالت مسز «كراوية»:

ـ تقليد سخيف تمامًا.

لكنها واصلت قَطع الأزهار البيضاء وإلقاءها في السلة الخيزرانية. عندما ملأوا أول سلة سألت:

ـ هل هذا كافٍ؟

قال الرجل الأصغر:

ـ يجب أن نملأ السلال الأربع.

ـ ثم نوزع الأزهار على كل واحد في المدينة القديمة.

سألت مسز «كراوية»:

ـ وأي تقليد هذا؟ لقد سألت حضرة العمدة السابق لي وقال إنه لم يسمع عن

هذا قَطّ.
ثم قالت:
ـ هل تشعرون بأن هناك من يراقبنا؟
قال الرجل الثالث:
ـ ماذا؟
لم يكن قد تكلم حتى الآن. كانت له لحية ويضع عمامة:
ـ هل تعنين الأشباح؟ أنا لا أؤمن بالأشباح.
قالت مسز «كراوية»:
ـ ليس الأشباح، إحساس بأن هناك من ينظر.
قاوم «بود» رغبته في أن يحشر نفسه أكثر داخل اللبلاب.
قال الرجل المكتنز الذي أوشكت سلته على الامتلاء:
ـ ليس غريبًا أن حضرة العمدة السابق لم يسمع عن هذا التقليد. هذه أول مرة تتفتح فيها أزهار الشتاء منذ ٨٠ عامًا.
كان الرجل ذو اللحية والعمامة الذي لا يؤمن بالأشباح ينظر حوله في عصبية.
قال الرجل صغير الحجم:
ـ كل واحد في المدينة القديمة سينال زهرة، رجل، امرأة، طفل.
ثم قال ببطء كأنه يتذكر شيئًا تعلمه منذ زمن سحيق:
ـ واحد يرحل وواحد يبقى والجميع يرقصون رقصة الموت.
استنشقت مسز «كراوية» من أنفها وقالت:
ـ هُراء!
وراحت تتشمم الأزهار.
جاء الغسق بسرعة ليهزم العصر وصار المكان مظلمًا في الرابعة والنصف. مشى «بود» في ممرات المقبرة باحثًا عن شخص يتكلم معه، لكنْ لم يكن هناك أحد. مشى إلى حقل الصلصال ليرى إن كانت «ليزا همبستوك» هناك لكنه لم يجد أحدًا.
عاد إلى قبر «أوينز» لكنه وجده مهجورًا ولم يكن أبوه ولا السيدة «أوينز» هناك. أصابه الهلع، هلع قليل الوطء. هذه أول مرة في عمره ذي العشر سنوات التي يشعر فيها بأنه مهجور في المكان الذي يعتبره بيته، لذا ركض للتل وانتظر «سيلاس».
لم يأتِ «سيلاس».
فكَّر «بود»: «ربما أضعته».
لكنه لم يصدق هذا. مشى لِقمة التل ونظر حوله. كانت النجوم معلقة في السماء الباردة وأضواء المدينة تنتشر من تحت. أضواء الشوارع وكشافات السيارات وأشياء تتحرك. مشى ببطء أسفل التل حتى بلغ بوابات المقبرة الرئيسية وتوقف هناك.
كان بوسعه أن يسمع موسيقى.
كان «بود» قد سمع جميع أنواع الموسيقى من قبل. أجراس عربة الآيس كريم الحلوة، الأغاني التي تتردد من أجهزة راديو العمال، الأنغام التي كان

«كلاريتي جيك» يعزفها للموتى على كمانه المترب، لكنه لم يسمع شيئًا كهذا من قبل. موجات عميقة كأنها افتتاحية شيء ما، ربما استهلال.
انزلق عبر البوابات المغلقة ومشى لأسفل التل ودخل المدينة القديمة. مر بالسيدة العمدة تقف في الركن، وكانت تمد يدها بزهرة تثبتها على سترة رجل أعمال مار. فقال الرجل:
ـ أنا لا أعطي تبرعات أو صدقات، أترك هذا للمكتب.
قالت مسز «كراوية»:
ـ لا يتعلق الأمر بالصدقات، هذا تقليد محلي.
قال:
ـ أه.
ثم نفخ صدره ليُظهر الزهرة البيضاء الصغيرة للعالم، ومشى مبتعدًا مليئًا بالفخر.
مرت امرأة شابة تدفع عربة أطفال بعد ذلك، وإذ دنت منها العمدة قالت في شك:
ـ لمَ هذا؟
قالت العمدة:
ـ واحدة لكِ وواحدة للصغير.
وثبَّتت الزهرة على معطف الفتاة الشابة الشتوي، وثبَّتت زهرة أخرى على معطف الصغير بشريط لاصق.
سألت الشابة:
ـ لكنْ لمَ هذا؟
قالت العمدة في غموض:
ـ هذه عادة قديمة للمدينة، نوع من التقاليد.
مشى «بود»، وفي كل مكان كان يرى الناس يضعون أزهارًا بيضاء. عند ناصية الشارع رأى الرجال الذين كانوا مع السيدة العمدة. كل رجل يحمل سلة ويوزع الأزهار البيضاء. لم يأخذ الكل أزهارًا، لكنْ فعل ذلك أكثرهم. كانت الموسيقى مستمرة في العزف عند حافة الوعي، غريبة متفردة. ميَّل «بود» رأسه إلى جنبٍ وحاول أن يعرف مصدرها فلم يوفَّق. كانت في الهواء من كل صوب. كانت تُعزف في رفرفة الأعلام والمظلات على المحلات وفي هدير المرور بعيدًا وفي ضربات الكعوب للرصيف.
وكان هناك شيء غريب. كذا فكر «بود» وهو يراقب الناس يتجهون لديارهم. كانوا يمشون مع الموسيقى بالضبط.
كان الرجل ذو اللحية والعمامة قد أنهى ما معه من أزهار تقريبًا، مشى «بود» نحوه.
قال «بود»:
ـ أستميحك عذرًا.
قال الرجل لائمًا وقد فوجئ:
ـ لم أرَك.

قال «بود»:
ـ هل لي في زهرة أنا أيضًا؟
نظر الرجل ذو العمامة لـ«بود» في شك ثم سأله:
ـ هل تعيش هنا؟
قال «بود»:
ـ نعم.
ناوله الرجل زهرة بيضاء. أخذها «بود» ثم صاح: «أي!».
كأن هناك شيئًا وخز قاعدة إبهامه، فقال الرجل:
ـ ثبِّتها على صدرك، احترِس من الدبوس.
كانت قطرة من اللون القرمزي تنمو من إبهام «بود». امتصه للحظة بينما الرجل يثبِّت الزهرة على سترته. وقال لـ«بود»:
ـ لم أرَك هنا قَطُّ.
قال «بود»:
ـ أنا أعيش هنا، لمَ هذه الأزهار؟
قال الرجل:
ـ هو تقليد لدى البلدة القديمة. قبل أن تكبر البلدة، عندما كانت أزهار الشتاء تتفتح في المقبرة على التل، كنا نقطعها ونقدمها لأي شخص، رجل أو امرأة، شاب أو شيخ، غني أو فقير.
تعالى صوت الموسيقى أكثر، وتساءل «بود» إن كان يسمعها أوضح لأنه يضع الزهرة. يمكنه سماع دقاتٍ كأنها طبلة بعيدة، ونغمة مترددة جعلته يتمنى أن يمسك بكعبيه ويمشي للصوت. لم يكن «بود» قد ذهب إلى أي مكان من قبلُ كسائح. لقد نسي أنه ممنوع من ترك المقبرة. ونسي أن الليلة في المقبرة على التل لن يبقى الموتى في مكانهم. كل ما فكر فيه هو البلدة القديمة، فتواثب إلى حيث كانت الحدائق الأميرية أمام قاعة المدينة القديمة، التي صارت متحفًا ومركز استعلامات سياحية. أما القاعة نفسها فقد نقلت إلى مكاتب مهيبة، وإن كانت أكثر جدة ومللًا عبر المدينة. كان هناك ناس يجوبون الحدائق الأميرية التي ـ في منتصف الشتاء ـ لم تعد سوى حقل معشوشب فيه بعض درجات هنا وهناك وتمثال.
أصغى «بود» للموسيقى حالمًا. كان هناك أناس يفدون للميدان منفردين أو أزواجًا، أسرًا أو وحيدين. لم يرَ كل هؤلاء الأحياء في وقت واحد من قبل. لا بد أن هناك مئات منهم يتنفسون، كل منهم حي مثله وكل منهم يحمل زهرة بيضاء.
فكَّر «بود»: «هل هذا هو ما يفعله الأحياء؟». لكنه كان يعرف أن الإجابة «لا»، وأن هذا بالذات كان أمرًا خاصًّا. وقفت الشابة ـ التي رآها من قبل تدفع عربة طفل ـ جواره وهي تمسك بطفلها وتؤرجح رأسها مع الموسيقى.
سألها «بود»:
ـ إلى متى تستمر الموسيقى؟
لكنها لم تقل شيئًا. فقط تمايلت وابتسمت. لم يعتقد «بود» أن ابتسامتها

طبيعية. وعندما تيقن من أنها لا تسمعه تلاشى أو صار شخصًا لا تهتم بسماعه. قالت:

ـ هذا يبدو مثل الكريسماس.

قالتها كأنها في حلم وكأنها ترى نفسها من الخارج. وبنفس النغمة التي توحي بأنها ليست هنا قالت:

ـ تُذكرني بشقيقة جدتي، الخالة «كلارا»، كنا نذهب لها ليلةَ ما قبل الكريسماس بعد وفاة جدتي، وكنا نعزف الموسيقى على البيانو القديم عندها، وكانت أحيانًا تغني ونأكل البندق والشوكولاتة، لكنْ لا أذكر أي أغنية مما كانت تغنيه. لكن هذه الموسيقى تشبه كل الأغاني التي كنا نسمعها ذلك الوقت.

بدا الطفل نائمًا ورأسه على كتفها، لكنه كان يؤرجح يديه برفق مع الموسيقى. هنا توقَّفت الموسيقى وساد الميدان الصمت، صمت واهن، كأنه سكون الجليد المنهمر وابتلع الليل كل الضوضاء والأجساد في الميدان، فلم يبقَ أحد يرقص أو يقرع الأرض بقدميه. بل لم يكن هناك تقريبًا من يتنفس.

دقت ساعة في مكان ما دقات منتصف الليل، وهنا جاءوا.

مشوا هابطين التل في موكب بطيء يمشي في صرامة، يملأون الطريق بعرض خمسة. عرفهم «بود» أو عرف أكثرهم، في الصف الأول عرف «الأم ذبح» و«جوزياه ورثنجتون»، والإيرل العجوز الذي جرح في الحروب الصليبية وعاد للوطن ليموت، ودكتور «تريفوسيس»، كلهم تبدو عليهم الأهمية والجدية. كانت هناك شهقات من الناس في الميدان، وراح أحدهم يبكي قائلًا:

ـ رب ارحمنا، نحن في محنة. هذا ما نحن فيه!

حملق معظم الناس في المشهد غير مندهشين كأن هذا يدور في حلم. مشى الموتى صفًّا وراء صف حتى بلغوا الميدان.

ارتقى «جوزياه ورثنجتون» الدرجات حتى بلغ مسز «كراوية»، أو السيدة العمدة. مد لها يده وقال بصوت عالٍ جعل الميدان كله يسمعه:

ـ أيتها السيدة المجيدة، أرجوكِ أن تشاركيني رقصة الموت.

ترددت مسز «كراوية» ونظرت للرجل جوارها طالبة النصح. كان يلبس منامة وخُفين، وهناك زهرة بيضاء على طية سترته. ابتسم وهز لها رأسه.

قالت مسز «كراوية»:

ـ بالطبع.

ومدت يدًا ولمست «جوزياه ورثنجتون»، فعادت الموسيقى تعزف. لو كان ما سمعه «بود» حتى اللحظة افتتاحية فقد انتهت. هذه هي الموسيقى التي جاء الجميع لسماعها، لحن داعب أقدامهم وأصابعهم.

تشابكت أيدي الموتى والأحياء وبدأ الرقص. ورأى «بود» «الأم ذبح» ترقص مع «لويزا بارتلبي». وابتسمت السيدة «أوينز» لـ«بود» وهي تمسك بيد بائع جرائد مُسن، بينما كان مستر «أوينز» يراقص فتاة صغيرة بلا تكلف، فأخذت يده كأنما كانت تنتظر الرقص معه طوال حياتها.

وبدأ الرقص، وشعر «بود» بيد أحدهم تطبق على يده.

ضحكت «ليزا همبستوك» له وقالت:
ـ هذا جيد.
وبدآ يخطوان خطوات الرقصة معًا، ثم راحت تغني على الموسيقى:
اخطُ ودر، امشِ وابقَ،
فنحن نرقص الآن رقَصة الموت.
ملأت الموسيقى رأس وقلب «بود» بسعادة وحشية. تحركت قدماه كأنه يعرف الخطوات فعلًا، يعرفها منذ الأزل.
راح يرقص مع «ليزا همبستوك» ثم فوجئ بأن يده يأخذها «فورتنبراس بارتلبي»، فراح يرقص مع «فورتنبراس» وهما يشقان صفوف الراقصين، رأى «أبانازر بولجر» يرقص مع مُدرسته السابقة مس «باروز». رأى الموتى يرقصون مع الأحياء. ثم صار الرقص صفوفًا طويلة من الناس يخطون في اتساق ويمشون ويركلون (لا لا لا... أوومب! لا لا لا... أوومب!).
خط رقص عمره ألف عام من قبل. الآن صار في الصف جوار «ليزا همبستوك» فقال:
ـ من أين تأتي الموسيقى؟
هزت كتفيها.
ـ من المسؤول عن هذا كله؟
قالت له:
ـ إنه يحدث دومًا، الأحياء لا يتذكرون لكننا لا ننسى.
ثم صاحت في حماسة:
ـ انظر!
لم يكن «بود» قد رأى حصانًا حقيقيًّا من قبل، فقط في صفحات كتب الصور، لكن الحصان الأبيض الذي كان يخبُّ في الشارع نحوه لم يكن يبدو مثل الخيول التي تخيلها. كان أكبر بكثير، وله وجه صارم كئيب. كانت هناك امرأة على ظهر الحصان العاري تلبس ثوبًا رماديًّا يتدلى ويلمع تحت قمر ديسمبر، كأنه نسيج عنكبوت مغطى بالندى. وصلت للميدان فتوقف الحصان وترجلت المرأة في يُسر ووقفت على الأرض لتواجههم. الأحياء منهم والأموات. وثنت ركبتيها محيية، فردَّ الجميع بالانحناء أو ثنيِ ركبهم وتجدد الرقص.
غنت «ليزا همبستوك»:
الآن السيدة ذات الثوب الرمادي تتقدمنا في رقصة الموت،
قبل أن تحملها دوامة الرقص بعيدًا عن «بود». كانوا يضربون الأرض بأقدامهم وداروا وركلوا، بينما السيدة ترقص معهم وتدور في حماسة. حتى الحصان الأبيض ميَّل رأسه ومال على الموسيقى.
تسارع الرقص ومعه الراقصون، كان «بود» منقطع الأنفاس لكنه لم يستطِع تخيُّل أن يتوقف الرقص مطلقًا. رقصة الموت، رقصة الموتى والأحياء، الرقص مع الموت. كان «بود» يبتسم وكان الجميع يبتسمون. رأى السيدة ذات الثوب الرمادي من وقت لآخر وهو يشق طريقه عبر الحدائق الأميرية.
فكر «بود»: الكل يرقص، الكل يرقص!

فكر في هذا ثم أدرك أنه مخطئ. في ظلال قاعة البلدة القديمة وقف رجل يلبس السواد، ولم يكن يرقص، كان يراقبهم. وتساءل «بود» هل هو الحنين ذلك الذي يراه على وجه «سيلاس» أم الألم أم شيء آخر، لكن وجه حارسه ظل مغلقًا.
نادى بصوت عالٍ:
ـ «سيلاس»!
آملًا أن يجعل حارسه يأتي له، لينضم للرقص ولينعم بما يستمتعون به، لكنْ عندما سمع «سيلاس» اسمه توارى للظلال واختفى عن العيون.
نادى أحدهم:
ـ آخر رقصة!
تحولت الموسيقى إلى شيء بطيء ونهائي. وأخذ كل من الراقصين شريكًا، الأحياء مع الأموات. مد «بود» يده ولامس أصابع السيدة التي تلبس فستانًا من نسيج العناكب، ووجد نفسه يحملق فيها.
ابتسمت له. وقالت:
ـ مرحبًا يا «بود».
قال وهو يرقص معها:
ـ لا أعرف اسمكِ.
قالت:
ـ الأسماء ليست مهمة حقًّا.
ـ أحب حصانكِ، إنه عملاق، لم أعرف أن الخيول يمكن أن تكون كبيرة هكذا.
ـ إنه رقيق بحيث يحمل أقواكم على ظهره العريض، وقوي بحيث يحمل أصغركم كذلك.
سأل «بود»:
ـ هل لي أن أركبه؟
قالت له:
ـ يومًا ما، يومًا ما سيركبه الجميع.
ـ وعدٌ؟
ـ أعدُك.
وهنا انتهى الرقص. انحنى «بود» لشريكته في الرقص، وهنا فقط شعر بأنه مرهق وكأنه كان يرقص ساعة تلو ساعة. كان يشعر بعضلاته تؤلمه وتحتج. لقد انقطع نفَسه.
راحت ساعة معلقة تدق معلنة عن الوقت. وراح «بود» يعدُّ: اثنتا عشرة دقة. تساءل إن كان ظل يرقص ١٢ ساعة أم ٢٤ ساعة أم لم يرقص قَطُّ.
وقف ونظر حوله، لقد رحل الموتى وكذا السيدة ذات الثوب الرمادي. فقط بقي الأحياء وقد بدأوا يعودون لديارهم، مفارقين ميدان المدينة وقد غلبهم النعاس وتصلبت أطرافهم كأنهم صحَوْا من نوم عميق، يمشون دون أن يفيقوا.
كان الميدان مغطى بأزهار بيضاء دقيقة. بدا كأنه كان هناك زفاف.
صحا «بود» عصر اليوم التالي في قبر «أوينز» شاعرًا بأنه عرف سرًّا عظيمًا،

وأنه قام بعمل مهم، وكان يتحرق شوقًا ليتكلم.
عندما صحت السيدة «أوينز»، قال «بود»:
ـ كانت ليلة مذهلة أمس.
قالت السيدة «أوينز»:
ـ حقًّا؟
قال «بود»:
ـ رقصنا، نحن جميعًا، هناك في المدينة القديمة.
قالت مسز «أوينز» وهي تغطّ:
ـ حقًّا؟ رقصنا؟ تعرف أنه ليس مسموحًا لك بالنزول للبلدة.
كان يعرف أنه من الحكمة ألا يتكلم مع أمه عندما يكون مزاجها عكِرًا بهذه الطريقة. خرج من القبر إلى الغسق المحتشد. مشى لأعلى التل حيث المسلة السوداء وحيث شاهدُ قبر «جوزياه ورثنجتون» حيث كان هناك مدرج طبيعي. وكان يمكنه أن ينظر للبلدة القديمة وأضواء المدينة حولها.
كان «جوزياه ورثنجتون» يقف جواره.
قال «بود»:
ـ أنت بدأت ترقص مع السيدة العمدة، أنت رقصت معها.
نظر له «جوزياه ورثنجتون» ولم يقل شيئًا.
قال «بود»:
ـ أنت فعلت.
قال «جوزياه ورثنجتون»:
ـ الموتى والأحياء لا يختلطون يا بُني، نحن لم نعد جزءًا من عالمهم وهم ليسوا من عالمنا. لو رقصنا رقصة الموت معهم فلن نتكلم عن هذا، وبالتأكيد لا نتكلم عن هذا مع الأحياء.
ـ لكني واحد منكم.
ـ ليس بعدُ يا بُني، ليس في حياتك.
فهم «بود» لماذا رقص كواحد من الأحياء وليس كواحد من الموتى الذين جاءوا من أعلى التل. قال:
ـ أظن أني فهمت.
جرى لأسفل التل، صبيًّا في العاشرة يتعجل الأمور، حتى كاد يتعثر في قبر «دجبي بول» (١٧٨٥-١٨٦٠، كما أنا ستكون أنت). استعاد توازنه بقوة إرادته واندفع نحو الكنيسة القديمة خائفًا أن يضيع «سيلاس»، أو أن يكون قد رحل عندما يصل لهناك.
جلس «بود» على المقعد الطويل.
كانت هناك حركة جواره برغم أنه لم يسمع شيئًا يتحرك. وقال حارسه:
ـ مساء الخير يا «بود».
قال «بود»:
ـ أنت كنت هناك أمس، لا تقل إنك لم تكن هناك لأنني أعرف الحقيقة.
قال «سيلاس»:

ـ نعم.
ـ أنا رقصت معها، مع السيدة ذات الحصان الأبيض.
ـ هل فعلت ذلك؟
ـ أنت رأيت هذا، الموتى والأحياء! كنا نرقص، لمَ لا يتكلم أحد عن هذا؟
ـ لأن هناك ألغازًا، لأن هناك أمورًا محرمة على الناس، لأن هناك أشياء لا يتذكرونها.
ـ لكنك تتكلم عنها الآن، نحن نتكلم عن رقصة الموت.
قال «سيلاس»:
ـ أنا لم أرقصها.
ـ لكنك رأيتها.
قال «سيلاس»:
ـ لا أعرف ما رأيته.
هتف «بود» مندهشًا:
ـ أنا رقصت مع السيدة يا «سيلاس».
بدا حارسه كأنه كسِير القلب، ووجد «بود» نفسه خائفًا كأنه طفل أيقظ فهدًا نائمًا.
لكن «سيلاس» قال:
ـ انتهت هذه المحادثة.
كان بوسع «بود» أن يقول شيئًا، هناك مائة شيء أراد قوله برغم أن ذلك لم يكن من الحكمة. هنا شتت انتباهه شيء: ضوضاء كالحفيف، شيء ناعم رقيق، ولمسة كالريشة على وجهه. عندها نسي كل خواطر الرقص وحل السرور والإجلال موضع الخوف، كانت ثالث مرة في حياته يراه فيها.
قال والسعادة تملأ قلبه ورأسه فلا تترك موضعًا لشيء آخر:
ـ انظر يا «سيلاس»! إن الثلج يسقط، إنه ثلج حقيقي!

فاصل المجمع

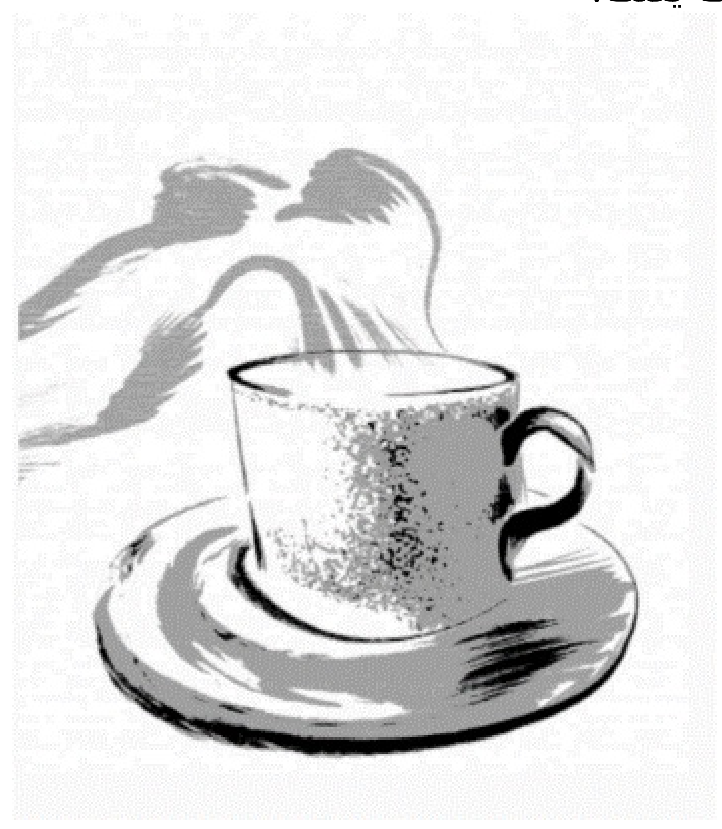


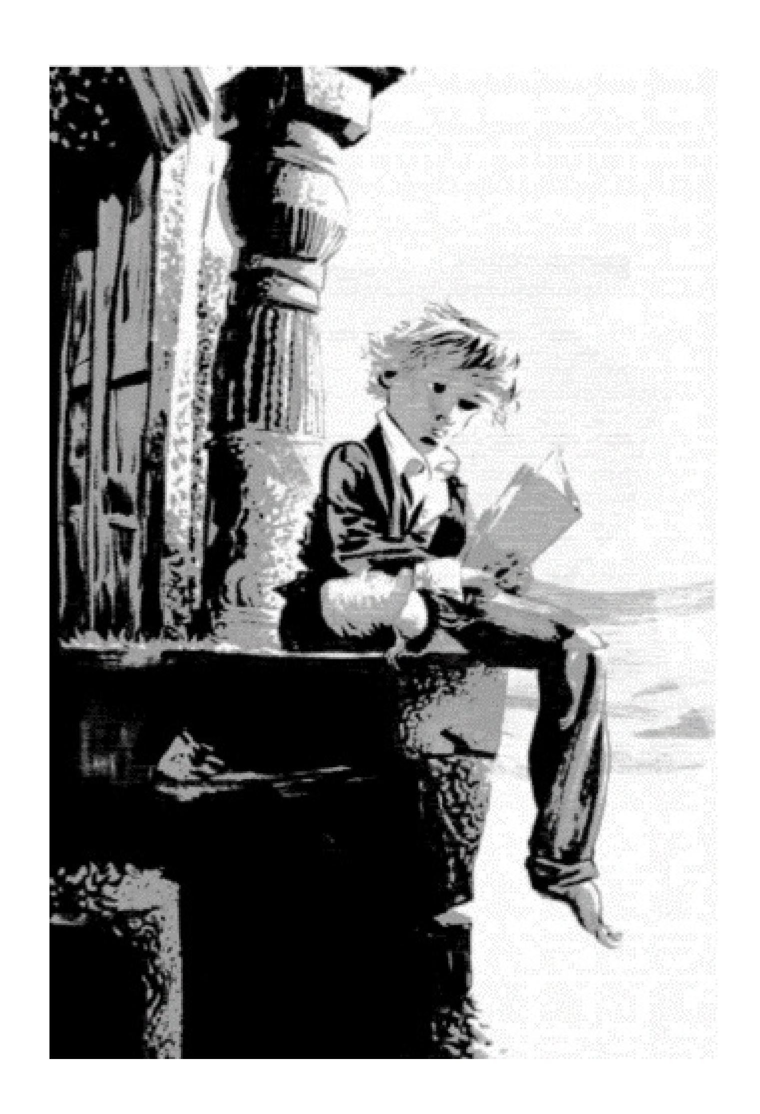
لافتة صغيرة في بهو الفندق أعلنت أن «قاعة واشنطن» قد حجزت لهذه الليلة من أجل غرض خاص. برغم أنه لم تكن هناك أي معلومات عن نوعية هذا الغرض. الواقع أنك لو نظرت لسكان «قاعة واشنطن» تلك الليلة، فما كنت لتظفر برؤية أوضح لما يحدث، وبرغم أن نظرة سريعة كانت لتخبرك أنه لا توجد نساء هناك، كانوا جميعًا رجالًا وهذا واضح جدًّا، وكانوا يجلسون حول مناضد العشاء وهم ينهون الحلوى.

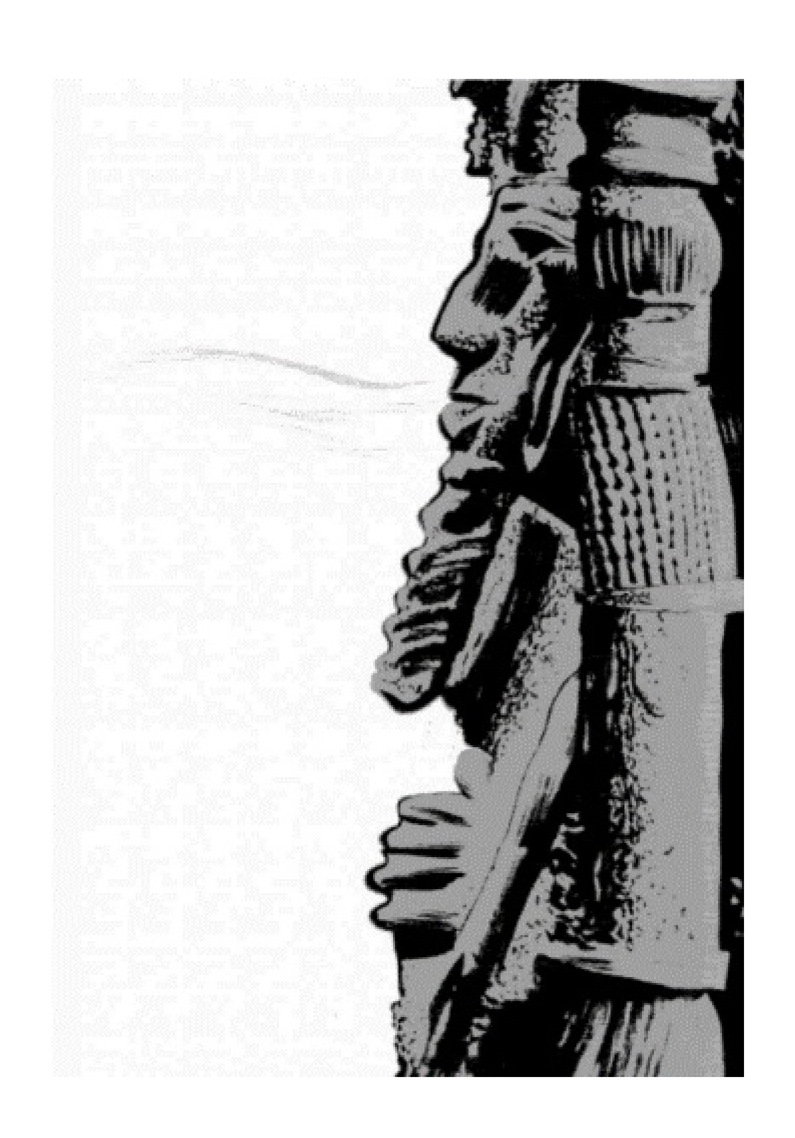
كان هناك نحو مائة منهم، كلهم في ثياب سود رصينة، لكن الثياب كانت الشيء الوحيد الذي يجمع بينهم. كان شعر بعضهم أبيض وشعر بعضهم أسود، بعضهم كان أشقر أو أحمر الشعر أو بلا شعر على الإطلاق. كانت لهم وجوه ودود أو غير ودود، متعاونة أو كالحة، صريحة أو غامضة، فظة أو حساسة. أكثرهم كان متورد الجلد لكنْ كان هناك رجال سود البشرة ورجال لون بشرتهم بني. كانوا أفريقيين وأوروبيين وهنودًا وصينيين ومن جنوب أمريكا ومن الفلبين وأمريكا. كلهم كان يتكلم الإنجليزية عندما يتخاطبون بينهم أو مع الساقي. لكن اللكنات كانت متباينة وكذا كان السادة، جاءوا من أوروبا ومن العالم.

جلس الرجال ذوو السترات السود على المناضد، بينما وقف على منصةٍ رجل عريض بشوش يلبس بدلة صباحية كأنه جاء من حفل زفاف، وكان يذكر الأعمال الخيرية التي تمت. لقد أخذوا الأطفال من الأماكن الفقيرة إلى إجازات طريفة. تم شراء حافلة لتُقل الناس الذين يحتاجون لها في نزهاتهم.
كان الرجل المدعو «جاك» يجلس إلى منضدة في المقدمة جوار رجل أنيق له شعر فضي اللون. كانا ينتظران القهوة.
قال الرجل ذو الشعر الفضي:
ـ الوقت يمر، ولا أحد منا يزداد شبابًا.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ كنت أفكر، تلك المهمة في سان فرانسسكو من أعوام قليلة...
ـ كانت تعسة، لكنها مثل الأزهار التي تتفتح في الربيع، لا علاقة لها بالحالة أساسًا. أنت فشلت يا «جاك»، كان عليك أن تُعنى بهم جميعًا وهذا يتضمن الرضيع، بالذات الرضيع. إن كلمة «بالكاد» لا قيمة لها إلا عند الحديث عن حدوات الأحصنة والقنابل اليدوية.
جاء ساقٍ يلبس سترة بيضاء وصب القهوة لكل رجل على المنضدة. كان هناك شاب بشارب أسود رفيع كأنه مرسوم بقلم، ورجل أشقر فارع القامة يمكن أن يكون نجم سينما أو موديلًا، ورجل أسمر البشرة له رأس كبير وهو ينظر في حدة للعالم كأنه ثور غاضب. كان هؤلاء الرجال لا يصغون لمحاورة «جاك»، لكنهم كانوا يصغون للمتكلم ويصفقون من وقت لآخر. أضاف الرجل فضي الشعر ملاعق عديدة من السكر إلى القهوة وحركها بسرعة.
قال:
ـ عشرة أعوام. الزمن والمد لا ينتظران البشر، سوف ينمو الطفل وبعدها ماذا؟
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ ما زال لديَّ وقت يا سيد «داندي».
لكن الرجل فضي الشعر قاطعه ووجه له إصبعًا وردية عملاقة:
ـ كان عندك وقت، الآن صار عندك موعد أخير، يجب أن تكون ذكيًّا، لا يمكننا التراخي معك. لقد سئمنا الانتظار، كل رجل يدعى «جاك» منا سئم الانتظار.
هز الرجل المدعو «جاك» رأسه باقتضاب وقال:
ـ هناك آثار أقتفيها.
ابتلع الرجل فضي الشعر قهوته السوداء وقال:
ـ حقًّا؟
ـ حقًّا وأكرر، أنا واثق من أن له علاقة بما لاقيناه من متاعب في سان فرانسسكو.
وجَّه مستر «داندي» الخطاب للرجل على المنصة، الذي كان يحكي للناس عن شراء أجهزة مستشفيات ابتاعوها في العام الماضي:
ـ لقد ناقشنا هذا مع السكرتير.
كان السكرتير يقول:
ـ ليس جهازًا واحدًا ولا اثنين، بل ثلاثة أجهزة لغسيل الكلى.

كان الرجال في الغرفة يصفقون لأنفسهم على كرمهم.
هز الرجل المدعو «جاك» رأسه وقال:
ـ لقد ذكرتُ هذا.
ـ وبعد؟
ـ لم يكن مهتمًّا، كان يريد نتائج فقط، يريد أن أنهي المهمة التي بدأتها.
قال الرجل فضي الشعر:
ـ كلنا نريد هذا، الصبي ما زال حيًّا. والوقت ليس حليفنا.
هز الرجال على المنضدة رؤوسهم موافقين برغم أنهم تظاهروا بأنهم لا يسمعون.
قال مستر «داندي»:
ـ كما أقول، الوقت يفلت.







الفصل السادس
أيام مدرسة «لا أحد أوينز»

المطر يهطل على المقبرة والعالم غارق في انعكاسات زائغة. جلس «بود» متواريًا عن الجميع الذين قد يرونه أحياء كانوا أو أمواتًا، تحت القوس الذي يفصل الممشى الفرعوني والبرية الشمالية الشرقية عن باقي المقبرة، وجلس يقرأ كتابه.

جاءت صرخة من الممر:

ـ اللعنااات! اللعنااات يا سيد، وسحقًا لك، عندما أمسك بك سوف... سوف أجعلك تندم على يوم وُلدت.

تنهد «بود» وخفض الكتاب وانحنى للأمام ليرى «ثاكري بورنجر» (١٧٢٠-١٧٤١، ابن المذكور أعلاه) يأتي طابعًا قدميه على الممر الزلق. كان «ثاكري» ولدًا كبيرًا، في الرابعة عشرة من عمره عندما مات، بعد حفل استقباله كصبي في ورشة نقَّاش كبير. أعطوه ثماني عملات نحاسية وقيل له ألا يرجع إلا ومعه نصف جالون من الدهان الأبيض المخطط بالأحمر لدهان عمود على باب حلاق([8]). قضى «ثاكري» خمس ساعات يجوب المدينة في صباح يوم من يناير، وهو يتلقى السخرية في كل مكان يذهب إليه، ويرسلونه للمتجر التالي. وعندما أدرك أنهم يسخرون منه أصيب بنزف مخ من الغضب، ومات في ذات الأسبوع وهو ينظر بتوحش للصبيان الآخرين ومستر «هوروبين» النقَّاش، والذي رأى ما هو أسوأ عندما كان صبيًّا، لذا لم يفهم سبب هذا الضجيج.

هكذا مات «ثاكري» غاضبًا وهو يقبض على نسخة من رواية «روبنسون كروزو» كانت كل ما يملكه، مع ستة بنسات فضية والثياب التي كان يلبسها، وقد دُفن ومعه الكتاب حسب وصية أمه. لم يحسِّن الموت مزاج «ثاكري بورنجر» وكان الآن يصرخ:

ـ أعرف أنك هنا في مكان ما! تعالَ وتلقَّ عقابك أيها اللص!

أغلق «بود» الكتاب وقال:

ـ أنا لست لصًّا يا «ثاكري»، أنا اقترضته فقط، أعدك بأن أعيده لك عندما أنتهي منه.

نظر «ثاكري» لأعلى ورأى «بود» خلف تمثال «أوزيريس» فقال له:

ـ قلت لك ألا تفعل!

تنهد «بود» وقال:

ـ لكن هناك كتبًا قليلة، على كل حال هنا جزء ممتع، لقد وجد آثار أقدام وهي ليست له، مما يدل على وجود شخص آخر في الجزيرة!

قال «ثاكري بورنجر» بعناد:

ـ هذا كتابي، أعِدْه لي!

كان «بود» مستعدًّا للجدل أو التفاوض لكنه رأى نظرة الإيذاء على وجه «ثاكري» فتراجع. هبط «بود» إلى جانب القوس ووثب آخِر درجات. مد يده

بالكتاب وقال:
ـ ها هو ذا.
أخذه «ثاكري» في فظاظة وانفجر بالسباب.
قال «بود»:
ـ يمكنني أن أقرأه لك، يمكنني هذا.
قال «ثاكري»:
ـ يمكنك أن تذهب وتَسلُق رأسك السمين.
ثم وجَّه لكمة لأذن «بود»، كانت مؤلمة برغم أن التعبير على وجه «ثاكري» أخبر «بود» أن الضربة آلمته أكثر منه.
وثب الصبي الأكبر سنًّا إلى الدرب، وراقبه «بود» يبتعد بينما أذنه تؤلمه وعينه تدغدغه. مشى تحت المطر عائدًا عبر الطريق المخادع المغطى باللبلاب. في نقطة ما انزلق وجرح ركبته ومزق سرواله الجينز.
كانت هناك أيكة صفصاف جوار الجدار، وكاد يصطدم بالآنسة «يوفيميا هورسفول» و«توم ساندز» اللذين كانا يخرجان معًا منذ أعوام طويلة. دُفن «توم» منذ زمن بعيد حتى صار شاهدُ قبره صخرة جردتها عوامل التعرية، وقد عاش ومات أثناء حرب المائة عام مع فرنسا، بينما الآنسة «يوفيميا» (١٨٦١-١٨٨٣، إنها تنام، نعم، لكنها تنام مع الملائكة) دُفنت في العصور الفكتورية بعد تمديد المقبرة، عندما كانت المقبرة مشروعًا اقتصاديًّا لفترة خمسين عامًا، وكان لديها قبر كامل خلف الباب الأسود في ممشى الصفصاف. لكنْ لم تكن هناك مشاكل بين الاثنين برغم التفاوت التاريخي بينهما.
قال «توم»:
ـ يجب أن تبطئ قليلًا يا «بود» الصغير، سوف تؤذي نفسك.
قالت الآنسة «يوفيميا»:
ـ لقد فعلتَ فعلًا يا «بود» العزيز.. لا شك أن أمك سوف تتكلم معك عن هذا. لا يبدو أن بوسعنا إصلاح هذه السراويل.
قال «بود»:
ـ أنا آسف.
أضاف «توم»:
ـ وراعيك كان يبحث عنك.
نظر «بود» للسماء الرمادية وقال:
ـ لكن الوقت ما زال نهارًا.
قال «توم»:
ـ لقد نهض مبكرًا جدًّا وقال لنا أن نخبرك أنه يريدك لو صادفناك.
هز «بود» رأسه.
قال «توم» باسمًا كأنه يهدئ أثر ضربة:
ـ هناك بندق ناضج في الدغل خلف قبر «جون» الصغير.
قال «بود»:

ـ شكرًا.
وجرى مرتبكًا تحت المطر هابطًا في المنحدر إلى أسفل المقبرة، وجرى حتى بلغ الكنيسة القديمة.
كان باب الكنيسة مفتوحًا و«سيلاس» الذي لا يحب المطر ولا بقايا ضوء النهار يقف بالداخل في الظلال.
قال «بود»:
ـ سمعت أنك تبحث عني.
قال «سيلاس»:
ـ نعم، يبدو أنك مزقت سراويلك.
قال «بود»:
ـ كنت أجري ودخلت في شبه مشاجرة مع «ثاكري بورنجر». أردت قراءة «روبنسون كروزو»، هو كتاب عن رجل على قارب، هذا شيء يمضي في البحر، والبحر يشبه بركة ماء عملاقة. هنا تحطم القارب عند جزيرة، الجزيرة مكان في البحر يمكن أن تقف فيه و...
قال «سيلاس»:
ـ مر عليك أحد عشر عامًا يا «بود»، أحد عشر عامًا وأنت معنا.
قال «بود»:
ـ صحيح، كما تقول.
نظر «سيلاس» للصبي، كان الصبي صغيرًا وكان شعره ذو لون الفئران قد اسودَّ نوعًا مع تقدم السن. داخل الكنيسة العتيقة كانت الظلال في كل مكان.
قال «سيلاس»:
ـ أعتقد أن علينا أن نتكلم عن المكان الذي جئت منه.
تنفس «بود» بعمق. قال:
ـ لا يجب أن يكون هذا الآن، لو لم تُرِد.
قالها ببساطة قدر الإمكان لكن قَلبه كان يثبُ في صدره. ساد الصمت فلا صوت سوى ضربات قطرات المطر والماء يسيل عبر المزاريب. صمتٌ امتد حتى حسب «بود» أنه سينهار.
قال «سيلاس»:
ـ تعرف أنك مختلف، وأنك حي، وأننا جلبناك هنا، هم جلبوك هنا، وأنا وافقت أن أكون راعيك.
لم يقل «بود» أي شيء.
واصل «سيلاس» الكلام وبصوت كالمخمل:
ـ كان لك أبوان وأخت كبرى، كلهم قُتلوا، أعتقد أنك كنت ستُقتل كذلك لولا الحظ وتدخل آل «أوينز».
قال «بود»:
ـ وأنت.
كان كثيرون عبر الأعوام قد وصفوا له تلك الليلة وبعضهم كان هناك. كانت ليلة كبرى في المقبرة.

قال «سيلاس»:
ـ في الخارج يوجد ذلك الرجل الذي قتل أسرتك، وأعتقد أنه ما زال يبحث عنك، وما زال ينتوي قتلك.
هز «بود» كتفيه وقال:
ـ إذن؟ هذا مجرد موت، أقصد أن أفضل أصدقائي موتى.
قال «سيلاس» في تردد:
ـ هم كذلك وقد انتهى شأنهم مع العالم، لكنك لست كذلك، أنت حي يا «بود»، لديك قدرات لانهائية، يمكنك عمل أي شيء والحلم بأي شيء. لو أنك غيرت العالم لتَغير العالم. متى متَّ انتهى كل شيء، لقد قمتَ بما قمتَ به وحلمت بما حلمت به وسطرت اسمك. ربما تدفن هنا أو تمشي، لكن الاحتمالات انتهت.
فكر «بود» في هذا. بدا حقيقيًّا تمامًا برغم أنه كان قادرًا على التفكير في استثناءات. مثلًا قد تبناه أبواه. لكن الموتى يختلفون عن الأحياء وقد عرف هذا، حتى تعاطفه كان مع الموتى.
سأل «سيلاس»:
ـ وماذا عنك؟
ـ ماذا عني؟
ـ أنت لست حيًّا لكنك تتنقل وتفعل أشياء.
قال «سيلاس»:
ـ أنا بدقة هو أنا، لا شيء أكثر. أنا لست حيًّا كما تقول، لكنْ لو انتهى أمري لكففتُ ببساطة عن الوجود. المخلوقات من نوعي تكون أو لا تكون، لو كنت تفهم قصدي.
ـ ليس بالضبط.
تنهد «سيلاس». توقف المطر وصارت السماء الغائمة شفقًا حقيقيًّا. فقال:
ـ «بود»، هناك أسباب مهمة لإبقائك سالمًا.
قال «بود»:
ـ الشخص الذي آذى أسرتي، الذي يريد قتلي، هل أنت متأكد من أنه ما زال هناك؟
كان يفكر في هذا منذ فترة وكان يعرف ما يريد.
ـ نعم، هو ما زال هناك.
قال «بود» ما لا يمكن قوله:
ـ إذن، أريد الذهاب للمدرسة.
كان «سيلاس» رابط الجأش. كان بوسع العالم أن ينتهي دون أن يحرك شعرة في رأسه. لكن الآن فتح فاه وتجعد حاجباه وقال فقط:
ـ ماذا؟
قال «بود»:
ـ تعلمت الكثير في هذه المقبرة، يمكنني أن أتلاشى أو أسكن الأماكن المقفرة، يمكن أن أفتح بوابة الغيلان وأعرف الأبراج. لكن هناك عالمًا فيه بحر

وجزر وحطام سفن وخنازير. أعني أنه مليء بأشياء لا أعرفها. المعلمون هنا يعلمونني الكثير لكني أريد المزيد لو كنت سأعيش هنا يومًا آخر.
بدا «سيلاس» غير منفعل وقال:
ـ غير وارد، هنا يمكننا أن نحميك لكنْ بالخارج يمكن أن يحدث أي شيء، كيف نحميك هناك؟
وافق «بود»:
ـ نعم، هذا من الأشياء المحتملة التي كنت تتكلم عنها.
وصمت بعض الوقت ثم قال:
ـ هناك من قتل أبي وأمي وأختي.
ـ نعم، هناك من فعل.
ـ رجل؟
ـ رجل.
قال «بود»:
ـ معنى هذا أنك تسأل السؤال الخطأ.
رفع «سيلاس» حاجبه وقال:
ـ كيف ذلك؟
قال «بود»:
ـ حسن، لو خرجت للعالم فلن يكون السؤال هو من يحميني منه.
ـ لا؟
ـ سيكون السؤال هو: من سيحميه مني؟
راحت الأغصان تخدش النوافذ كأنها تريد الدخول. نفض «سيلاس» ذرة غبار عن كمه بظفر حادٍّ كالنصل وقال:
ـ يجب أن نجد مَدرسة لك.
لم يلحظ أحد الصبيَّ في البداية. بل لم يلحظ أحد أنهم لم يلحظوه. جلس في منتصف المسافة لخلفية الصف. لم يُجب عن الأسئلة كثيرًا، فقط عندما يوجَّه له سؤال. وحتى وقتها كانت إجاباته قصيرة سهلة النسيان وبلا لون. كان يتلاشى في العقل وفي الذاكرة.
تساءل مستر «كيربي» في قاعة المدرسين:
ـ هل تعتقدين أن أسرته من المتدينين؟
كان يصحح بعض الأبحاث.
سألته مسز «مكينون»:
ـ أي أسرة؟
قال مستر «كيربي»:
ـ أسرة «أوينز» في الصف الثامن ب.
ـ الصبي الطويل ذو النمش؟
ـ لا أعتقد ذلك، طوله متوسط.
هزت مسز «مكينون» كتفيها وقالت:
ـ ماذا عنه؟

قال مستر «كيربي»:
ـ يكتب كل شيء، خطٌّ جميل يشبه الخط الذي كان يُدعى «كوبربليت».
ـ وهذا يجعله متدينًا لأن...؟
ـ يقول إنهم لا يملكون جهاز كمبيوتر.
ـ و؟
ـ ليس لديهم هاتف.
قالت مسز «مكينون»:
ـ لا أرى أن هذا يجعله متدينًا.
كانت قد اعتادت أشغال الكروشيه منذ مُنع التدخين في غرفة المدرسين، لذا كانت تخيط ملاءة طفل لـ«لا أحد» بالذات.
قال مستر «كيربي»:
ـ هو فتى ذكي، هناك أشياء لا يعرفها. وفي التاريخ يذكر تفاصيل ملفقة، أشياء ليست في الكتب.
ـ أشياء مثل ماذا؟
انتهى مستر «كيربي» من تصحيح أبحاث «بود» ووضعها على كومة الورق. بدت له المسألة غامضة وغير مهمة.
قال:
ـ أشياء.
ونسي الأمر. كما نسي أن يكتب اسم «بود» في الكشف. كما أن اسم «بود» لم يظهر قَطُّ في قاعدة بيانات المدرسة. كان الصبي تلميذًا نمطيًّا، يسهل أن تنساه ويسهل أن ينسى. وكان ينفق أكثر وقت فراغه في خلفية الصف حيث هناك مجلدات من الكتب، وفي مكتبة المدرسة، وهي غرفة مليئة بالكتب والأرائك. حيث كان يقرأ القصص في حماسة بينما يأكل بعضُ الصِّبية.
حتى باقي الصِّبية كانوا ينسون أمره. لكنْ عندما كان يجلس أمامهم كانوا يتذكرونه. لكنْ عندما يتوارى الصبي «أوينز» عن العيون كان يتوارى عن العقول كذلك. لم يكونوا يفكرون فيه. لم يحتاجوا لذلك. لو طلب أحدهم من كل الصِّبية في الصف الثامن ب أن يغمضوا عيونهم ويذكروا أسماء الـ٢٥ صبيًّا في الصف، فلن يكون الصبي «أوينز» في القائمة. كان وجوده شبه شبحي. لكن الأمور كانت تختلف عندما يكون هناك بالطبع.
كان «نِك فارتنج» في الثانية عشرة من عمره، لكنْ يمكن أن تظنه ستة عشر عامًا. هو صبي ضخم له ابتسامة ملتوية وخيال ضحل. كان عمليَّ التفكير بشكل ما وبلطجيًّا من وقت لآخر وسارقًا بارعًا، ولم يكن يبالي بأن يحبه الناس ما دام الصِّبية الآخرون ـ وكلهم أصغر سنًّا ـ يطيعون ما يقول. على كل حال كان لديه صديقة اسمها «مورين كيلنج» لكن الكل كانوا ينادونها «مو». كانت نحيلة لها بشرة شاحبة وشعر أشقر شاحب، وعينان زرقاوان مبتلتان وأنف فضولي حادٌّ. كان «نِك» يعشق سرقة المحلات، لكن «مو» كانت تخبره بما يسرقه. كان بوسع «نِك» أن يضرب ويؤذي ويخيف، لكن «مو» كانت تخبره بالناس الذين يجب أن يخيفهم. وكانوا فريقًا ممتازًا كما قالت له.

كانا يجلسان في ركن المكتبة يقسمان نصيبهما من مصاريف الجيب لتلاميذ الصف السابع. كان لديهما صِبية في التاسعة أو الحادية عشرة مدربون على تسليم مصروفهم كل أسبوع.

قالت «مو»:

ـ الولد «سنج» لم يجلب المال بعد، يجب أن تجده.

قال «نِك»:

ـ نعم، سوف يدفع.

ـ بم كنا ندلّله؟ «سي دي»؟

هز «نِك» رأسه.

قالت «مو»:

ـ فقط سنُعلمه خطأ أساليبه.

كانت تريد أن تبدو كأشرار التلفزيون.

قال «نِك»:

ـ سهل، نحن فريق ممتاز.

قالت «مو»:

ـ مثل «باتمان» و«روبِن».

قال شخص ممن كانوا يقرأون في مقعد جوار النافذة ولا يلاحظهم أحد:

ـ بل أنتما أقرب لدكتور «جيكل» ومستر «هايد».

نهض ومشى عبر الغرفة. كان «بول سنج» يجلس قرب عتبة نافذة عند غرف الثياب ويداه في جيبيه، وفي رأسه أفكار سوداء. أخرج يدًا من جيبه ونظر للعملات التي ملأت كفه. وهز رأسه وأطبق يده على العملات ثانية.

تساءل أحدهم:

ـ هل هذا ما ينتظره «نِك» و«مو»؟

وثب «بول» وبعثر المال على الأرض.

ساعده الصبي الآخر على جمع العملات وناولها له. كان صبيًّا أكبر سنًّا وقد خطر لـ«بول» أنه رآه من قبل لكنْ لم يكن واثقًا. قال «بول»:

ـ هل أنت معهما؟ «نِك» و«مو»؟

هز الصبي الآخر رأسه وقال:

ـ لا، أعتقد أنهما منفِّران للغاية.

ثم قال بعد تردد:

ـ في الواقع جئت كي أنصحك.

ـ ماذا؟

ـ لا تدفع لهما.

ـ سهلٌ عليك أن تقول هذا.

ـ لا، هما لا يبتزانني.

نظر الصبي لـ«بول» فأبعد «بول» عينيه خجلًا.

ـ هدداك أو ضرباك حتى قمت بسرقة سي دي لهما، ثم قالا إنه لو لم تدفع لهما مصروفك سيَشِيان بك. ماذا فعلا؟ صوراك وأنت تفعلها؟

هز «بول» رأسه.
قال الصبي:
ـ فقط قل «لا». لا تفعل.
ـ سوف يقتلانني، ويقولان إنه...
ـ قل لهما إنك تعتقد أن الشرطة وإدارة المدرسة ستهتم بتلميذين يجعلان الطلبة الأصغر يسرقون من أجلهما، ثم يبتزان الطلبة للحصول على مصروفهم. هذا أهم بكثير من طفل اضطر لسرقة سي دي. قل لهما إنهما لو لمساك ثانية لأبلغت الشرطة، قل إنك كتبت كل شيء ولو حدث لك شيء فإن رفاقك تلقائيًّا سيرسلون كل شيء لإدارة المدرسة والشرطة.
قال «بول»:
ـ لكنْ، لا أستطيع.
ـ إذن ستدفع لهما مصروفك طوال وجودك في المدرسة وستظل خائفًا منهما.
قال «بول» بعد تفكير:
ـ لمَ لا تبلغ أنت الشرطة على أي حال؟
ـ سأفعل هذا لو طلبت.
قال «بول»:
ـ سأجرب طريقتك أولًا.
وابتسم. لم تكن ابتسامة كبيرة لكنها كانت ابتسامة، أول ابتسامة منذ ثلاثة أسابيع.
شرح «بول سنج» لـ«نِك فارتنج» كيف ولماذا لن يدفع بعد ذلك، وابتعد بينما «نِك» يقف عاجزًا عن قول شيء، وهو يطبق ويفرد قبضتيه. في اليوم التالي ذهب خمسة صِبية آخرون في الحادية عشرة إلى «نِك» في الفناء، وقالوا إنهم يريدون استرداد أموالهم وإلا سيذهبون للشرطة، وهكذا صار «نِك فارتنج» شابًّا في غاية التعاسة.
قالت «مو»:
ـ هو السبب، هو بدأ، لو لم يكن هو لما فكروا في الأمر بأنفسهم. علينا أن نلقنه درسًا. وهكذا يحسنون التصرف جميعًا.
قال «نِك»:
ـ من؟
ـ ذلك الذي يقرأ طوال الوقت، الفتى في المكتبة، «بود أوينز»، هو.
هز «نِك» رأسه ثم قال:
ـ من هو؟
قالت «مو»:
ـ سوف أشير إليه.
اعتاد «بود» أن يتجاهله الناس وأن يبقى في الظلال. عندما تعتاد هذا فإنك تصير شديد الملاحظة للعيون عليك والنظرات في اتجاهك. ولو كنت لا تبقى في أذهان الناس كشخص حي آخر، فإن الشعور بأنهم يشيرون لك أو يتابعونك. هذه الأشياء تجذب الاهتمام.

لقد تبعاه خارج المدرسة وفي الطريق عند بائع الصحف، وعبر جسر السكة الحديد. أخذ وقته وتيقن من أن اللذين يتبعانه ـ وهما الصبي الضخم والفتاة الشقراء حادة الوجه ـ لم يفقدا أثره، ثم دخل إلى فناء الكنيسة الصغير في نهاية الطريق وكان هناك نموذج صغير لمقبرة خلف الكنيسة المحلية، وانتظر جوار قبر «رودريك بيرسون» وزوجته «أمابيلا» وزوجته الثانية «بورتونيا» (ناما كي يقوما ثانية).
قال صوت فتاة:
ـ أنت ذلك الصبي «بوب أوينز»، حسن، أنت في مشكلة حقيقية يا «بوب أوينز».
قال «بود» وهو ينظر لهما:
ـ هو «بود» في الواقع، بحرف الدال، وأنتما «جيكل» و«هايد».
قالت الفتاة:
ـ أنت المسؤول، أنت المسؤول عن الصف السابع.
قال «نِك فارتنج» وهو يبتسم بلا مرح:
ـ لذا سوف نلقنك درسًا.
قال «بود»:
ـ أحب الدروس، لو أنك تابعت دروسك أفضل لما احتجت إلى ابتزاز الصِّبية الأصغر لسلب المصروف.
تجعد حاجب «نك» ثم قال:
ـ أنت ميت يا «أوينز».
هز «بود» رأسه وأشار لمن حوله وقال:
ـ في الواقع أنا لست كذلك، لكنهم كذلك.
قالت «مو»:
ـ من هم؟
قال «بود»:
ـ الناس هنا، انظرا، جئت بكما هنا ليكون لكما الخيار.
قال «نِك»:
ـ أنت لم تأتِ بنا.
قال «بود»:
ـ أنتما هنا، أنا أردتكما هنا لذا جئت هنا وأنتما تبعتماني.
بدت العصبية على «مو»، ونظرت حولها، وسألت:
ـ هل لك أصدقاء هنا؟
قال «بود»:
ـ أخشى أنكما تضيعان مغزى الكلام. يجب عليكما أن تُوقفا هذا، كُفَّا عن التصرف كأنه لا قيمة للآخرين. كُفَّا عن إيذاء الناس.
ضحكت «مو» ضحكة حادة مكشِّرة عن أسنانها وقالت لـ«نِك»:
ـ بحق السماء، اضرِبه.
قال «بود»:

ـ أعطيتك فرصة.
طوَّح «نِك» قبضة شريرة على «بود» الذي لم يعد هناك. ضربتْ قبضة «نِك» جانب شاهدِ قبر.
قالت «مو»:
ـ أين ذهب؟
كان «نِك» يسب ويهز يده. نظرت حولها في المقبرة المظلمة مندهشة وقالت:
ـ كان هنا، أنت تعرف ذلك.
كان «نِك» ضحل الخيال، ولم يكن ليبدأ التفكير الآن. قال:
ـ ربما جرى.
قالت «مو»:
ـ لم يهرب، فقط لم يعد هنا.
كان لدى «مو» خيال وكانت الأفكار أفكارها. الشفق في مقبرة مفزعة. وشعرت بالشعر على مؤخر عنقها يوخزها. قالت «مو»:
ـ هناك شيء خطأ حقًّا.. حقًّا.
ثم قالت بنبرة أعلى مذعورة:
ـ يجب أن نخرج من هنا.
قال «نِك فارتنج»:
ـ سوف أجد هذا الصبي، سوف أضربه حتى تنفجر أحشاؤه.
شعرت «مو» بشيء غير مستقر في فم المعدة، بدا أن الظلال تتحرك حولها.
قالت «مو»:
ـ أنا خائفة يا «نِك».
الخوف مُعدٍ، يمكنك أن تُصاب به. يكفي أحدهم أن يقول إنه خائف حتى يصير الخوف حقيقيًّا. كانت «مو» خائفة والآن صار «نِك» كذلك.
لم يقل «نِك» أي شيء. فقط جرى ولحقت به «مو». وكانت أضواء الشارع تُضاء بينما هما يهرعان نحو العالم. فصار الشفق ليلًا، وصارت الظلال أماكن يمكن أن يقع فيها أي شيء. جريَا حتى بلغا بيت «نِك» ودخلا وأضاءا كل الأنوار وطلبت «مو» أمها وطلبت نصف باكية أن تأتي لتوصلها المسافة القصيرة حتى دارها لأنها لن تمشي في هذه الليلة. رآهما «بود» يركضان راضيًا.
قال شخص من خلفه، امرأة فارغة تلبس الأبيض:
ـ هذا كان رائعًا يا عزيزي، أولًا اختفاء ممتاز ثم الخوف.
قال «بود»:
ـ شكرًا، لم أُجرب الخوف مع الناس الأحياء قَطُّ، أعني أنني أعرف النظرية لكنْ.. حسن.
قالت برضا:
ـ إنها خدعة ناجحة، أنا «أمابيلا بيرسون».
ـ وأنا «لا أحد أوينز».
ـ الصبي الحي؟ من القبر الكبير على التل؟ حقًّا؟

ـ نعم.
لم يكن «بود» قد أدرك أن هناك من يعرفه خارج المقبرة الخاصة. كانت «أمابيلا» تدق جانب المقبرة وقالت:
ـ «رودي»؟ «بورتونيا»؟ تعالوا وانظروا من هنا.
كان هناك ثلاثة منهم، ثم بدأت «أمابيلا» التقديم وراح «بود» يصافح ويقول:
ـ تشرفت، بالتأكيد.
كان بوسعه التعامل مع الناس بتهذيب عبر ٩٠٠ عام من اختلاف أساليب الإتيكيت.
كانت «أمابيلا» تشرح:
ـ السيد «أوينز» هنا كان يخيف صبيين كانا يستحقان ذلك بالتأكيد.
قال «رودريك بيرسون»:
ـ عرض ممتاز، ولدان يفتقران للتهذيب، هه؟
قال «بود»:
ـ كانا بلطجيين، يسلبان الصِّبية مصروفهم. أشياء كهذه.
قالت «بورتونيا بيرسون»:
ـ التخويف بداية طيبة حتمًا، لكنْ ماذا كنت تعتزم لو لم ينجح هذا؟
كانت امرأة سمينة أكبر سنًّا من «أمابيلا».
قال «بود»:
ـ بصراحة لم أفكر...
لكن «أمابيلا» قاطعته:
ـ يجب أن أقترح أن المشي في الأحلام هو أفضل علاج ممكن. يمكنك أن تمشي في الأحلام، أليس كذلك؟
قال «بود»:
ـ لست واثقًا، مستر «بِنِيورث» علمني الطريقة لكنْ لم أُجرب فعلًا، هناك أشياء أعرفها نظريًّا فقط و...
قالت «بورتونيا بيرسون»:
ـ المشي في الأحلام ممتاز لكني أقترح كذلك بعض التزاور الطيب، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء القوم.
قالت «أمابيلا»:
ـ التزاور؟ «بورتونيا» يا عزيزتي، لا أعتقد أن...
ـ لا، أنت لا تعتقدين، لحسن الحظ أحدنا يفكر.
قال «بود» بلهفة:
ـ يجب أن أعود للبيت، سوف يقلقون عليَّ.
قال آل «بيرسون»:
ـ بالطبع.
وأيضًا:
ـ من اللطيف أن نقابلك.
وأيضًا:

ـ ليلة طيبة لك أيها السيد الشاب.
تساءل «دوريك بيرسون»:
ـ لو سمحت لي بالسؤال، لكنْ هل راعيك بخير؟
ـ «سيلاس»؟ هو بخير.
ـ أرسِل له تحياتنا، أخشى أن فِناء كنيسة صغيرًا كهذا لن يسمح لنا بمقابلة أحد حراس الشرف، لكنْ من الجيد أن نعرف أنهم هنا.
قال «بود» الذي لم تكن عنده فكرة عما يتكلم الرجل:
ـ ليكن، تصبح على خير، سوف أخبره.
التقط حقيبته الدراسية وعاد للبيت شاعرًا بالراحة في الظلال.
برغم ذهابه للمدرسة مع الأحياء فإن هذا لم يُعفِ «بود» من دروسه مع الموتى. كانت الليالي طويلة وأحيانًا كان «بود» يطلب العذر وينسحب للفراش منهكًا قبل منتصف الليل. إلا إنه ظل مستمرًّا، ولم يكن لدى مستر «بِنِيورث» ما يشكو منه في تلك الأيام. درس «بود» جاهدًا وكان يسأل أسئلة. الليلة سأل عن الأشباح وكان يزداد دقة أكثر فأكثر، مما أثار سخط مستر «بِنِيورث» الذي لم يهتم بهذه الأمور من قبل.
سأل:
ـ كيف أُحدث بقعة باردة في الهواء؟ لو حصلت على الخوف فكيف أرفعه إلى مستوى الرعب؟
تنهد مستر «بِنِيورث» وحاول جاهدًا أن يشرح. وقد جاءت الرابعة صباحًا قبل أن ينهيا الدرس.
كان «بود» مرهقًا في المدرسة في اليوم التالي. كان أول صف خاصًّا بالتاريخ، وكان «بود» يحب هذا الموضوع برغم أنه كان يقاوم رغبته في أن يعلن أن الأمور لم تحدث بهذا الشكل، وليس هذا ما قاله من عاشوا في ذلك العهد عمومًا. لكن «بود» هذا الصباح كان يقاوم كي يبقى متيقظًا.
كان يقوم بما في وسعه كي يركز على الدرس، لذا لم يكن يهتم بما يدور من حوله، وكان يفكر في الملك «شارل الأول» وأبويه ومستر ومسز «أوينز» والأسرة الأخرى، الأسرة التي لا يذكرها. هنا جاءت دَقة على الباب.
نظر الصف ومستر «كيربي» ليروا من القادم (كان صبيًّا من الصف السابع جاء يقترض كتابًا). إذ عادوا للدرس شعر «بود» بطعنة في ظهر يده. لم يصرخ. فقط نظر لها.
كان «نِك فارتنج» يكشر عن أسنانه نحوه وهو يحمل قلمًا حادَّ السن في قبضته، وهمس:
ـ أنا لست خائفًا منك.
نظر «بود» لظهر يده، كانت هناك قطرة دم حيث اخترق سن القلم يده.
هذا العصر مرت «مو كيلنج» بـ«بود» في الردهة، وكانت عيناها متسعتين حتى كان يرى البياض حولهما.
قالت:
ـ أنت غريب الأطوار، ليس لك أصدقاء.

قال «بود» في صدق:
ـ لم آتِ هنا من أجل الأصدقاء، جئت لأتعلم.
اهتز أنف «مو» وسألته:
ـ هل تعرف كم أن هذا غريب؟ لا أحد يأتي للمدرسة ليتعلم، أنت تأتي للمدرسة لأنك مرغم على هذا.
هز «بود» كتفيه.
قالت:
ـ أنا لست خائفة منك، مهما كانت حيلتك أمس فهي لم تفزعني.
قال «بود»:
ـ ليكن.
ومشى في الممر. تساءل إن كان ارتكب خطأ إذ تورط في هذا. لقد أخطأ الحكم بالتأكيد. لقد بدأ «مو» و«نِك» يتكلمان عنه، وربما الصف السابع كله. الصِّبية الآخرون ينظرون له ويشيرون إلى بعضهم عليه. لقد صار موجودًا ولم يعد غائبًا، وهذا أشعره بعدم الراحة.
في تلك الليلة تكلم مع راعيه وأخبره بالقصة كلها. لم يتوقع رد فعل «سيلاس».
قال «سيلاس»:
ـ لم أتوقع أنك ستكون... ستكون بهذا الغباء، كل ما قلته لك كي لا تلفت الانتباه. الآن صرت حديث المدرسة.
ـ ماذا كنت تريد أن أفعل؟
قال «سيلاس»:
ـ ليس ما فعلت، الزمن ليس كالأزمان القديمة. يمكنهم اقتفاء أثرك يا «بود»، يمكن أن يجدوك.
كان مظهر «سيلاس» الذي لا يتغير، كقشرة صلبة من الصخر فوق حمم ذائبة. كان «بود» يعرف كم هو غاضب لأنه يعرف «سيلاس». بدا أنه يقاوم غضبه ويحاول السيطرة عليه.
ابتلع «بود» ريقه.
قال ببساطة:
ـ ماذا أفعل؟
قال «سيلاس»:
ـ لا تعُد، موضوع المدرسة كان تجربة يجب أن نعترف أنها لم تكن موفقة.
لم يقل «بود» شيئًا. ثم قال:
ـ ليس موضوع التعلم فقط بل المواضيع الأخرى، هل تعرف كم هو ظريف أن توجد في غرفة يملأها الناس وكلهم يتنفسون.
قال «سيلاس»:
ـ لم أستمتع قَطُّ بهذه المواضيع، لا تعُد للمدرسة غدًا.
ـ أنا لن أهرب، ليس مِن «نِك» أو «مو» أو المدرسة، سوف أفارق هنا أولًا.
قال «سيلاس» وقد بدا كبقعة من الغضب القرمزي في الظلام:

ـ سوف تنفذ ما تؤمر به يا صبي.
قال «بود» وخداه يشتعلان نارًا:
ـ ماذا ستفعل لتبقيني هنا؟ تقتلني؟
واستدار ومشى في الممر الذي يقود لبوابة الخروج.
نادى «سيلاس» الصبي ليعود، ثم توقف ووقف في الظلام وحده.
في أغلب الأحوال كان من المستحيل أن تقرأ تعبيرات وجهه. الآن صار ككتاب بِلغة منسية وبحروف هجاء لا يمكن تخيلها. لف «سيلاس» الظلال حوله كأنها بِطانية، وحلق في اتجاه رحيل الصبي ولم يحاول أن يتبعه.
كان «نِك فارتنج» في فراشه ينام ويحلم بالقراصنة في البحر الأزرق المشمس. هنا حدثت أشياء خطأ. في لحظة كان قبطان سفينة قراصنة، سفينة سعيدة مليئة بالصِّبية المطيعين ذوي الأحد عشر عامًا، أما الفتيات فكن أكبر منه بعام أو عامين وكن فاتنات في ثياب القراصنة. فجأة صار وحده على ظهر السفينة ورأى سفينة عملاقة سوداء في حجم ناقلة الزيت لها أشرعة ممزقة سوداء وعَلَم عليه جمجمة، كانت تندفع نحوه عبر العاصفة. هنا على طريقة الأحلام كان يقف على ظهر السفينة الجديدة الأسود وكان هناك من ينظر له من علٍ.
قال الرجل الذي يقف فوقه:
ـ أنت لست خائفًا مني.
نظر «نِك» لأعلى. كان مذعورًا في الحلم، مذعورًا من هذا الرجل ذي الوجه الميت في ثياب قرصان، ويده على مقبض سيف قصير خاص بالبحارة.
سأل آسِرُه:
ـ هل تحسب نفسك قرصانًا يا «نِك»؟
وهنا بدا فيه شيء مألوفٌ لـ«نِك». قال:
ـ أنت الصبي «بوب أوينز».
قال آسِرُه:
ـ أنا... أنا «لا أحد»، وعليك أن تتغير. اقلب صفحة جديدة. أصلح من نفسك. وإلا ستصبح الأمور سيئة للغاية بالنسبة لك.
ـ سيئة كيف؟
ـ سيئة في رأسك.
قالها ملِك القراصنة الذي صار الصبيَّ الذي معه في الصف، وكانا في ردهة المدرسة لا على ظهر سفينة القراصنة. برغم أن العاصفة لم تنتهِ وكانت أرضية الردهة تتلوى وتهتز كأنها سفينة في البحر.
قال «نِك»:
ـ هذا حلم.
قال الصبي الآخر:
ـ بالتأكيد هو حلم، يجب أن أكون وحشًا كي أفعل هذا في العالم الحقيقي.
سأله «نِك»:
ـ ماذا يمكنك عمله لي في حلم؟

وابتسم وقال:
ـ لست خائفًا منك، ما زال أثر قلمي على ظهر يدك.
وأشار لظهر يد «بود» على العلامة السوداء التي تركها الجرافيت.
قال الصبي الآخر:
ـ تمنيت ألا يكون الأمر كذلك.
وميَّل رأسه لجنبٍ كأنه يصغي لشيء ما ثم قال:
ـ هم جياع.
سأل «نِك»:
ـ من هم؟
ـ الأشياء في القبو أو في قاع المركب، يعتمد الأمر على كون هذا مركبًا أم سفينة، أليس كذلك؟
شعر «نِك» بأنه موشك على الذعر وقال:
ـ ليست.. عناكب.. أليس كذلك؟
قال الصبي الآخر:
ـ ربما تكون، سوف تعرف، أليس كذلك؟
هز «نِك» رأسه وقال:
ـ لا أريد، أرجوك لا أريد.
قال الصبي الآخر:
ـ حسن، الأمر كله يتوقف عليك، أليس كذلك؟ غيِّر طريقتك أو زُرِ القبو.
ازدادت الضوضاء، صوت شجار متسارع. وبينما لم يَدرِ «نِك» كنه هذا الشيء فإنه كان متأكدًا من أن هذا هو أشنع شيء سوف يقابله أبدًا في حياته.
صحا من النوم صارخًا.
سمع «بود» الصراخ، صراخ رعب، فشعر برضا عن أن المهمة تمت بنجاح.
كان يقف على الإفريز خارج بيت «نِك فارتنج» ووجهه رطب من ضباب الليل الكثيف.
كان مرهقًا منهكًا، كان يشعر بأنه يتحكم بصعوبة في مشي الأحلام، وكان يدرك جيدًا أنه ليس في الحلم سواه و«نِك»، وأن كل ما أثار ذعر «نِك» كان ضوضاء. لكن «بود» كان راضيًا، الصبي الآخر سوف يتردد قبل أن يعذب الصِّبية.
والآن؟ وضع «بود» يديه في جيبيه وبدأ يمشي، غير متيقن إلى أين العزم. سوف يترك المدرسة كما ترك المقبرة. سوف يذهب لمكان ما حيث لا يعرفه أحد، ولسوف يجلس في المكتبة طوال اليوم ليقرأ الكتب ويصغي للناس يتنفسون.
تساءل إن كانت ما زالت هناك جزر مهجورة في العالم، مثل تلك التي تحطمت عندها سفينة «روبنسون كروزو»، يمكنه أن يذهب ويعيش في واحدة منها.
لم ينظر «بود» لأعلى، ولو فعل لرأى عينين زرقاوين دامعتين تراقبانه باهتمام من نافذة غرفة نوم. مشى في الزقاق شاعرًا بأنه أكثر راحة في الليل.
قال صوت فتاة:
ـ هل تنوي الهرب إذن؟

لم يقل «بود» أي شيء.
قال الصوت:
ـ هذا هو الفارق بين الموتى والأحياء، أليس كذلك؟
كانت «ليزا همبستوك» تتكلم. كان يعرف هذا برغم أن الساحرة لا تظهر في أي مكان.
ـ الموتى لا يُخيبون أملك، لقد عاشوا حياتهم وقاموا بما قاموا به، نحن لا نتغير. الأحياء يُخيبون أملك دومًا، أليس كذلك؟ تُقابل صبيًّا نبيلًا شجاعًا ويكبر، ثم يهرب.
قال «بود»:
ـ هذا ليس عادلًا.
ـ «لا أحد أوينز» الذي أعرفه ما كان ليهرب من المقبرة من دون أن يلفظ عبارات الوداع للذين اعتنوا به. سوف تحطم قلب مسز «أوينز».
لم يكن «بود» قد فكر في هذا. قال:
ـ تشاجرت مع «سيلاس».
ـ إذن؟
ـ يريد أن أعود للمقبرة، أن أهجر المدرسة، يعتقد أنها خطرة جدًّا.
ـ لمَ؟ بين مواهبك وسحري لن يلاحظك أحد.
ـ لقد تورطتُ، هناك صبيان يضايقان باقي الصِّبية، أردتُهما أن يتوقفا. جذبتُ الاهتمام لنفسي.
كان يمكنك أن ترى «ليزا» الآن، شكل ضبابي في الزقاق تمشي بنفس خطوات «بود».
قالت:
ـ هو هنا في مكان ما، يريد قتلك. هو قتل أسرتك، نحن في المقبرة نرغب في أن تظل حيًّا، نريدك أن تفاجئنا وتحبطنا وتبهرنا وتدهشنا. عُدْ للبيت يا «بود».
ـ أعتقد أنني قلت أشياء لـ«سيلاس»، لا بد أنه غاضب.
ـ لو لم يهتم بك لما استطعت أن تضايقه.
كان هذا كل ما قالته.
تجمعت أوراق الخريف تحت قدمَي «بود»، وغطى الضباب حوافَّ العالم.
لا يوجد شيء واضح وقاطع كما خطر له منذ دقائق قليلة مضت.
قال:
ـ قمتُ بالمشي في الحلم.
ـ كيف كان ذلك؟
قال:
ـ حسنًا، كان جيدًا.
ـ يجب أن تخبر مستر «بِنِيورث»، سوف يَسره هذا.
قال:
ـ نعم، معكِ حق، يجب أن أفعل.
بلغ نهاية الزقاق وبدلًا من أن يتجه لليمين كما خطط ليذهب للعالم استدار

لليسار؛ الطريق الذي سيقوده لطريق دونستان والمقبرة على التل.
قالت «ليزا همبستوك»:
ـ ماذا؟ ماذا تفعل؟
قال «بود»:
ـ عائد للبيت كما قلتِ لي.
كانت المتاجر مضاءة الآن، كان بوسعه أن يشم الشحم الساخن من المتجر عند ركن الشارع. والتمعت أحجار الرصيف.
قالت «ليزا همبستوك» وقد عادت مجرد صوت:
ـ اجرِ أو تلاشَ! هناك شيء خطأ.
كان على وشك أن يخبرها أنه لا يوجد خطأ وأنها حمقاء، عندما جاءت سيارة ضخمة لها ضوء يتألق على قمتها عبر الطريق وتوقفت أمامه.
خرج رجلان من السيارة وقال واحد من الرجلين:
ـ عفوًا أيها الشاب، شرطة، هل لي أن أسألك ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة؟
قال «بود»:
ـ لم أعرف أن هناك قانونًا ضد هذا.
فتح أكبر رجلَي الشرطة الباب الخلفي للسيارة وقال:
ـ هل هذا هو الشاب الذي رأيتِه؟
خرجت «مو كيلنج» من السيارة ونظرت لـ«بود» وابتسمت وقالت:
ـ إنه هو، كان في حديقتنا الخلفية يحطم أشياء، ثم جرى.
ونظرت لـ«بود» في عينيه وقالت:
ـ أعتقد أنه الذي كان يحطم النوافذ.
سأل الشرطي الأشقرُ الذي له شارب بلون الزنجبيل:
ـ ما اسمك؟
قال «بود»:
ـ «لا أحد»... أي!
لأن الشرطي ذا الشعر بلون الزنجبيل اعتصر أذن «بود» بين الإبهام والسبابة وضغط عليها بقوة.
قال الشرطي:
ـ لا تفعل هذا، فقط أجب عن السؤال بأدب، حسن؟
لم يقل «بود» شيئًا.
سأل رجل الشرطة:
ـ أين تعيش بالضبط؟
لم يقل «بود» شيئًا، حاول أن يتلاشى لكن التلاشي ـ حتى لو ساعدته ساحرة ـ يعتمد على أن يقل اهتمام الناس بك. وليس على قبضتين حكوميتين قويتين تمسكان به ساعتئذٍ.
قال «بود»:
ـ لا يمكنكما اعتقالي لأنني لم أخبركما بعنواني أو اسمي.

قال رجل الشرطة:
ـ لا أستطيع فعلًا، لكن بوسعي أن آخذك لقسم الشرطة إلى أن نعرف اسم أبيك أو راعيك أو الشخص البالغ المسؤول عنك، والذي يمكننا أن نطلق سراحك ليُعنى بك.
ووضع «بود» في مؤخرة السيارة حيث جلست «مو كيلنج» وعلى وجهها ابتسامة قِط فرغ من التهام كل طيور الكناريا.
قالت في هدوء:
ـ رأيتك من النافذة الأمامية، لذا طلبت الشرطة.
قال «بود»:
ـ لم أفعل أي شيء، لم أكن في حديقتكِ حتى، ولماذا جاءا بكِ كي تعثري عليَّ؟
قال رجل الشرطة الضخم:
ـ هدوء يا مَن في الخلف!
ساد الصمت حتى توقفت السيارة أمام بيت لا بد أنه بيت «مو». فتح رجل الشرطة الباب لها فخرجت. قال لها الشرطي الضخم:
ـ سوف نطلبكِ غدًا، أخبري أباكِ وأمكِ بما وجدناه.
قالت «مو» وهي تبتسم:
ـ شكرًا يا عمي «تام»، أنا فقط أؤدي واجبي.
انطلقت السيارة عبر المدينة في صمت. حاول «بود» جاهدًا أن يتلاشى بلا توفيق، وشعر بغثيان وتعاسة. في نفس الليلة تشاجر لأول مرة مع «سيلاس» وحاول الفرار من البيت، وفشل في الفرار. الآن فشل في العودة للبيت. لم يستطع أن يخبر الشرطة بمكان إقامته أو اسمه. سوف يمضي بقية حياته في زنزانة بقسم الشرطة أو سجن للصِّبية. هل لديهم سجن للصِّبية؟ لم يكن واثقًا.
سأل الرجلين في المقعد الأمامي:
ـ هل لديهم سجن للصِّبية؟
قال «تام» عم «مو»:
ـ بدأت تقلق الآن، أليس كذلك؟ لا ألومك، أنتم أيها الصِّبية تعيثون فسادًا. بعضكم يجب أن يُسجن، أؤكد لك.
لم يتأكد «بود» إن كان معنى هذا «نعم» أم «لا»، نظر خارج النافذة. كان هناك شيء ضخم يطير في الهواء فوق السيارة وإلى جانبها، شيء أكثر سوادًا وأضخم من أضخم طائر. شيء في حجم الإنسان يتوهج ويتطاير وهو يتحرك كأنه طيران خفاش.
قال الشرطي ذو الشعر بلون الزنجبيل:
ـ عندما نصل للقسم سيكون من مصلحتك أن تعطينا اسمك وتخبرنا بمن نتصل ليأتي لك، وسوف يمكنهم أن يأخذوك للبيت. هل ترى؟ تَعاون معنا لتكون ليلة سهلة مع عمل ورقي أقل للجميع، نحن صديقاك.
قال الشرطي الضخم لصاحبه:

ـ أنت تتساهل معه جدًّا، ليلة في الزنزانة ليست بهذه الصعوبة.
ثم نظر للخلف لـ«بود» وقال:
ـ ما لم تكن ليلة مزدحمة، واضطررنا لوضعك مع بعض السكارى. يمكن أن يكونوا قذرين.
فكر «بود»: إنه يكذب، وهما يقصدان هذا، لعبة الشرطي الطيب والشرطي الشرير...
هنا دارت سيارة الشرطة حول منعطف ثم كان هناك ارتطام! شيء كبير ركب على غطاء محرك السيارة ثم طار في الظلام. دوى صوت الفرامل إذ توقفت السيارة وراح الشرطي ذو الشعر بلون الزنجبيل يسب بصوت هامس.
قال:
ـ لقد خرج من الظلام! أنت رأيته.
قال الشرطي الضخم:
ـ لست واثقًا مما رأيت.
ـ لكنك ضربت شيئًا برغم هذا.
خرجا من السيارة وأضاءا الكشافات.
قال الشرطي ذو الشعر بلون الزنجبيل:
ـ كان يلبس ثيابًا سوداء، لا يمكن أن تراه.
صاح الشرطي الضخم:
ـ إنه هناك.
وجرى الرجلان بسرعة إلى الجسد على الأرض، ومعهما المصابيح. جرب «بود» مقابض باب المقعد الخلفي. لم تنفتح. كان هناك حاجز من القضبان المعدنية بين

مؤخرة السيارة ومقدمتها. حتى لو تلاشى فلسوف يظل محبوسًا في مؤخرة سيارة الشرطة.
انحنى للأمام قدر استطاعته وحاول أن يرى ما يحدث وما الذي على الطريق. كان الشرطي ذو الشعر بلون الزنجبيل جالسًا القرفصاء جوار جسد ينظر له. الآخر ـ الضخم ـ كان يقف فوقه وهو يصوب الضوء إلى وجهه. نظر «بود» لوجه الجسد على الأرض ثم راح يدق على النافذة بجنون وبيأس.
جاء الشرطي الضخم للسيارة، وقال في توتر:
ـ ماذا؟
قال «بود»:
ـ أنت صدمت أبي.
ـ أنت تمزح.
قال «بود»:
ـ يبدو مثله، هل لي أن أنظر بشكل أفضل؟
تراخت كتفا الشرطي الضخم وقال:
ـ أوه، «سيمون»، الصبي يقول إن هذا أبوه.
ـ لا بد أنك لعين تسخر مني.

ـ أعتقد أنه جادٌّ.
قالها الشرطي الضخم وفتح الباب فخرج «بود».
كان «سيلاس» منبطحًا على ظهره على الأرض حيث صدمته السيارة. كان ثابتًا كالموتى فشعر «بود» بوخز في عينيه.
قال:
ـ أبتاه؟
ثم قال:
ـ أنتما قتلتماه...
لم يكن يكذب كما قال لنفسه، ليس بالضبط.
قال «سيمون» الشرطي ذو الشارب بلون الزنجبيل:
ـ لقد طلبت سيارة إسعاف.
قال الآخر:
ـ كان حادثًا.
ركع «بود» جوار «سيلاس» واعتصر يديه الباردتين. لو كانا قد طلبا إسعافًا فالوقت غير كافٍ. قال لهما:
ـ لقد انتهت وظيفتكما إذن.
ـ كان حادثًا، أنت رأيت.
ـ لقد خطا أمامنا.
قال «بود»:
ـ ما رأيته هو أنكما قررتما تقديم خدمة لابنة أخيك وتخويف صبي تشاجرتْ معه في المدرسة، قبضتما عليَّ دون إذن لأنني تأخرت، ثم عندما جرى أبي للطريق محاولًا أن يوقفكما أو ليعرف ماذا يدور، قمتما بدهسه عمدًا.
كرر «سيمون»:
ـ كان هذا حادثًا.
قال «تام» عم «مو»:
ـ هل كنت تتشاجر مع «مو» في المدرسة؟
لكنه لم يبدُ مقنعًا.
قال «بود»:
ـ كلانا في الصف الثامن ب بمدرسة البلدة القديمة. وأنت قتلت أبي.
من بعيد سمع صوت صافرات الإسعاف، فقال الشرطي الضخم:
ـ «سيمون»، يجب أن نتكلم عن هذا.
مشيا للجهة الأخرى من السيارة، ليبقى «بود» واقفًا في الظلال مع «سيلاس» الذي سقط. كان بوسع «بود» سماع رجلَي الشرطة يتكلمان بحرارة.
قيل: «ابنة أخيك اللعينة»، وأيضًا: «لو كنت قد أبقيت عينيك على الطريق».
ودفع «سيمون» إصبعه في صدر «تام».
همس «بود»:
ـ هما لا ينظران، الآن.

ثم تلاشى.
كانت هناك دوامة من الظلام العميق وصار الجسد الراقد على الأرض واقفًا بجواره.
قال «سيلاس»:
ـ سوف آخذك للديار. لفَّ ذراعيك حول عنقي.
فعل «بود» ذلك وقد تمسك براعيه بقوة، وانطلقا في الليل متجهينِ نحو المقبرة.
قال «بود»:
ـ أنا آسف.
قال «سيلاس»:
ـ أنا كذلك آسف.
سأله «بود»:
ـ هل تألمت إذ تركت السيارة تدهمك بهذه الطريقة؟
قال «سيلاس»:
ـ نعم. يجب أن تشكر صديقتك الساحرة لأنها جاءت ووجدتني. وأخبرتني أنك في مشكلة وأي نوع من المتاعب كنت فيها.
هبطا في المقبرة ونظر «بود» لبيته كأنها أول مرة يراه فيها. قال:
ـ ما حدث الليلة كان غباء، أليس كذلك؟ أعني أنني جازفت بأشياء كثيرة.
ـ أشياء أكثر مما تعرف يا «لا أحد أوينز»، بلى.
قال «بود»:
ـ كنتَ محقًّا، لن أعود، لا لهذه المدرسة ولا بهذه الطريقة.
كان هذا أسوأ أسبوع في حياة «مورين كيلنج». لم يعد «نِك فارتنج» يكلمها، وعمها «تام» صرخ فيها بخصوص موضوع الصبي «أوينز»، ثم طلب منها ألا تذكر شيئًا عن هذه الليلة لأي أحد، فهذا قد يكلفه وظيفته وهو لا يريد أن يكون مكانها لو حدث هذا. كان أبواها غاضبين منها. شعرت أن العالم قد خانها. حتى صِبية الصف السابع لم يعودوا يخافونها. الأمر كله متعفن. أرادت أن تقابل الصبي «أوينز» الذي تلومه على كل شيء حدث لها حتى اللحظة، وأن تراه يتلوى من الألم البائس. لو كان يعتقد أن القبض عليه أمر سيئ... وهنا وضعت خطط انتقام متقنة في ذهنها، معقدة، شيطانية. هذه الخطط كانت الشيء الوحيد الذي جعلها تشعر بأنها أفضل. برغم أنها لم تساعدها حقًّا.
لو كانت هناك مهمة تُرعب «مو» فعلًا فقد كانت تنظيف مختبر العلوم. أن تطفئ مواقد «بنزن»، وتتأكد من أن كل أنابيب الاختبار وأطباق «بتري» وورق الترشيح غير المستعمل قد عاد لمكانه. كان عليها أن تفعل ذلك طِبق نظام دوري دقيق كل شهرين، لكن الغريب أنه في أسوأ أسبوع من حياتها سيكون عليها أن تعمل في مختبر العلوم. وحدها.
على الأقل كانت مسز «هوكِنز» التي تدرِّس العلوم العامة هناك، تجمع الأوراق والأشياء في نهاية اليوم. وجودها هناك، وجود أي شخص هناك، كان مريحًا.

قالت مسز «هوكِنز»:
ـ أنتِ تقومين بعمل طيب يا «مورين».
كان هناك ثعبان أبيض في سائل حافظ يحدق فيهما ولا يرى.
قالت «مو»:
ـ شكرًا.
سألت مسز «هوكِنز»:
ـ أليس من المفروض أن تكونا اثنين؟
قالت «مو»:
ـ كان عليَّ أن أقوم بهذا مع الصبي «أوينز». لكنه لم يأتِ للمدرسة منذ أيام.
قطبت المعلمة جبينها:
ـ من كان هو؟
سألت شاردة الذهن:
ـ ليس موجودًا في قائمتي.
ـ «بوب أوينز»، شعر بني طويل نوعًا، لا يتكلم كثيرًا، هو الذي عرف أسماء كل عظام الهيكل العظمي في ذلك اللغز. هل تذكرين؟
قالت مسز «هوكِنز»:
ـ لا، ليس بالضبط.
ـ يجب أن تتذكري. لا أحد يتذكره حتى مستر «كيربي».
أبعدت مسز «هوكِنز» باقي الأوراق لتضعها في حقيبتها وقالت:
ـ حسن، أنا مقدِّرة أنكِ تفعلين هذا وحدكِ يا عزيزتي، لا تنسَي أن تمسحي سطوح العمل قبل أن تذهبي.
ثم انصرفت وأغلقت الباب وراءها.
كانت مختبرات العلوم قديمة. كانت هناك مناضد طويلة خشبية بها صنابير وأحواض ووصلات غاز. وكانت هناك أرفف سوداء، فوقها مجموعة أشياء في زجاجات كبيرة. كانت الأشياء الطافية ميتة، ميتة منذ زمن سحيق. كان هناك هيكل عظمي بشري مصفر في ركن الحجرة. لم تعرف «مو» إن كان حقيقيًّا أم لا، لكنه كان مخيفًا فعلًا.
كل ضوضاء تُحدثها كان لها صدى في هذه الغرفة الطويلة، أضاءت كل الأضواء وحتى الضوء على لوح الكتابة لتجعل المكان أقل تخويفًا. بدأت تشعر ببرودة الغرفة، وتمنت لو استطاعت تشغيل التدفئة. مشت لأحد مشعَّات الحرارة المعدنية وتحسسته، كانت سخونته حارقة. برغم هذا كانت ترتجف. كانت الغرفة غير مريحة فارغة، شعرت «مو» كأنها ليست وحيدة وكأن هناك من يراقبها.
بالطبع أنا مراقَبة، هكذا فكرت، هناك مائة شيء ميت في أوعية زجاجية تراقبني وهذا من دون ذكر الهيكل العظمي. نظرت للأرفف.
هنا بدأت الأشياء الميتة في الآنية تتحرك. ثعبان له عينان عمياوان بلون اللبن فكَّ التفافه حول نفسه في البرطمان المليء بالكحول. تلوَّى مخلوق بحري لا وجه له ومليء بالأشواك في بيته السائل. وكشرت قطة ميتة منذ عقود عن

أسنانها وخمشت الزجاج. أغمضت «مو» عينيها. هذا لا يحدث. هكذا قالت لنفسها. أنا أتخيل.
وبصوت عالٍ صاحت:
ـ أنا لستُ خائفة.
قال أحدهم واقفًا في ظلال الباب الخلفي:
ـ هذا جيد، من السيئ حقًّا أن تخافي.
قالت:
ـ ما من أحد من المعلمين أنفسهم يذكرك.
قال الصبي المسؤول عن كل تعاستها:
ـ لكنكِ تذكرينني.
التقطت مخبارًا زجاجيًّا وقذفته عليه، لكنه أصاب موضعًا بعيدًا، وتهشم إذ اصطدم بالجدار.
سأل «بود» وكأن شيئًا لم يكن:
ـ كيف حال «نِك»؟
قالت:
ـ أنت تعرف حاله، لا يريد أن يكلمني ثانية. فقط يخرس في الصف ويذهب للبيت ويعمل الواجبات، ولربما يبني نماذج للسكك الحديدية.
قال:
ـ جميل.
قالت:
ـ وأنت، أنت لم تكن في المدرسة منذ أسبوع. أنت في مشكلة حقيقية يا «بوب أوينز». لقد جاء رجال الشرطة أمس وكانوا يبحثون عنك.
قال «بود»:
ـ هذا يذكِّرني، كيف حال عمك «تام»؟
لم تقل «مو» أي شيء.
قال «بود»:
ـ بشكل ما أنت ربحتِ، سوف أترك المدرسة. وبشكل ما لم تربحي، هل طاردتكِ الأشباح من قبل يا «مورين كيلنج»؟ هل نظرتِ من قبل في المرآة متسائلة إن كانت العينان اللتان تُبادلانك النظرات هما عيناكِ؟ هل جلستِ في غرفة مقفلة وأدركتِ أنكِ لستِ وحيدة؟ هذا ليس شعورًا مبهجًا.
ارتجف صوتها وقالت:
ـ أنت ستطاردني كشبح؟
لم يقل «بود» أي شيء. فقط حملق فيها، وفي ركن الغرفة البعيد تهشم شيء. حقيبتها انزلقت عن المقعد على الأرض، وعندما نظرت وجدت أنها وحيدة في الغرفة. أو على الأقل لم يكن هناك أحد يمكن أن تراه هناك معها.
سيكون طريقها للبيت طويلًا جدًّا ومظلمًا جدًّا.
وقف الصبي وراعيه عند قمة التل ينظران لأضواء المدينة.
سأل الصبي:

ـ هل ما زال هذا يؤلم؟
قال الحارس:
ـ قليلًا، لكنني ألتئم بسرعة. سوف أرجع أفضل مما كنت.
ـ هل كان من الممكن أن يقتلك هذا؟ أن تخطو أمام السيارة؟
هز الراعي رأسه وقال:
ـ هناك طرق لقتل الناس على شاكلتي لكنها لا تتضمن السيارات. أنا مسن وصلب جدًّا.
قال «بود»:
ـ أنا كنت مخطئًا، أليس كذلك؟ كانت الفكرة كلها هي أن أفعل ذلك دون أن يلاحظني أحد. ثم كان عليَّ أن أتورط مع الصِّبية في المدرسة، والشيء التالي كما تعرف هو قصة الشرطة، وكل هذا لأنني كنت أنانيًّا.
رفع «سيلاس» حاجبًا وقال:
ـ لم تكن أنانيًّا، يجب أن تكون وسطَ مَن هم من نوعك، هذا مفهوم. لكن الأمور شاقة هناك في عالم الأحياء، ولا يمكن أن نحميك هناك بهذه البساطة. أردتُ أن أبقيك في أمان تام، لكنْ لا يوجد مكان آمن تمامًا لمن هم من نوعك، ولن تَبلغه حتى تنتهي كل مغامراتك ولا يعود لأيٍّ منها أهمية.
فرك «بود» يده على شاهدِ قبر «توماس ر ستاوت» (١٨١٧-١٨٥١، يتحسر عليه كل من عرفوه). شعر بالطحلب يتجمع تحت أنامله.
قال «بود»:
ـ هو ما زال هناك، الرجل الذي قتل أسرتي الأولى. ما زلت أريد أن أتعلم عن الناس. هل ستمنعني من مغادرة المقبرة؟
ـ لا، هذه كانت غلطة وهي شيء تَعلمنا منه جميعًا.
ـ ثم ماذا؟
ـ يجب أن نبذل جهدنا لنشبع اهتمامك بالقصص والكتب والعالم. هناك مكتبات، هناك طرق أخرى، وهناك مواقف عديدة يمكن أن تجد فيها أشخاصًا أحياء حولك. مثل المسرح والسينما.
ـ ما هذا؟ هل هو مثل كرة القدم؟ كنت أستمتع بمراقبة لعب كرة القدم في المدرسة.
قال «سيلاس»:
ـ كرة قدم؟ هممم.. هذا مبكر في النهار نوعًا بالنسبة لي. لكن مس «لوبسكو» يمكن أن تأخذك لترى مباراة كرة قدم في المرة المقبلة التي تأتي فيها هنا.
قال «بود»:
ـ أتمنى هذا.
بدآ المشي لأسفل التل. قال «سيلاس»:
ـ لقد تركنا الكثير من الطرق والآثار في الأسابيع الماضية. وهم ما زالوا يبحثون عنك كما تعلم.
قال «بود»:

ـ أنت قلت هذا من قبل، كيف تعرف؟ ومن هم أصلًا؟ وماذا يريدون؟
لكن «سيلاس» هز رأسه فقط، ولم يتكلم أكثر. وكان على «بود» أن يقنع بهذا في الوقت الحالي.

الفصل السابع
كل واحد «جاك»

كان «سيلاس» مشغولًا طوال الأشهر الماضية. كان قد بدأ يترك المقبرة أيامًا طويلة ولربما أسابيع في كل مرة. جاءت مس «لوبسكو» لمدة ثلاثة أسابيع بدلًا منه، وكان «بود» يقاسمها الوجبات مضطرًّا في شقتها الصغيرة في البلدة القديمة. بل إنها أخذته لمباراة كرة قدم كما وعدت «سيلاس» بأنها ستفعل. لكنها عادت للمكان الذي تطلق عليه «البلد القديم» بعدما قرصت خدَّي «بود»، وأطلقت عليه «نيميني» وهو اسم صار مرتبطًا بالتدليل له.

الآن ذهب «سيلاس» وكذا مس «لوبسكو». وكان الزوجان «أوينز» يجلسان في مقبرة «جوزياه ورثنجتون» يتكلمان مع «جوزياه ورثنجتون». لم يكن أحدهم سعيدًا.

قال «جوزياه ورثنجتون»:

ـ هل تعنيان أنه لم يقل لأيٍّ منكما إلى أين هو ذاهب، ولا كيف تتم العناية بالطفل؟

عندما هز الزوجان «أوينز» رأسيهما بالنفي قال «جوزياه ورثنجتون»:

ـ حسن.. أين هو؟

لم يستطع الزوجان «أوينز» أن يردا.

قال السيد «أوينز»:

ـ لم يذهب قَطُّ لفترات طويلة كهذه، وقد وعد عندما جاءنا الصبي أنه سيكون هنا أو شخص آخر ليُعنى بالصبي ويساعدنا على العناية به. لقد وعد!

قالت مسز «أوينز»:

ـ أنا قلقة من أن شيئًا حدث له.

بدا أنها موشكة على البكاء ثم تحولت دموعها لغضب وقالت:

ـ هذا سيئ له، ألا توجد طريقة نجده بها أو نستدعيه؟

قال «جوزياه ورثنجتون»:

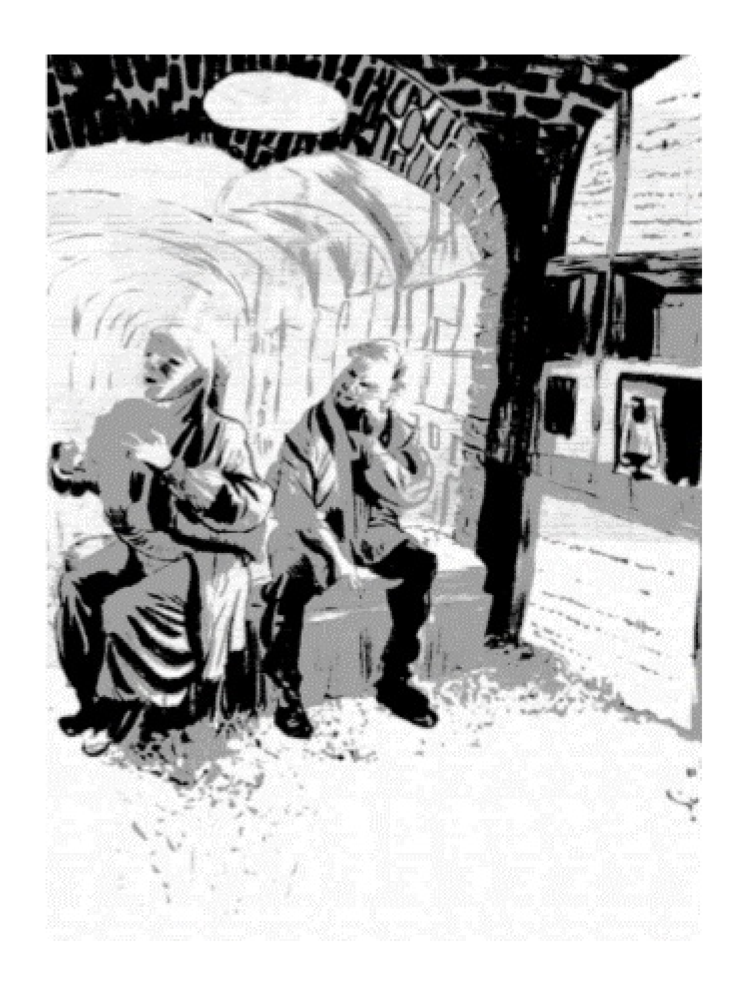
ـ ليس على قدر علمي، لكنْ أؤمن أنه ترك مالًا في السرداب لشراء طعام للصبي.

قالت مسز «أوينز»:

ـ مال! ما جدوى المال؟

قال مستر «أوينز»:

ـ «بود» سيحتاج إلى المال لو كان عليه أن يخرج ليأتي بالطعام.







لكن مسز «أوينز» استدارت له:

ـ أنتما سيئان مثل بعضكما!

وغادرت قبر «جوزياه ورثنجتون» ثم راحت تبحث عن ابنها، الذي وجدته كما توقعت عند قمة التل ينظر من علٍ للمدينة.

قالت مسز «أوينز»:

ـ سأدفع قرشًا مقابل معرفة ما تفكر فيه.

قال «بود»:

ـ ليس معكِ قرش.

كان الآن في الرابعة عشرة من عمره وأطول من أمه.

قالت مسز «أوينز»:

ـ عندي اثنان في التابوت، ربما اخضرَّ لوناهما نوعًا، لكنهما ما زالا موجودين.

قال «بود»:

ـ كنت أفكر في العالم، كيف نعرف أن الشخص الذي قتل أبويَّ ما زال حيًّا؟ وكيف نعرف أنه ما زال هناك؟

قالت مسز «أوينز»:

ـ «سيلاس» يقول ذلك.

ـ لكن «سيلاس» لا يقول لنا أي شيء آخر.

قالت مسز «أوينز»:

ـ لا يريد سوى الأفضل لك، تعرف هذا.

قال «بود» بلامبالاة:

ـ شكرًا، إذن أين هو؟
لم تَرُد مسز «أوينز».
قال «بود»:
ـ أنتِ رأيتِ الرجل الذي قتل أسرتي، أليس كذلك؟ يوم تبنيتِني.
هزت مسز «أوينز» رأسها.
ـ كيف كان يبدو؟
ـ في الواقع، كنت معظم الوقت أنظر لكَ أنتَ. دعني أرى، كان شعره أسود، أسود جدًّا. وكنت خائفة منه، كان له وجه حادٌّ، جائع وغاضب في الوقت ذاته، «سيلاس» تأكد من رحيله.
قال «بود» غاضبًا:
ـ لماذا لم يقتله «سيلاس»؟ كان عليه أن يقتله وقتها.
لمست مسز «أوينز» ظهر يد «بود» بأصابعها الباردة وقالت:
ـ هو ليس وحشًا يا «بود».
ـ لو قتله «سيلاس» وقتها لصرتُ حرًّا الآن ولاستطعت الذهاب إلى حيث أريد.
قالت مسز «أوينز»:
ـ «سيلاس» يعرف أفضل منك في هذا كله، أكثر من أي واحد فينا، «سيلاس» يعرف أمور الموت والحياة. الأمر ليس سهلًا.
قال «بود»:
ـ ما اسمه؟ الرجل الذي قتلهما.
ـ لم يقل اسمه. ليس وقتها.
ميَّل «بود» رأسه على جنبٍ وحملق فيها بعينين رماديتين كالسحب المطيرة، وقال:
ـ لكنكِ تعرفين. أليس كذلك؟
قالت مسز «أوينز»:
ـ ليس بوسعك عمل شيء يا «بود».
ـ بل هناك شيء، يمكنني التعلم، يمكن أن أتعلم أي شيء أريد معرفته. لقد تعلمت كل شيء عن بوابات الغيلان، تعلمت مشي النوم، علمتني مس «لوبسكو» أن أراقب النجوم، «سيلاس» علمني الصمت، يمكنني أن أمسَّ الناس كالأشباح، يمكنني أن أتلاشى، أعرف كل بوصة في هذه المقبرة.
مدت مسز «أوينز» يدها ولمست كتف ابنها وقالت:
ـ يومًا ما.
ثم صمتت مترددة. يومًا ما لن تقدر على لمسه. يومًا ما سوف يفارقهم. يومًا ما. قالت عندئذ:
ـ قال لي «سيلاس» إن الرجل الذي قتل أسرتك اسمه «جاك».
لم يقل «بود» أي شيء. ثم هز رأسه وسأل:
ـ أماه؟
ـ ماذا يا بُني؟
ـ متى سيعود «سيلاس» إذن؟

كانت ريح الليل باردة وكانت آتية من الشمال.
لم تعد مسز «أوينز» غاضبة. كانت خائفة على ابنها. وقالت:
ـ ليتنني أعرف يا بُني العزيز.. ليتنني أعرف.
كانت «سكارليت أمبر بيركنز» في الخامسة عشرة. وكانت جالسة في هذه اللحظة في الطابق العلوي من حافلة المسنين، وقد صارت كتلة من الغضب والمقت. كانت تكره أبويها لأنهما انفصلا، كانت تمقت أمها لأنها هاجرت من اسكتلندا، كانت تمقت أباها لأنه لم يُبدِ اهتمامًا برحيلها. كانت تمقت البلدة كلها لأنها مختلفة في كل شيء. لا شيء يشبه جلاسجو حيث ترعرعَتْ. وكانت تمقتها لأنها في كل لحظة تدخل في منعطف فترى شيئًا، من ثم يصير العالم كله مألوفًا بشكل مؤلم شنيع.
هذا الصباح فقدَتْ أعصابها مع أمها وقالت:
ـ على الأقل في جلاسجو كان لي أصحاب ولن أراهم ثانية!
كانت تقول هذا ولم تكن بالضبط تصرخ كما أنها لم تكن بالضبط تبكي.
كانت كل إجابة أمها هي:
ـ على الأقل أنتِ في مكان كنتِ فيه من قبل، لقد عشنا هنا عندما كنتِ صغيرة.
قالت «سكارليت»:
ـ لا أذكر، ولا يبدو لي أنني أعرف أي شخص. هل تريدين أن أجد أصحابي القدامى منذ كنتُ في الخامسة؟ هل هذا ما تريدين؟
قالت أمها:
ـ أنا لا أمنعكِ.
قضت «سكارليت» طوال اليوم في المدرسة غاضبة، وهي غاضبة الآن. كانت تمقت مدرستها وتمقت العالم. وفي هذه اللحظة بالذات كانت تمقت خدمة الحافلات في المدينة.
في كل يوم إذ تنتهي المدرسة يأخذها الأتوبيس ٩٧ لمركز المدينة من بوابة المدرسة إلى نهاية الشارع حيث استأجرت أمها شقة صغيرة. كانت قد انتظرت في محطة الحافلات في هذا اليوم العاصف من شهر أبريل لمدة نصف ساعة فلم تظهر أي حافلة من طراز ٩٧، لذا عندما رأت الحافلة ١٢١ ووجهتُها مركز المدينة صعدت لها. لكنْ بينما كانت حافلتها تستدير لليمين دومًا، فقد استدارت هذه لليسار للبلدة القديمة، مارة بالحدائق العامة في ميدان البلدة القديمة، مارة بتمثال «جوزياه ورثنجتون» ثم تسلقت هضبة متلوية مليئة ببيوت شامخة، بينما غطس قلب «سكارليت» في قدميها وتحول غضبها إلى تعاسة.
مشت لأسفل وتقدمت للأمام ترمق اللافتة التي تقول لها ألا تتكلم مع السائق إذ تتحرك العربة، وقالت:
ـ سامِحني، أردت أن أذهب لطريق أكاشيا.
كان السائق امرأة ضخمة بشرتُها أكثر سوادًا من «سكارليت» وقالت:
ـ كان عليكِ ركوب رقم ٩٧ إذن.

ـ لكن هذه تقصد مركز البلدة.
ـ أحيانًا، لكن حتى عندما تَصِلين هناك تحتاجين للعودة.
وتنهدت المرأة وأردفت:
ـ أفضل شيء تفعلينه هو أن تنزلي هنا وتهبطي التل عائدة، هناك محطة حافلات أمام قاعة المدينة، من هناك يمكنك أن تركبي رقم ٤ أو ٥٨ وكلتاهما سوف تأخذكِ إلى طريق أكاشيا. اتجهي للمركز الرياضي ثم امشي من هناك، هل فهمتِ هذا كله؟
ـ رقم ٤ أو ٥٨.
ـ سوف أُنزلكِ هناك.
كان موقفًا على جانب التل بعد بوابتين حديديتين مقبضتين لا توحيان بالراحة.
وقفت «سكارليت» عند الباب المفتوح حتى قالت السائقة:
ـ هلم، ثِبي.
هبطت على الرصيف فأطلقت الحافلة الدخان وابتعدت مزمجرة. راحت الريح تهز الأشجار على الجانب الآخر من الجدار.
بدأت «سكارليت» تهبط التل. لهذا كانت تحتاج لهاتف محمول كما فكرت. لو تأخرت خمس دقائق فلسوف تصاب أمها بالهلع، وبرغم هذا فلن تشتري هاتفًا محمولًا خاصًّا بها. نعم، سيكون عليها تحمُّل مباراة أخرى من مباريات صراخ أمها. لن تكون الأولى ولا الأخيرة. الآن صارت عند البوابات المفتوحة. نظرت للداخل و...
قالت بصوت عالٍ:
ـ هذا غريب!
هناك تعبير، «ديجا فو»، ومعناه أن تشعر بأنك كنت هنا من قبل، أو أنك حلمت بهذا أو جربته في ذهنك. كانت «سكارليت» قد جربته. معرفة أن المعلمة ستحكي لهم أنها كانت في انفرنس يوم العطلة، أو أن هناك من أسقط ملعقته بذات الطريقة من قبل. هنا الأمر يختلف، لم يكن هذا شعورًا بأنها كانت هنا من قبل، بل هذا هو الشيء الحقيقي نفسه.
مشت «سكارليت» عبر البوابات المفتوحة إلى المقبرة. طار جوارها غراب إذ دخلت واستقر بين أغصان شجرة صنوبرية وراح يراقبها. فكرت: عند هذا الركن توجد كنيسة أمامها مقعد طويل. دارت حول المنحنى لترى كنيسة أصغر بكثير من التي تتذكرها، بناية قوطية الطراز من الحجر الرمادي لها برج بارز. أمامها كان مقعد خشبي أثرت فيه عوامل الطقس. مشت وجلست على المقعد، وطوحت برِجليها كما كانت تفعل وهي طفلة صغيرة.
قال صوت مِن ورائها:
ـ مرحبًا، إممم، مرحبًا، أعرف أن هذه وقاحة مني، لكنْ هل لكِ أن تساعديني في الإمساك بهذا؟ أحتاج ليدين أخريين، لو لم يكن في هذا مشقة لكِ.
نظرت «سكارليت» حولها فرأت رجلًا يلبس معطفًا بلون التفاح، ويجلس القرفصاء أمام شاهدِ قبر. كان يمسك بلفافة ورقية كبيرة تطير في الريح. أسرعت نحوه.

قال الرجل:
ـ أمسكي بها هنا، يد هنا ويد هنا، هكذا، عبء شاق، أعرف هذا، أنا ممنون لكِ بشكل مخجل.
كانت أمامه علبة بسكويت، ومن العلبة سحب ما بدا كأنه قلم شمع في حجم شمعة صغيرة. بدأ يفركه أمامًا وخلفًا فوق الصخر بحركات سلسة مدربة.
قال بسرور:
ـ هلم بنا، وها هي ذي، أوبس! هناك جزء متذبذب هنا عند القاع. أعتقد أنه يجب أن يكون لبلابًا. كان الفكتوريون يحبون وضع اللبلاب على الأشياء. هذا مليء بالرموز كما تعلمين. وها نحن أولاء، يمكنكِ أن تتركيه الآن.
ووقف ومرر يدًا في شعره الرمادي وقال:
ـ آه، كان عليَّ أن أقف، دبابيس وإبر في قدمي الآن. ماذا تعتقدين؟
كان شاهدُ القبر مكسوًّا بالطحلب الأخضر والأصفر لذا طُمس حتى صار غير قابل للقراءة، وبدأ يتضح بالمسح: «ماجيلا جودسبيد»، أرملة هذه الأبرشية (١٧٩١-١٨٧٠، افتقدها الجميع لكن ذكراها باقية).
قرأت «سكارليت» الكلمات بصوت عالٍ.
كان شعر الرجل يخفُّ وقد ابتسم في تردد وحملق فيها عبر العوينات المستديرة الصغيرة، مما جعله يبدو كبومة ودود نوعًا.
هوت قطرة مطر على الورق فلفَّه الرجل وتناول علبة أقلام الشمع. هوى المزيدُ من قطرات المطر، فالتقطت «سكارليت» ألبوم الصور من الرجل الذي أشار له، ووضعته جوار شاهدِ قبر قريب، ثم تتبَّعته إلى رواق الكنيسة القريب حيث لن يَبلغهما المطر.
قال الرجل:
ـ أشكركِ كثيرًا، لا أعتقد أن السماء ستمطر كثيرًا، نشرة الطقس لهذا العصر قالت إنه مشمس غالبًا.
كأنما تَرُد عليه، هبَّت الريح الباردة وانهمر المطر بشدة.
قال الرجل الذي يفرك شواهد القبور لـ«سكارليت»:
ـ أعرف فيما تفكرين.
قالت:
ـ حقًّا؟
كانت تفكر: أمي سوف تفتكُ بي.
ـ أنتِ تفكرين ما إذا كانت هذه كنيسة كبيرة أم صغيرة.
والإجابة هي ـ على قدر علمي ـ أنه كانت في هذا المكان فعلًا كنيسة صغيرة وكانت المقبرة الأصلية هي فناء الكنيسة. الكنيسة تم بناؤها منذ زمن بعيد، في القرن التاسع أو العاشر للميلاد. تم بناؤها وتوسعت عدة مرات هناك. لكنْ كان هنا حريق عام ١٨٢٠، وفي ذلك الوقت كانت أصغر من احتياجات المنطقة. كان الناس هنا يستعملون كنيسة القديس «دونستان» في ميدان القرية لتكون كنيستهم، وعندما جاءوا هنا لإعادة البناء جعلوها كنيسة جنائزية واحتفظوا بأكثر معالمها. النوافذ الزجاجية في الجدار البعيد يقال إنها

أصلية...
قالت «سكارليت»:
ـ في الواقع، كنت أفكر في أن أمي سوف تقتلني. أخذتُ حافلة خطأ وقد تأخرتُ على الذهاب للبيت.
قال الرجل:
ـ رباه! أيها الشيء المسكين. أنا أعيش في نهاية الطريق، انتظري هنا.
وبسرعة وضع ملف الصور وعلبة أقلام الشمع ولفافة الورق في يديها واندفع مهرولًا نحو البوابات، وقد كوَّر كتفيه أمام المطر المنهمر. بعد دقائق رأت «سكارليت» أضواء وسمعت نفير سيارة. جرت «سكارليت» نحو البوابات حيث ترى السيارة وهي سيارة ميني صغيرة خضراء. كان الرجل الذي تتكلم معه يجلس في مقعد السائق وقد أنزل النافذة.
قال:
ـ هلم، إلى أين آخذكِ؟
وقفت «سكارليت» هناك والمطر يهطل على عنقها.
قالت:
ـ لا أقبل توصيلات من الأغراب.
قال الرجل:
ـ هذا صواب كذلك، لكن الأمر يستحق هذا، ضَعِي ما تحملين في المقعد الخلفي قبل أن يبتلَّ.
وفتح الباب الجانبي وانحنت «سكارليت» للداخل، ووضعت أدوات مَسْح شواهد القبور على المقعد الخلفي في أفضل وضع ممكن.
قال الرجل:
ـ سأقول لكِ، لمَ لا تتصلين بأمكِ؟ استعملي هاتفي، قولي لها رقم سيارتي، يمكنكِ عمل هذا من داخل السيارة حتى لا تبتلِّي بالخارج.
ترددت «سكارليت». كان المطر يُغرق شعرها والطقس بارد.
مد الرجل يده وناولها هاتفه المحمول. نظرت له «سكارليت». أدركت أنها تخشى الاتصال بأمها أكثر مما تخاف ركوب السيارة. قالت:
ـ يمكن أن أطلب الشرطة كذلك، أليس كذلك؟
ـ بوسعكِ هذا طبعًا، أو يمكنكِ المشي للبيت. أو يمكنكِ طلب أمك لتسأليها أن تأتيَ لتأخذكِ للبيت.
جلست «سكارليت» في المقعد الجانبي وأغلقت الباب. أمسكت بهاتف الرجل.
سألها الرجل:
ـ أين تعيشين؟
ـ ليس عليك أن... أعني أنك ستأخذني فقط لمحطة الحافلات.
ـ سآخذكِ للبيت. ما العنوان؟
ـ ١٠٢ أ طريق أكاشيا. إنه متفرع من الطريق الرئيسي بعد المركز الرياضي الكبير.

ـ أنتِ بعيدة عن طريق العودة، أليس كذلك؟ حسن، دعينا نوصلكِ للبيت.
وفك فرملة اليد وانطلق يقود السيارة لأسفل التل. سألها:
ـ هل تعيشين هنا منذ زمن؟
ـ ليس بالضبط، جئنا هنا بعد رأس السنة، عشنا هنا عندما كنت في الخامسة كذلك.
ـ هل هذه لكنة اسكتلندية أو أيرلندية في كلامكِ؟
ـ عشنا في اسكتلندا عشر سنوات، هناك كنت مثل أي واحد آخر، ثم جئنا هنا فصرت مختلفة وغريبة كإصبع ملتهبة.
أرادت أن تجعل كلامها نكتة لكنه كان صادقًا، وسمعت كلامها وهي تقوله: ليس مضحكًا بل هو مرير جدًّا.
انطلق الرجل بالسيارة نحو طريق أكاشيا وتوقف أمام البيت، ثم صمم على أن يصحبها للباب الأمامي. عندما انفتح الباب قال:
ـ آسف بشكل مرعب، لقد سمحت لنفسي بأن أجلب ابنتكِ. واضح أنكِ علمتِها جيدًا لأنها لم تكن تقبل التوصيلات من الغرباء. لكن المطر كان ينهمر وهي استقلَّت الحافلة الخطأ وانتهت في الناحية الأخرى من البلدة. فوضى شديدة في الحقيقة. قولي إنكِ ستسامحينها، سامحيها. و، إممم، سامحيني.
توقعت «سكارليت» أن تصرخ أمها في كليهما، وأدهشها وسرَّها أن الأم قالت فقط:
ـ حسن، لا يمكن أن يكون المرء حذرًا بما يكفي هذه الأيام. وهل السيد معلِّم؟ وهل يرغب في قدح من الشاي؟
قال السيد «إممم» إن اسمه «فروست» لكنْ يجب أن تدعوه «جاي». فابتسمت مسز «بيركنز»، وقالت إن عليه أن يدعوها «نونا». وضعت براد الشاي على النار.
على الشاي، أخبرت «سكارليت» أمها بمغامرتها مع الحافلة الخطأ، وكيف وجدت نفسها في المقبرة، وكيف قابلت مستر «فروست» عند الكنيسة الصغيرة.
أسقطت مسز «بيركنز» قدح شايها.
كانتا جالستين على منضدة في المطبخ؛ لذا لم يسقط القدح بعيدًا ولم يتهشم، لكنه سكب ما فيه من شاي. اعتذرت مسز «بيركنز» في ارتباك وذهبت لتحضر قطعة

قماش من الحوض لتمسح الشاي. ثم قالت:
ـ المقبرة على التل في البلدة القديمة؟ تلك التي تقصدينها؟
قال مستر «فروست»:
ـ أعيش عند هذا الطريق، قمت بمسح الكثير من المقابر، هل تعرفين أن المكان تقنيًّا محمية طبيعية؟
قالت مسز «بيركنز» وقد زمَّت شفتيها:
ـ أعرف هذا.

ثم قالت:
ـ شكرًا بشدة على توصيل «سكارليت» للبيت.
كل كلمة من كلماتها كانت شبيهة بمكعب ثلج. ثم قالت:
ـ أعتقد أن عليكَ الرحيل الآن.
قال مستر «فروست» في مودة:
ـ أقول إن هذا كثير نوعًا، لم أُرِد أن أؤذي مشاعركِ. هل كان هذا شيئًا قلتِه؟ مَسْح المقابر من أجل مشروع تاريخي محلي. ليس الأمر كما تعلمين أنني أستخرج العظام أو أي شيء.
وللحظة توقعت «سكارليت» أن أمها ستضرب مستر «فروست». لكن مسز «بيركنز» هزت رأسها وقالت:
ـ آسفة. تاريخ الأسرة. ليست غلطتكَ.
وكأنها تقوم بجهد إرادي، قالت بذكاء:
ـ كما تعرف، «سكارليت» كانت تلعب في المقبرة وهي طفلة. هذا منذ عشر سنوات. كان لها صديق تخيُّلي كذلك. صبي صغير اسمه «لا أحد».
تلاعبت ابتسامة على ركن شفتَي مستر «فروست» وقال:
ـ شبح؟
ـ لا أظن ذلك، كان فقط يعيش هناك. بل إنها كانت تشير للقبر الذي يعيش فيه. لذا أعتقد أنه كان شبحًا. هل تتذكرين يا حبيبتي؟
هزت «سكارليت» رأسها وقالت:
ـ لا بد أنني كنت طفلة مضحكة.
قال مستر «فروست»:
ـ أنا واثق من أنكِ لم تكوني هكذا، أنتِ تُربين طفلة لطيفة يا «نونا». حسن، هذا قدح شاي ممتاز. من اللطيف أن يكسب المرء أصدقاء جددًا. سوف أمشي الآن إذ يجب أن أعدَّ لنفسي عشاء بسيطًا، ثم هناك مقابلة مع جمعية التاريخ المحلي.
قالت مسز «بيركنز»:
ـ هل تعدُّ عشاءك بنفسك؟
ـ نعم أعدُّه. في الواقع أزيل عنه التجميد. كذلك أنا خبير في سلق الأشياء داخل الكيس. آكل كشخص واحد وأعيش وحدي.
أعزب مُسِن قاس. أعرف أن هذا في الصحف يدعى «شاذ» أليس كذلك؟ لست شاذًّا. فقط لم ألقَ المرأة المناسبة قَطُّ.
وللحظة بدا حزينًا فعلًا.
كانت مسز «بيركنز» التي تمقت الطهي، تعلن أنها تطهو الكثير من الطعام في عطلة نهاية الأسبوع، وإذ اقتادت مستر «فروست» للصالة سمعته «سكارليت» يبدي موافقته على القدوم للعشاء مساء السبت.
لما عادت مسز «بيركنز» من الصالة كان كل ما قالته لـ«سكارليت» هو:
ـ أرجو أن تكوني قمتِ بواجبك المنزلي.
كانت «سكارليت» تفكر في أحداث عصر اليوم وهي في الفراش تلك الليلة

تصغي لصوت السيارات وهي تشق طريقها في الشارع الرئيسي. كانت هناك في المقبرة وهي صغيرة، لذا بدا كل شيء مألوفًا.
وفي عقلها تخيلت وتذكرت، وفي لحظة ما سقطت في النعاس. لكنها في النعاس ظلت تمشي في ممرات المقبرة. كان هذا الليل لكنْ كان بوسعها أن ترى كل شيء بوضوح كأنه النهار. كانت على جانب التل. كان هناك صبي في عمرها يقف وظهره لها يرمق أضواء المدينة. قالت «سكارليت»:
ـ صبي؟ ماذا تفعل؟
نظر حوله وبدا كأنه يلاقي عناء في التركيز ثم قال:
ـ من قال هذا؟ آه، أنا أراكِ، تقريبًا، هل تمشين في الحلم؟
قالت موافقة:
ـ أعتقد أنني أحلم.
قال الصبي:
ـ ليس هذا ما قصدت بالضبط. مرحبًا، أنا «بود».
قالت:
ـ أنا «سكارليت».
نظر لها ثانية كأنه يراها لأول مرة وقال:
ـ بالطبع أنتِ، عرفت أن وجهكِ مألوف، كنت اليوم في المقبرة مع ذلك الرجل الذي يحمل الورق.
قالت:
ـ مستر «فروست»، إنه لطيف، أوصَلني للبيت.
ثم قالت:
ـ هل رأيتنا؟
قال:
ـ نعم، إنني أراقب كل ما يحدث في المقبرة.
سألته:
ـ «بود»؟ أي اسم هذا؟
ـ هذا اختصار للفظة «لا أحد».
قالت «سكارليت»:
ـ بالطبع، هكذا كان الحلم، أنت صديقي التخيلي منذ كنت صغيرة حتى كبرت.
هز رأسه موافقًا.
كان أطول قامة منها. وكان يلبس ثيابًا رمادية برغم أنها لم تَقدر على وصف ثيابه. كان شعره طويلًا جدًّا وخطر لها أن وقتًا طويلًا مضى منذ قص شعره آخر مرة.
قال:
ـ كنتِ شجاعة فعلًا، لقد غصنا في التل ورأينا الرجل النيلي وقابَلْنا السفاح.
هنا حدث شيء في عقلها. نفق انهيارات ودوامة ظلام واندفاع صور...
قالت «سكارليت»:
ـ أتذكَّر.

لكنها قالتها للظلام الخالي في غرفة نومها.. ولم تسمع إجابة إلا صوت اندفاع شاحنة بعيدًا، تشق طريقها في الليل.
كان لدى «بود» خزين من الطعام، من الأنواع التي لا تفسد بسرعة، كلها مخزنة في السرداب وبعضها في القبور الباردة والضريح. تأكد «سيلاس» من هذا. كان عنده طعام كافٍ يبقيه حيًّا لشهرين. ما لم يكن «سيلاس» أو مس «لوبسكو» هناك فلن يغادر المقبرة ببساطة.
كان يفتقد العالم خارج المقبرة لكنه كان يعرف أنه ليس آمنًا هناك. ليس بعد. برغم هذا ظلت المقبرة بيته ومملكته. كان فخورًا بها ويحبها كما يحب ابن الرابعة عشرة أيَّ شيء.
وبرغم هذا...
في المقبرة لم يكن أحد يتبدل قَطُّ. الأطفال الصغار الذين لعب «بود» معهم وهو صغير ما زالوا أطفالًا. «فورتنبراس بارتلبي» الذي كان خير صديق له ظل أربع أو خمس سنوات أصغر من «بود»، وكلما التقيا صارت لديهما كلمات أقل يتبادلانها. وكان «ثاكري بورنجر» في نفس سن «بود» وطوله، وكان أكثر لطفًا معه. كان يمشي مع «بود» في الليل ويحكي قصصًا عن الأشياء التعسة التي حدثت لأصدقائه. كانت القصص عامة تنتهي بشنق الأصدقاء حتى الموت دون أن يقترفوا ذنبًا وبخطأ قانوني. برغم أنهم أحيانًا كانوا يُنفَون للمستعمرات الأمريكية ولا يصير شنقهم واجبًا إلا لو عادوا.
كانت «ليزا همبستوك» صديقة «بود» في السنوات الست الأخيرة وكانت مختلفة بشكل آخر. كان من النادر أن تكون بانتظاره عندما يذهب «بود» لرؤيتها، وعندما تكون هناك في إحدى المرات القليلة، كان مزاجها يغدو سيئًا وتصير عصبية وفظة بشكل صريح.
تكلم «بود» مع مستر «أوينز» عن هذا. بعد لحظات تفكير قليلة قال أبوه:
ـ هكذا النساء كما أعتقد، كانت تحبك صبيًّا، والآن وقد صرتَ شابًّا يبدو أنها لم تعد تعرف من أنت. كنت ألعب مع طفلة جوار بركة البط كل يوم، حتى صارت في سنك، ثم قذفَتْ رأسي بتفاحة ولم تكلمني كلمة واحدة حتى صرت في السابعة عشرة.
شهقت مسز «أوينز» وقالت في حدة:
ـ كانت ثمرة كمثرى تلك التي ألقيتُ بها. وقد عدت للكلام معك فورًا، لأننا رقصنا طويلًا في زفاف ابن عمك «تيد». وكان هذا بعد عيد ميلادك السادس عشر بيومين.
قال مستر «أوينز»:
ـ بالطبع أنتِ مُحقة يا عزيزتي.
وغمز لـ«بود» ليخبره أن هذا كله لا أهمية له. ثم قال بصوت عالٍ:
ـ السابعة عشرة!
ليؤكد كلامه.
لم يسمح «بود» لنفسه بأن يكون له أصحاب بين الأحياء. بهذه الطريقة أدرك في أيام المدرسة القليلة التي عاشها أن معنى هذا المتاعب. إلا إنه ظل

يتذكر «سكارليت» وقد افتقدها لأعوام بعد رحيلها، وواجه حقيقة أنه لن يراها ثانية. الآن كانت هنا في مقبرته، ولم يعرفها...
كان يتعمق أكثر في غابة أشجار اللبلاب التي تجعل الجزء الشمالي الغربي من المقبرة خطرًا. كانت هناك لافتات تنصح الزوار بالابتعاد لكنْ لم تكن هناك حاجة لها. كان المشهد غير مريح ومخيفًا، ما إن تَعبر غابة اللبلاب التي تُحدد نهاية الممشى الفرعوني والأبواب السوداء في تقليد القبر الفرعوني الذي يقود لأماكن الراحة الأبدية. في الجزء الشمالي الغربي كانت الطبيعة تطالب بحقها في امتلاك المقبرة منذ مائة عام، وكانت الصخور مقلوبة والمقابر منسية أو ضائعة تحت اللبلاب الأخضر والأوراق الساقطة على مدى خمسين عامًا. الطرق كانت مفقودة ولا يمكن عبورها.
مشى «بود» بحذر، كان يعرف المنطقة جيدًا ويعرف كم هي خطرة.
عندما كان «بود» في التاسعة كان يستكشف هذا الجزء عندما انهارت الأرض من تحته، ليسقط في حفرة عمقها عشرون قدمًا. كان القبر عميقًا ليتسع لعدة توابيت لكنْ لم يكن هناك شاهدُ قبر، وكان هناك تابوت واحد فقط في القاع، فيه رجل مهذب سريع التوتر ويعمل بالطب، اسمه «كارستيرز». يبدو أن وصول «بود» أثار اهتمامه، وأصر على أن يفحص معصم «بود» (وكان «بود» قد أصيب بالتواء فيه عندما سقط في الحفرة وتمسك بجذر شجرة) قبل أن يقتنع بأن يذهب لطلب المساعدة.
كان «بود» يشق طريقه عبر الربع الشمالي الغربي بين أوراق شجر متساقطة وغابة متشابكة من اللبلاب، حيث كانت الثعالب تقيم بيوتها والملائكة الساقطون يحدقون بعيون لا تُرى. لأنه كان يرغب في الكلام مع الشاعر.
كان اسم الشاعر «نيريمياه تروت»، وكان قبره تحت الخضرة وقد كُتب عليه:

هنا البقايا الفانية لـ«نيريمياه تروت»
شاعر
١٧٤١-١٧٧٤
البجع يغني قبل الموت.

قال «بود»:
ـ سيد «تروت»؟ هل لي أن أسألك النصح؟
تألق وجه «نيريمياه تروت» الشاحب وقال:
ـ بالطبع أيها الصبي الشجاع، إن نصيحة الشعراء هي مَسرة الملوك! كيف أدهن بالزيت... لا، لن أدهن بالزيت بل بمَرهم يُلطف آلامك.
ـ أنا لا أتألم في الواقع. أنا.. فقط.. هناك فتاة أعرفها ولا أدري إن كان عليَّ أن أجدها وأتكلم معها أم أنساها.
نهض «نيريمياه تروت» حتى اتضح طوله الأصلي الذي كان أقل من طول «بود». ورفع ذراعيه لصدره في حماسة وقال:
ـ أه.. يجب أن تذهب لها وتتوسل.. يجب أن تسميها «تربسيشور»([9]) أو «الصدى» أو «كلتيمنسترا»([10]). يجب أن تكتب لها قصائد الشعر، قصائد غنائية

قوية. سوف أساعدك في كتابتها، وهكذا، وهكذا فقط سوف تكسب حبها.
قال «بود»:
ـ لا أحتاج إلى كسب قلبها. هي ليست حبيبتي. مجرد شخص أريد الكلام معه.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ بين كل الأعضاء، يظل اللسان هو الأكثر تأثيرًا. نحن نستعمله لنتذوق الشراب الحلو والسم المر، وكذلك نلفظ بكلمات حلوة أو حادة بلساننا. اذهب لها، تكلمْ معها!
ـ لا يجب أن أفعل ذلك.
ـ بل يجب يا سيد! يجب! سوف أكتب عن هذا، عندما نخسر الحرب ثم نربحها.
ـ لكنْ لو لم أتلاشَ من أجل أحدهم، فلسوف يجعل هذا الناسَ الآخرين يرونني.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ اسمع، أصغِ لي يا «لياندر» الصغير، يا «هيرو» الصغير([11])، يا «إسكندر» الصغير، لو لم تتجاسر على شيء، فلسوف ينتهي اليوم وأنت لم تَقُز إلا بلا شيء.
سُرَّ «بود» من نفسه وقال:
ـ نقطة ممتازة.
وشعر بسرور لأنه طلب النصح من الشاعر. فكَّر: حقًّا، لو لم تثق بشاعر كي يمنحك نصائح معقولة، فبمن تثق؟ وهذا ذكَّره...
قال «بود»:
ـ مستر «تروت»، حدِّثني عن الانتقام.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ هو طبقٌ يُقدَّم باردًا. لا تنتقم في حرارة اللحظة بل انتظِر بدلًا من هذا، حتى تصير الساعة مُبشِّرة. كان هناك كاتب رخيص من كُتاب «جرَب ستريت» اسمه «أوليري». أيرلندي هو، ويجب أن أضيف أنه وجد الأعصاب الكافية والصفاقة كي يكتب عن مجموعة أشعاري الأولى المسماة «باقة أزهار من الجمال منسقة للسادة رفيعي الذوق»، قال إنها عبارة عن شعر رديء ولا تستحق، وإن الورق الذي طبعت عليه الأشعار كان من الأفضل أن يستعمل لـ... لا.. لا أقدر على الكلام. لنتفق ببساطة على أن هذه كانت أكثر العبارات سوقية.
سأله «بود» في فضول:
ـ لكنك انتقمتَ منه؟
ـ انتقمتُ منه ومن ذريته التعسة! لقد انتقمتُ يا سيد «أوينز» وكان انتقامًا شنيعًا. كتبتُ ونشرتُ خطابًا قمتُ بتعليقه على أبواب الحانات في لندن، حيث يذهب كثيرًا الكُتاب منحطو المستوى مثله. شرحتُ أنه نظرًا لهشاشة عبقريتي الشعرية، فلن أكتب لهم بعد اليوم، ولكنْ سأكتب لنفسي وللأجيال القادمة. ولن أطبع أشعارًا جديدة لهم. هكذا تركتُ تعليماتٍ أن تُدفن أشعاري

معي عندما أموت فلا تُنشر. وعندما تدرك الأجيال القادمة مدى عبقريتي ستكتشف أن مئات من قصائدي قد ضاعت للأبد. عندها يمكنهم فتح تابوتي، وانتزاع الأشعار من يدي الباردة الميتة. وفي النهاية تُنشر لتنال استحسان وسرور الجميع. شيء فظيع أن تَسبق زمنك.
ـ وعندما متَّ نبشوا قبرك وأخرجوا أشعارك؟
ـ ليس بعد، لا. لكن هناك وقتًا وافرًا. إن الأجيال القادمة ممتدة.
ـ إذن كان هذا انتقامك؟
ـ حقًّا، وكان انتقامًا قويًّا ماكرًا بالفعل.
قال «بود» في غير اقتناع:
ـ نـ... نعم.
قال «نيريمياه تروت» في فخر:
ـ يجب أن يُقدَّم باردًا.
غادر «بود» الناحية الشمالية الغربية من المقبرة وعاد عبر الممشى الفرعوني إلى الطرق الأقدم غير المتشابكة. وإذ جاء الغسق عاد إلى الكنيسة العتيقة.
لم يكن هذا لأنه يتمنى أن يعود «سيلاس» من أسفاره، ولكنْ لأنه قضى زمنًا طويلًا في الكنيسة وقت الغسق، وقد شعر بأن الانتظام في العادة جميل. على كل حال كان جائعًا. دخل «بود» من باب السرداب إلى السرداب نفسه. حرك صندوقًا من الورق المقوى امتلأ بأوراق الكنيسة الرطبة، وأخرج علبة من عصير البرتقال وتفاحة وصندوقًا من شرائح الخبز وقطعة جبن، ثم راح يأكل وهو يتأمل فيما إذا كان يجب أن يبحث عن «سكارليت»، وكيف. سوف يجرب المشي في الحلم، لأن هذه هي الطريقة التي جاءت له بها.
اتجه للخارج وكان على وشك الجلوس على المقعد الخشبي الرمادي، عندها رأى شيئًا فتردد. كان هناك شخص بالفعل يجلس على مقعده. كانت تقرأ مجلة.
تلاشى «بود» أكثر وصار جزءًا من المقبرة. لا يزيد أهمية على أي ظِل أو غصن شجرة. لكنها رفعت عينيها. نظرت له مباشرة وقالت:
ـ «بود»، هل هذا أنت؟
لم يقل أي شيء. ثم قال:
ـ لماذا تَقدرين على رؤيتي؟
ـ تقريبًا لا أستطيع، في البدء حسبتك ظلًّا أو شيئًا آخر، لكنك تبدو كما كنت في حلمي. كأنك صرت في مركز البؤرة فجأة.
مشى للمقعد وقال:
ـ هل تستطيعين فعلًا قراءة هذه؟ أليس الجو مظلمًا أكثر مما يلائمكِ؟
أغلقت «سكارليت» المجلة وقالت:
ـ هذا غريب، أنت تعتقد أن الظلام دامس لكن بوسعي القراءة جيدًا. لا مشكلة.
ـ هل أنتِ...؟

وتوقف غير متأكد مما أراد أن يسألها عنه. ثم قال:
ـ هل أنتِ هنا وحدكِ؟
هزت رأسها أن نعم وقالت:
ـ ساعدت مستر «فروست» في فرك بعض شواهد القبور بعد المدرسة. ثم قلت له إنني أريد الجلوس هنا لأفكر بعض الوقت. عندما أنتهي هنا، وعَدتُ أن أذهب عنده لشرب قدح من الشاي معه، ولسوف يعيدني للبيت. لم يسأل عن السبب. فقط قال إنه يحب الجلوس في المقبرة مثلي ويعتقد أنها أكثر الأماكن سلامًا في العالم.
ثم قالت:
ـ هل يمكنني أن أحتضنك؟
قال «بود»:
ـ هل تريدين ذلك؟
ـ نعم.
ـ ليكن إذن.
وفكر للحظة ثم قال:
ـ لن أتضايق لو فعلتِ.
ـ ألن تخترقك يداي أو شيء كهذا؟ هل أنت هنا حقًّا؟
قال لها:
ـ لن تَعبري خلالي.
ألقت بذراعيها حوله وضغطت بقوة حتى عجز عن التنفس. قال لها:
ـ هذا يؤلم.
أطلقت «سكارليت» سراحه وقالت:
ـ آسفة.
ـ لا، هذا كان لطيفًا. فقط أردت القول إنكِ ضغطتِ أكثر مما كنت أتوقع.
ـ أردت أن أتأكد من أنك حقيقي، كل هذه الأعوام كنت أحسبك مجرد خيال في ذهني ثم نسيت أمرك نوعًا. لكنني لم أختلقك من خيالي وأنت قد عدت. أنت في عقلي وفي العالم المادي كذلك.
ابتسم «بود» وقال:
ـ كنتِ تلبسين معطفًا، كان برتقاليًّا. وكلما رأيتُ اللون البرتقالي فكرت فيكِ. لا أظن المعطف ما زال معكِ.
قالت:
ـ لا، ليس منذ زمن بعيد. سوف يكون صغيرًا جدًّا عليَّ أيضًا.
قال «بود»:
ـ نعم، بالطبع.
قالت «سكارليت»:
ـ يجب أن أعود للبيت، أعتقد أن بوسعي القدوم في عطلة الأسبوع أيضًا.
ثم رأت التعبير على وجه «بود» فقالت:
ـ اليوم الأربعاء.

ـ أفضل هذا.
استدارت لترحل. ثم قالت:
ـ كيف أجدك المرة المقبلة؟
قال «بود»:
ـ أنا سأجدكِ، لا تقلقي. فقط كوني وحدكِ وسوف أجدكِ.
هزت رأسها ورحلت.
عاد «بود» للمقبرة وصعد التل حتى بلغ ضريح «فروبيشر». لم يدخله. تسلق لجانب البناية مستعملًا جذور اللبلاب الغليظة كدرجات وشد نفسه إلى السطح الحجري، حيث جلس وراح ينظر لعالم الأشياء المتحركة وراء المقبرة.
تذكَّر كيف احتضنته «سكارليت» وكيف شعر بالأمان ولو للحظة. كم هو جميل أن يكون سيد عالمه الصغير.
قالت «سكارليت» إنها لم تُرِد قدحًا من الشاي.. شكرًا. لم تُرِد بسكويتًا بالشوكولاتة. بدا الاهتمام على مستر «فروست».
قال لها:
ـ بأمانة، تَبدين كمن رأى شبحًا. وليست المقبرة مكانًا سيئًا كي ترَيْ شبحًا. كانت لي خالة زعمت أن ببغاءها ممسوس. كان ببغاء أمريكيًّا قرمزيًّا. كانت الخالة مهندسة ولا أعرف باقي التفاصيل.
قالت «سكارليت»:
ـ أنا بخير، كان يومًا طويلًا فقط.
ـ إذن سأوصلكِ للبيت. هل لديكِ فكرة عن معنى هذا؟ أتساءل عن معناه منذ نصف ساعة.
وأشار إلى مسحة أخذها من مقبرة على المنضدة الصغيرة، وقد ثبَّتها عند كل ركن ببرطمان مربى.
ـ هل هذا الاسم «جلادستون»؟ أتعتقدين هذا؟ ربما هو قريب رئيس الوزراء، لكنْ لا أستطيع أن أجد شيئًا آخر.
قالت «سكارليت»:
ـ أخشى أن لا، لكنْ سألقي نظرة أخرى عندما آتي السبت.
ـ هل تتوقعين أن تظهر أمكِ؟
ـ قالت إنها ستوصلني في الصباح هنا. ثم يجب أن ترحل للقيام بأعمال التسوق للعشاء. سوف تطبخ دجاجًا مشويًّا.
سألها مستر «فروست» آملًا:
ـ هل تعتقدين أن العشاء سيتضمن بطاطس مشوية؟
ـ أتوقع هذا، نعم.
بدا السرور على مستر «فروست» ثم قال:
ـ لا أريدها أن تخرج عن طريقها، هذا ما أقصده.
ـ هي تحب ذلك.
قالتها «سكارليت» في صدق وأضافت:
ـ شكرًا على توصيلي للبيت.

قال مستر «فروست»:
ـ تحت أمركِ في أي وقت.
وهبطا درجات السلم في بيت مستر «فروست» الضيق إلى ردهة الدخول عند أسفل الدرج.
على تلِّ واويل في كراكوف هناك كهوف يُطلق عليها «عرين التنين»، وقد أُطلق هذا الاسم نسبة لتنين ميت منذ زمن بعيد. هذه هي الكهوف التي يعرفها السياح. هناك كهوف أخرى تحت تلك الكهوف لا يعرفها السياح ولا يزورونها أبدًا. إنها تحت الأرض بمسافة بعيدة، وهي مسكونة.
دخل «سيلاس» أولًا تتبعه مس «لوبسكو»، كتلة عملاقة من اللون الرمادي تزحف على أربعٍ مِن خلفه. خلفهما جاء «كندار» وهو مومياء آشورية ملفوفة بالضمادات لها جناحا نسر قويان وعينان كالياقوت الأحمر. وكان يحمل خنزيرًا صغيرًا.
كان هناك أربعة منهم أصلًا، لكنهم فقدوا «هارون» في كهف بعيد فوقهم، لأن العفريت الممتلئ بالثقة ككل أبناء جنسه خطا إلى فضاء تحرسه ثلاث مرايا من البرونز وغاب في وهج من الضوء. للحظاتٍ كان من الممكن أن ترى العفريت في المرايا فقط وليس في عالم الواقع. في المرايا كانت عيناه الناريتان متسعتين وفمه يتحرك كأنه يصرخ فيهم كي يغادروا ويحترسوا، ثم تلاشى ولم يعودوا يرونه.
لم يكن «سيلاس» يعاني أي مشاكل مع المرايا، لذا غطى واحدة منها بمعطفه، فصارت المصيدة بلا جدوى. قال «سيلاس»:
ـ إذن، الآن لم يعد هناك سوى ثلاثة منا.
قال «كندار»:
ـ وخنزير.
سألت مس «لوبسكو» بلسان ذئب يبرز بين أنياب ذئب:
ـ لمَ؟ لماذا الخنزير؟
قال «كندار»:
ـ لأنه يجلب الحظ.
زأرت مس «لوبسكو» غير مقتنعة.
سأل «كندار» ببساطة:
ـ هل كان لدى «هارون» خنزير؟
قال «سيلاس»:
ـ ششش.. إنهم قادمون. من الصوت يبدو أن هناك الكثير منهم.
همس «كندار»:
ـ دعهم يأتون.
كان شعر عنق مس «لوبسكو» ينتصب. لم تقل أي شيء لكنها كانت مستعدة لهم، وبقوة إرادتها فقط قاومت أن تُرجع رأسها للخلف وتعوي.
قالت «سكارليت»:
ـ الأمر جميل بهذه الطريقة.

قال «بود»:
ـ نعم.
قالت «سكارليت»:
ـ إذن أسرتك قُتلت كلها؟ هل يعرف أحد مَن فعل هذا؟
ـ لا، هذا ما أعرفه. حارسي قال إن الرجل الذي فعل هذا ما زال حيًّا وسوف يخبرني بباقي ما يعرفه يومًا ما.
ـ يومًا ما؟
ـ عندما أكون مستعدًّا.
ـ وممَّ يخاف؟ مِن أن تعلق بندقيتك وتركب حصانك للانتقام من الرجل الذي قتل أسرتك؟
نظر لها «بود» بجدية وقال:
ـ حسن، هذا واضح. ليست بندقية برغم هذا لكن.. نعم.. شيء كهذا.
ـ أنت تمزح.
لم يقل «بود» شيئًا. ضغط شفتيه بقوة معًا وهز رأسه. ثم إنه قال:
ـ أنا لا أمزح.
كان هذا صباح سبت مشرقًا. وكانا قد عبرا مدخل الممر الفرعوني مبتعدين عن ضوء الشمس المباشر تحت أشجار الصنوبر وأشجار القردة.
ـ هل راعيك شخص ميت كذلك؟
قال «بود»:
ـ أنا لا أتكلم عنه.
بدا عليها الألم وقالت:
ـ ولا حتى معي؟
ـ ولا حتى معكِ.
قالت:
ـ حسن، ليكن الأمر كذلك.
قال «بود»:
ـ انظري.. أنا آسف.. لم أقصد.
هنا قالت «سكارليت»:
ـ وعَدتُ مستر «فروست» أنني لن أتأخر. يجب أن أعود الآن.
قال «بود»:
ـ معكِ حق.
وشعر بقلق لأنه ربما ضايقها، ولم يعرف ما يجب أن يقوله لتتحسن الأمور.
راقب «سكارليت» تبتعد في الطريق الملتف عائدة للكنيسة. هنا قال صوت أنثوي مألوف بسخرية:
ـ انظر لها! الآنسة «قوية وعظيمة».
لكنه لم يرَ أحدًا.
كان «بود» يشعر بالارتباك، وعاد للممشى الفرعوني. كانت مس «ليليبت» ومس «فيوليت» قد تركتاه يخزن صندوقًا من الورق المقوى مليئًا بالكتب

رخيصة الطباعة في السرداب، وقد أراد أن يجد شيئًا يقرأه.
ساعدت «سكارليت» مستر «فروست» في فرك شواهد القبور حتى منتصف النهار، ثم توقفا للغداء. عرض أن يبتاع لها سمكًا وبطاطس على سبيل الشكر، ثم مشيا إلى متجر السمك والبطاطس عند أسفل الطريق، وبينما هما يمشيان عائدينِ لأعلى التل، التهما في الكيسين الورقيين السمك والبطاطس الساخنينِ الغارقين في الخل والملح.
قالت «سكارليت»:
ـ لو أردت التحقيق في جريمة قتل، فأين تبحث؟ لقد جربت الإنترنت.
ـ إممم.. هذا يتوقف على الأمر، ما نوع القتل الذي تحققين فيه؟
ـ شيء محلي على ما أعتقد، منذ ١٣ أو ١٤ سنة. أسرة قُتلت هنا.
قال مستر «فروست»:
ـ هذا مؤلم، هل حدث هذا حقًّا؟
ـ نعم، هل أنت على ما يرام؟
ـ ليس بالضبط.. أشعر بـ... نوع من الوهن.. أشياء كهذه. أعني، الجرائم المحلية الحقيقية لا يحب المرء أن يفكر فيها. أشياء كهذه تحدث هنا، شيء لا أتوقع من فتاة مثلكِ وفي سنكِ أن تهتم به.
وافقت «سكارليت»:
ـ ليس من أجلي، بل من أجل صديق.
أنهى مستر «فروست» آخر ما معه من سمك مقلي وقال:
ـ المكتبة على ما أعتقد. لو لم يكن في الإنترنت فلسوف يكون في الصحف. ما الذي دفعكِ لهذا البحث؟
قالت «سكارليت»:
ـ أوه.
أرادت أن تكذب بأقل قدر ممكن. فقالت:
ـ صبي أعرفه، كان يسأل عن هذا.
قال مستر «فروست»:
ـ هي المكتبة بلا جدال. قتل.. بررر.. أشعر بقشعريرة.
قالت «سكارليت»:
ـ أنا أيضًا. قليلًا.
ثم قالت بأمل:
ـ هل لك ـ ربما أمكنك ـ أن توصلني للمكتبة عصر اليوم؟
قضم مستر «فروست» قطعة كبيرة من البطاطس ومضغها ونظر لباقي القطع، وبدت عليه خيبة الأمل:
ـ تَبرُد بسرعة جدًّا. أليس كذلك؟ أعني البطاطس. في دقيقة أنت تحرقين فمكِ بها وفي الدقيقة التالية هي باردة تمامًا.
قالت «سكارليت»:
ـ آسفة، ما كان لي أن أطلب توصيلي لكل مكان.
قال مستر «فروست»:

ـ بتاتًا، فقط أتساءل هل يمكن ترتيب عصر هذا اليوم. وما إذا كانت أمكِ تحب الشوكولاتة. هل تُفضل شوكولاتة أم زجاجة نبيذ؟ لست واثقًا.. ربما كلتيهما؟
قالت «سكارليت»:
ـ يمكن أن أعود للبيت من المكتبة، وأمي تحب الشوكولاتة وكذلك أنا.
قال مستر «فروست» شاعرًا بالرضا:
ـ هي الشوكولاتة إذن.
كانا قد بلغا منتصف صف البيوت العالية ذات الشرفات في أعلى التل، وكانت السيارة الميني الخضراء تقف بالخارج.
ـ تعالَي واركبي، سأوصلك للمكتبة.
كانت المكتبة بناية مربعة من القرميد والحجارة تعود لبداية القرن الماضي. نظرت «سكارليت» حولها ثم ذهبت للمنصة.
سألتها السيدة:
ـ نعم؟
قالت «سكارليت»:
ـ أردت أن أرى بعض قصاصات الصحف القديمة.
سألتها السيدة:
ـ هل هي للمَدرسة؟
قالت «سكارليت» وهي تهز رأسها فخورة بأنها لن تضطر للكذب:
ـ صَف التاريخ المحلي.
قالت المرأة:
ـ لدينا الصحف المحلية على الميكروفيلم.
كانت ضخمة وهناك قرطان فضيان عملاقان في أذنيها. شعرت «سكارليت» بقلبها ينبض في صدرها. كانت تشعر بأنها تبدو مذنبة أو مريبة، لكن المرأة قادتها لحجرة بها صناديق تبدو كشاشات كمبيوتر، وأرتها كيف تستعملها، وكيف تعرض صفحة جريدة في كل مرة على الشاشة.
قالت المرأة:
ـ يومًا ما سنجعل هذا كله رقميًّا. حاليًّا أي تواريخ تريدين؟
قالت «سكارليت»:
ـ منذ ١٣ أو ١٤ سنة. لا يمكن أن أكون أكثر تحديدًا. سأجرب ذلك عندما أراه.
أعطت المرأة لـ«سكارليت» صندوقًا صغيرًا به صحف خمس سنوات من الميكروفيلم. وقالت للفتاة:
ـ انطلقي.
افترضت «سكارليت» أن اغتيال أسرة سيكون خبرًا للصفحة الأولى. لكنْ بدلًا من هذا، عندما وجدت هذا الخبر، كان مدفونًا في صفحة رقم ٥. لقد حدث في أكتوبر منذ ١٣ عامًا. لم يكن هناك لون في المقال ولا وصف. مجرد وصف لأحداث بلا ترتيب:
تم العثور على المهندس «رونالد دوريان» (٣٦ سنة) وزوجته الناشرة «كارلوتا» (٣٤ سنة) وابنتهما «مستي» (٧ سنوات) ميتين في ٣٣ شارع دونستان.

يُعتقد أن هناك جريمة. قال متحدث باسم الشرطة إن الوقت مبكر للتعليق في هذه المرحلة من التحقيقات، لكنهم يتبعون الأدلة الواضحة.
لم تذكر الصحف كيف ماتت الأسرة ولم تكتب حرفًا عن طفل مفقود. في الأسابيع التالية لم تتابع الحادث ولم يعلق رجال الشرطة. على الأقل لم ترَ «سكارليت» هذا.
لكنْ كان هذا كل شيء. كانت متأكدة. طريق ٣٣ دونستان. هي تعرف البيت. كانت هناك. أعادت صندوق الميكروفيلم للدُّرج الأمامي، وشكرت أمينة المكتبة ومشت في شمس أبريل. كانت أمها في المطبخ تطهو. ليس بنجاح كبير كما أمكنها الحُكم من رائحة الحريق في إناء الصلصة التي ملأت الشقة.
اتجهت «سكارليت» لغرفتها وفتحت النافذة لتخرج رائحة الحريق ثم جلست على الفراش وأجرت مكالمة.
ـ مرحبًا، مستر «فروست»؟
ـ «سكارليت»، هل كل شيء بخير لهذه الأمسية؟ كيف حال أمكِ؟
قالت «سكارليت»:
ـ الأمور تحت السيطرة.
وكان هذا ما قالته أمها حين سألتها، ثم قالت:
ـ آ.. مستر «فروست».. كم من الزمن لبثت في منزلك؟
ـ كم من الزمن؟ أربعة أشهر الآن.
ـ كيف عثرت عليه؟
ـ سمسار عقارات. كان خاويًا وكان بوسعي أن أدفع ثمنه.
تقريبًا.. حسن. أردت شيئًا على مسافة مشي من المقبرة وكان هذا ممتازًا.
قالت «سكارليت»:
ـ مستر «فروست»...
كانت مترددة كيف تقول هذا لكنها قالته في النهاية:
ـ منذ ١٣ عامًا قتل ثلاثة أشخاص في بيتك. أسرة «دوريان»...
ساد الصمت عند طرف السماعة الآخر.
ـ مستر «فروست»، أنت هناك؟
ـ أنا.. ما زلت هنا يا «سكارليت». آسف، لم أتوقع سماع هذا. هذا بيت عتيق، أعني أنكِ تتوقعين أن تكون الأمور من زمن سحيق. لكنْ ليس... ما الذي حدث بالضبط؟
تساءلت «سكارليت» عن قدر ما يمكنها أن تخبره به.
قالت:
ـ كانت هناك مقالة صغيرة عنها في جريدة قديمة، وقد ذكرت العنوان ولا شيء سواه. لا أعرف كيف ماتوا وما إلى ذلك.
ـ رباه. يا إلهي الطيب.
بدا مستر «فروست» وقد هزته الأخبار أكثر مما توقعت «سكارليت»، وقال:
ـ هذا يا «سكارليت» الصغيرة هو ما يجلب المؤرخين المحليين إلى مدينتنا. اتركي لي الأمر ولسوف أجد كل شيء يمكن أن أبلغكِ به.

قالت «سكارليت» وقد شعرت بالراحة:
ـ شكرًا لك.
ـ إممم، أعتقد أن هذه المكالمة بسبب أن «نونا» لو عرفت أن هناك جرائم قتلٍ في بيتي، ربما عمرها ١٣ عامًا، فهي لن تسمح لكِ برؤيتي ولا الذهاب للمقبرة ثانية. لذا لن أذكر هذا ما لم تفعلي ذلك.
ـ شكرًا يا مستر «فروست».
ـ أراكِ في السابعة ومعكِ الشوكولاتة.
كان العشاء مبهجًا بشكل ملحوظ. كانت رائحة الحريق قد زالت من المطبخ، وكان الدجاج شهيًّا والسلطة أفضل، والبطاطس المشوية مقرمشة زيادة عن اللازم، لكن مستر «فروست» أعلن أنه يفضلها بهذه الطريقة بالذات، وقد أخذ المزيد في طبقه.
كانت الأزهار جميلة والشوكولاتة التي قُدمت كحلوى جيدةً، وجلس مستر «فروست» يتكلم ويشاهد التلفزيون معهما حتى العاشرة مساء، حين قال إنه يريد العودة للبيت.
قال:
ـ الزمن والمد والبحث التاريخي لا ينتظرون أي إنسان.
وصافح «نونا» بحماسة وغمز لـ«سكارليت» كأنه يتآمر، ثم غادر البيت. حاولت «سكارليت» أن تجد «بود» في أحلامها تلك الليلة، وفكرت فيه وهي ذاهبة للنوم، وتصورت نفسها تمشي في المقبرة بحثًا عنه، لكن عندما فعلت ذلك حلمت بمركز مدينة جلاسجو مع صديقاتها في المدرسة القديمة. كنَّ يبحثن عن شارع معين، لكن كل ما وجَدْنه كان مجموعة من النهايات المسدودة.
هناك تحت التل في كراكوف تحت أعمق الكهوف التي يسمونها جحر التنين، تعثرت مس «لوبسكو» وسقطت. ركع «سيلاس» جوارها وأمسك برأسها بين يديه. كان هناك دم على وجهها وبعضه كان دمها. قالت:
ـ يجب أن تتركني، أنقِذ الصبي.
كانت الآن في منتصف التحول بين ذئب رمادي وامرأة. لكن ظل وجهها وجه امرأة.
قال «سيلاس»:
ـ لا، لن أتركك.
مِن خلفهما ربت «كندار» على الخنزير كأنه طفل يحتضن دمية، وكان جناح المومياء الأيسر مهشمًا. لن يستطيع الطيران ثانية لكن وجهه الملتحي كان مليئًا بالتصميم.
همست مس «لوبسكو»:
ـ سوف يعودون يا «سيلاس»، سرعان ما تشرق الشمس.
قال «سيلاس»:
ـ إذن يجب أن نتعامل معهم قبل أن يستعدوا للهجوم. هل تَقدرين على الصمود؟
قالت مس «لوبسكو»:

ـ نعم. أنا من كلاب الرب ولسوف أصمد.
وخفضت وجهها في الظلال وثنت أصابعها. عندما رفعت رأسها ثانية كان هذا رأس ذئب. وضعت مخالبها على الصخر وبكثير من الجهد استطاعت أن تقف. ذئبًا رماديًّا أضخم بكثير من الدببة، وكان معطفها وفمها ملطخين بالدم.
ألقت رأسها للخلف وعوت عواء غاضبًا متحديًا. تراجعت شفتاها عن أسنانها وخفضت رأسها ثانية، ثم قالت مس «لوبسكو»:
ـ الآن، ننهي هذا.
في ساعة متأخرة من عصر الأحد دق الهاتف. كانت «سكارليت» جالسة بالطابق السفلي تنسخ بعض الرسوم التي رأتها في الجريدة. التقطت أمها الهاتف.
قالت أمها:
ـ من الغريب أننا كنا نتكلم عنكَ.
برغم أن هذا لم يحدث. وأردفت:
ـ كان هذا رائعًا، لقد نعمتُ بوقتي بشدة. بأمانة لا مشاكل. الشوكولاتة؟ كانت ممتازة، ممتازة فعلًا. قلت لـ«سكارليت» أن تخبرك. متى أردت عشاء طيبًا دعني أعرف.
ثم:
ـ «سكارليت»؟ هي هنا، سوف أجلبها لك. «سكارليت»؟
قالت «سكارليت»:
ـ أنا هنا يا أماه. لا داعي للصراخ.
وتناولت الهاتف وقالت:
ـ مستر «فروست»؟
بدا متحمسًا وقال:
ـ «سكارليت»؟ الـ.. إممم.. الشيء الذي كنا نتكلم عنه. ما حدث في بيتي. يمكن أن تخبري صديقكِ هذا أنني وجدت.. إممم.. هل عندما قلتِ «صديق لي» كنتِ تعنين ذلك بمعنى «نحن نتكلم عنكَ في الواقع» أم كنتِ تعنين شخصًا حقيقيًّا، إن لم يكن في هذا تعدٍّ على خصوصيتك؟
قالت «سكارليت» مستمتعة بالموقف:
ـ لديَّ صديق حقيقي ويريد أن يعرف.
نظرت أمها لها نظرة حادة متسائلة.
ـ قولي لصديقكِ إنني أجريت بعض الحفريات. ليس حرفيًّا، أقصد أنني بحثت كثيرًا. وأعتقد أني كشفت عن معلومات حقيقية جدًّا. وجدت شيئًا مختفيًا. حسن. أعتقد أنه شيء لا يجب أن نكشفه. إممم.. وجدت أشياء.
سألت «سكارليت»:
ـ مثل ماذا؟
ـ حسن، لا تحسبي أنني مجنون. على قدر ما أفهم لقد قُتل ثلاثة أبرياء. أحدهم وهو الطفل لم يُقتل. لم تكن أسرة من ثلاثة، كانت أسرة من أربعة. مات ثلاثة. قولي له أن يأتي ويراني، صديقكِ، سوف أخبره بالكثير.

قالت «سكارليت»:
ـ سوف أخبره.
ووضعت سماعة الهاتف وقلبها يدق بلا توقف.
مشى «بود» لأسفل الدرجات الحجرية الضيقة لأول مرة منذ ستة أعوام. كانت خطواته تُحدث صدى داخل التل وانتظر حتى يظهر السفاح. إذ راح ينتظر وينتظر لم يظهر شيء، لم يهمس شيء، لم يتحرك شيء. نظر حول الغرفة غير متضايق من الظلام الدامس، فهو يرى فيه كما يرى الموتى.
مشى حتى صخرة المحراب في الأرض حيث القدح والبروش والسكين الحجرية. مد يده ولمس حافة السكين، كانت أكثر حدة مما توقع ومزقت الجلد على أنامله.
همس صوت ثلاثي لكنه بدا أصغر مما يذكره وأكثر ترددًا:
ـ هذا هو كنز السفاح.
قال «بود»:
ـ أنت أقدم شيء هنا وقد جئت لأتكلم معك. أريد نصيحة.
ساد الصمت، ثم:
ـ لا شيء يأتي للسفاح من أجل النصح. السفاح يحرس. السفاح ينتظر.
ـ أعرف، لكن «سيلاس» ليس هنا. ولا أعرف مع من أتكلم.
لم يقل أحد أي شيء. رد الصمت فقط فتردد صدى الغبار والوحدة.
قال «بود» بأمانة:
ـ لا أعرف ما أفعله. أعتقد أن بوسعي معرفة من قتل أسرتي. من أراد قتلي. لكن معنى هذا تركُ المقبرة.
لم يقل السفاح شيئًا. وراحت ممساتٌ كالدخان تتحسس داخل الغرفة.
قال «بود»:
ـ لا أخشى الموت. فقط أنا قلِق لأن أناسًا كثيرين أهتم بهم حاولوا أن يُبقوني آمنًا سالمًا، وعلموني وحموني.
من جديد ساد الصمت.
ثم قال:
ـ يجب أن أفعل هذا وحدي.
ـ نعم.
ـ هذا كل شيء إذن وآسف لمضايقتك.
همس الشيء في أذن «بود»، ثم قال بصوت كأنه شيء ناعم يزحف:
ـ السفاح مهمته أن يحرس الكنز إلى أن يعود السيد. فهل أنت السيد؟
قال «بود»:
ـ لا.
هنا سأله بصوت آمل:
ـ إذن هل تصير سيدنا؟
ـ أخشى أنني لا أستطيع.
ـ لو صرت سيدنا يمكننا أن نلتف حولك للأبد. لو صرت سيدنا سوف نبقيك

سالمًا ونحميك حتى نهاية الزمن، ولن تواجه مخاطر العالم.
ـ أنا لست سيدكم.
ـ لا.
وشعر «بود» بالسفاح يتلوى في عقله. قال:
ـ إذن جِد اسمك.
عقله كان خاويًا والغرفة خاوية، وصار «بود» وحيدًا.
صعد «بود» الدَّرج بسرعة وبحذر. كان قد وصل إلى قرار وأزمع أن يعمل سريعًا بينما القرار ما زال يتوهج في ذهنه. كانت «سكارليت» بانتظاره على مقعد جوار الكنيسة وقالت:
ـ حسن؟
قال:
ـ سأفعل أنا هذا. هلم.
وجنبًا لجنب مشيا في الممر هابطين إلى بوابات المقبرة.
كان رقم ٣٣ بيتًا عاليًا ورفيعًا كالمغزل، في وسط صف منازل ذات شرفات. كان من القرميد الأحمر ولا أهمية تاريخية له. نظر له «بود» في غير يقين متسائلًا لماذا لا يبدو مألوفًا أو خاصًّا. كان مجرد بيت كأي بيت آخر. هناك فضاء أمامه لم يكن حديقة. وكانت سيارة ميني صغيرة تقف في الشارع. الباب الأمامي كان مطليًّا بأزرق لامع لكن اللون صار قاتمًا بأثر الزمن والشمس.
قالت «سكارليت»:
ـ حسن؟
قرع «بود» الباب. لم يكن هناك شيء. ثم سمع صوت أقدام على الدرجات من الداخل، وانفتح الباب ليظهر المدخل والدرجات. وفي مركز الباب وقف رجل ذو عوينات له شعر رمادي بدأ يتراجع للخلف وكان ينظر لهما في حدة، ثم مد يده لـ«بود» وابتسم بعصبية وقال:
ـ لا بد أنك صديق مس «بيركنز» الغامض. سعيد للقائك.
قالت «سكارليت»:
ـ هذا «بود».
ـ «بوب»؟
قالت:
ـ بل «بود»، بالدال، «بود». هذا هو مستر «فروست».
تصافح «بود» و«فروست»، وقال مستر «فروست»:
ـ براد الشاي على النار. ما رأيكما لو تبادلنا المعلومات ونحن نشرب قدحًا؟
تَبِعاه عبر الدرجات إلى المطبخ حيث صب ثلاثة أقداح من الشاي ثم اقتادهما لغرفة جلوس صغيرة. قال:
ـ باقي البيت فوق. المرحاض في الطابق العلوي. مكتبي وغرف النوم فوقهما. هذه الدرجات تحافظ على لياقتك.
جلسوا على أريكة كبيرة قرمزية جدًّا (كانت هنا بالفعل عندما أتيت) ورشفوا الشاي. كانت «سكارليت» قلقة من أن يوجه مستر «فروست» أسئلة كثيرة

لـ«بود»، لكنه لم يفعل. فقط بدا متحمسًا كأنه ميز شاهدَ قبرِ شخص مهم، وأراد أن يخبر العالم كله بذلك.
راح يتحرك بنفاد صبر في مقعده كأن لديه شيئًا مهمًّا لا بد أن يخبرهما به، وعدم نقله لهما يسبب معاناة جسدية.
قالت «سكارليت»:
ـ إذن ماذا وجدت؟
قال مستر «فروست»:
ـ نعم، أنتِ محقة. هذا البيت كان مكان مقتل هؤلاء القوم فعلًا. أعتقد أن الجريمة كانت.. لم يتكتموا أمرها لكنهم نسوها. تخلت عنها.. السلطات.
قالت «سكارليت»:
ـ لا أفهم. جرائم القتل لا يتم كنسها تحت السجادة.
قال «فروست»:
ـ هذه كانت كذلك.
وأفرغ قدح الشاي وقال:
ـ هناك قوم يملكون نفوذًا قويًّا. هذا هو التفسير الوحيد لذلك. أما بالنسبة لما حدث للطفل الأصغر...
سأله «بود»:
ـ ومن كان هذا؟
قال «فروست»:
ـ لقد عاش. أنا متأكد من هذا. لكنْ لم تكن هناك مطاردة. إن ضياع رضيع في الأحوال الطبيعية يصير أخبارًا قومية. لكنْ لا بد أنهم سحقوا الخبر بشكل ما.
سأل «بود»:
ـ من هم؟
ـ نفس الذين قتلوا الأسرة.
ـ هل تعرف أي شيء عن هذا؟
ـ نعم، القليل. أنا آسف. بالنسبة لما وجدته فالأمر لا يُصدَّق.
بدأت «سكارليت» تشعر بإحباط فقالت:
ـ ما هذا؟ ما الذي وجدتَه؟
بدا الخجل على وجه «فروست» وقال:
ـ أنتِ محقة. أنا آسف. بالنسبة للأسرار أنا آسف. ليست فكرة ممتازة. المؤرخون لا يدفنون الأشياء. نحن نحفر لنُخرجها. نُريها للناس. نعم.
وتوقف مترددًا ثم قال:
ـ وجدت خطابًا بالطابق العلوي، كان مُخبَّئًا تحت لوحِ خشب أرضية سائبٍ.
واستدار لـ«بود» وقال:
ـ أيها الشاب، هل أنا مُحق في افتراض أن اهتمامك بهذه القضية، هذه القضية المروعة، هو أمر شخصي؟
هز «بود» رأسه موافقًا.
قال مستر «فروست»:

ـ لن أسأل ثانية.
ووقف وقال لـ«بود»:
ـ تعالَ، ولكنْ ليس أنت.
قالها لـ«سكارليت» وأضاف:
ـ ليس بعد. سوف أريه، ولو سمح لي فلسوف أريكِ أنتِ كذلك، اتفقنا؟
قالت «سكارليت»:
ـ اتفقنا.
قال مستر «فروست»:
ـ لن نتأخر. تعالَ أيها الشاب.
وقف «بود» ونظر في قلق لـ«سكارليت». قالت:
ـ كل شيء تمام.
وابتسمت له مُطمْئنةً قدر استطاعتها. قالت:

ـ سوف أنتظرك.
راقبَتْ ظلالهما وهما يبتعدان خارج الغرفة ويصعدان الدَّرج. شعرت بالتوتر لكنها كانت مليئة بالترقب. تساءلت عما سيعرفه «بود» وسرَّها أنه سيعرفه قبلها. هذه قصته بعد كل شيء. هذا حقه.
على الدَّرج تَقدم مستر «فروست» الطريق، نظر «بود» حوله وهو يمشي لِقمة البيت، لكنْ لم يبدُ له شيء مألوفًا. بدا كل شيء غريبًا.
قال مستر «فروست»:
ـ في الطريق للقمة.
وصعدا مجموعة أخرى من الدرجات. قال الرجل:
ـ لا.. حسن، يمكنك ألا تجيب إن لم تُرِد، لكن إممم.. لكنك ذلك الصبي، أليس كذلك؟
لم يقل «بود» شيئًا.
قال مستر «فروست»:
ـ ها نحن أولاء.
وأدار المفتاح في الباب عند قمة البيت، وفتحه ودخلا.
كانت الغرفة صغيرة. غرفة صندرة لها جدران منحدرة. منذ ١٣ سنة كان بها مهد، لكنها اليوم تتسع بصعوبة للرجل والفتى.
قال مستر «فروست»:
ـ ضربة حظ فعلًا. من تحت أنفي لو كان لي أن أقول هذا.
وانحنى راكعًا وسحب السجادة البالية.
سأله «بود»:
ـ إذن تعرف لماذا قُتلت أسرتي؟
قال مستر «فروست»:
ـ كل شيء هنا.
ومد يده إلى جزء من خشب الأرضية وضغط عليه ثم انتزعه من مكانه.
ـ هذه كانت غرفة الصبي. والآن سأريك الـ... أنت تعرف. ما لا نعرفه هو من

فعل هذا، لا شيء على الإطلاق. ليس لدينا أقل دليل.
قال «بود» في الغرفة التي كانت غرفة نومه يومًا ما:
ـ نعرف أنه كان بشعر أسود، ونعرف أن اسمه «جاك».
دس مستر «فروست» يده تحت خشب الأرضية وقال:
ـ مر ١٣ سنة على هذا. والشعر ينحلُ ويبيضُّ في ١٣ سنة. لكنْ أنت مُحق، اسمه «جاك» فعلًا.
ووقف. كانت اليد التي دسها في الحفرة في الأرض تحمل سكينًا ضخمة حادة.
وقال الرجل المدعو «جاك»:
ـ الآن يا صبي. حان وقت إنهاء هذا.
حدق «بود» فيه. بدا كأن مستر «فروست» كان مجرد قبعة أو معطف كان الرجل يلبسهما وتخلص منهما الآن. لقد زال مظهره الخارجي الدمث.
تألق الضوء على عوينات الرجل وعلى نصل السكين.
ناداهما صوت من أسفل الدَّرج، صوت «سكارليت»:
ـ مستر «فروست»؟ هناك من يدق الباب الأمامي. هل أفتح له؟
أبعد الرجل المدعو «جاك» عينيه للحظة، لكن «بود» عرف أنها فرصته الوحيدة. سرعان ما تلاشى تمامًا على قدر استطاعته. نظر الرجل المدعو «جاك» للخلف حيث كان «بود» ثم حملق في الغرفة، والذهول والغضب يتصارعان على وجهه. خطا أكثر داخل الغرفة ورأسه يتأرجح من جنب لجنب كأنه نمرٌ عجوز يشم رائحة فريسة.
زأر الرجل المدعو «جاك»:
ـ أنت هنا في مكان ما. يمكنني أن أشمك!
ومن خلفه انغلق الباب الصغير الذي يقود لغرفة النوم في العليَّة وسمع المفتاح يدور في القفل.
رفع الرجل المدعو «جاك» صوته:
ـ هذا يمنحك بضع دقائق لكنه لن يوقفني يا صبي.
هكذا نادى عبر الباب المغلق. وأضاف ببساطة:
ـ هناك أعمال لم تنتهِ بيني وبينك.
ألقى «بود» بنفسه أسفل الدَّرج وهو يصطدم بالجدران، ويوشك على أن يسقط فوق رأسه وهو يسعى ليجد «سكارليت».
قال عندما رآها:
ـ «سكارليت»! إنه هو! تعالَي!
ـ هو من؟ عن أي شيء تتكلم؟
ـ هو! «فروست»، إنه «جاك»، حاول أن يقتلني!
أتى صوت ارتطامٍ من أعلى إذ ركل الرجل المدعو «جاك» الباب.
ـ لكن...
حاولت «سكارليت» أن تجد منطقًا لما تسمعه.
ـ إنه لطيف.

قال «بود» وهو يمسك بيدها ويجذبها عبر أسفل الدَّرج إلى الممر:
ـ لا، ليس لطيفًا.
فتحت «سكارليت» الباب الأمامي.
قال الرجل الواقف على الباب وهو ينظر لها:
ـ مساء الخير أيتها السيدة الصغيرة! نحن نبحث عن مستر «فروست». أعتقد أنه يعيش في هذه المنطقة.
كان له شعر أبيض فضي وله رائحة الكولونيا.
سألته:
ـ هل أنتم أصدقاؤه؟
قال رجل صغير الحجم يقف في الخلفية:
ـ أه، نعم.
كان له شارب أسود صغير وهو الوحيد بين الرجال الذي يعتمر قبعة.
قال صوت ثالث لشاب ضخم أشقر كأهل الشمال:
ـ بالطبع نحن كذلك.
قال آخِر الرجال:
ـ كل رجل «جاك» منا.
كان ضخمًا كثَور، وله رأس عملاق. وكان أسمر البشرة.
قالت:
ـ هو.. مستر «فروست».. اضطر للرحيل.
قال الرجل أبيض الشعر:
ـ لكن سيارته هنا.
بينما قال الأشقر:
ـ من أنتِ على أي حال؟
قالت «سكارليت»:
ـ هو صديق أمي.
كان بوسعها أن ترى «بود» الآن لكنْ على الجانب الآخر من الرجال، وهو يشير بشكل محموم لها كي تفارق الرجال وتلحق به.
قالت بأكثر درجة لطف تستطيعها:
ـ لقد خرج فجأة. خرج لشراء جريدة، من المتجر عند الناصية هناك.
وأغلقت الباب خلفها ودارت حول الرجال وبدأت تمشي مبتعدة.
سألها الرجل ذو الشارب:
ـ إلى أين أنتِ ذاهبة؟
قالت:
ـ هناك حافلة يجب أن ألحق بها.
ومشت «سكارليت» لأعلى التل نحو موقف الحافلات والمقبرة، ولم تنظر للخلف قَطُّ.
مشى «بود» جوارها.. حتى بالنسبة لـ«سكارليت» بدا لها ظلًّا في الغسق الذي يزداد قتامة، كأنه شيء ليس هناك.. ومِيض حراري يتوهج.. ورقة تتحرك

بسرعة وللحظة تبدو كأنها ترسم صورة صبي.
قال «بود»:
ـ امشي أسرعَ، كلهم ينظرون لكِ. لكنْ لا تَجري.
سألته «سكارليت» في هدوء:
ـ من هم؟
قال «بود»:
ـ لا أعرف. لكنهم غريبو الأطوار، كأنهم ليسوا ناسًا حقيقيين. أريد أن أعود وأصغي لما يقولون.
قالت «سكارليت»:
ـ بالتأكيد هم بشر.
ومشت إلى قمة التل بأسرع ما استطاعت دون أن تجري فعلًا، ولم تعد واثقة إن كان «بود» ما زال بجوارها أم لا.
وقف الرجال الأربعة عند باب البيت ٣٣. وقال الرجل الضخم ذو عنق الثور:
ـ أنا لا أحب هذا.
قال الرجل أبيض الشعر:
ـ هل حقًّا لا تحب هذا يا مستر «قطران»؟ لا أحد فينا يحب هذا. كل شيء خطأ. كل شيء يتحرك بشكل خاطئ.
قال الرجل ذو الشارب:
ـ لقد انتهى مَن في كراكوف. لا يَردُّون. وبعد مِلبورن وفانكوفر.. على قدر علمي لم يبقَ سوانا نحن الأربعة.
قال الرجل أبيض الشعر:
ـ الهدوء من فضلك يا مستر «كِتش». أنا أفكر.
ـ أنا آسف.
قالها مستر «كِتش» ومسح شاربه بإصبع في قفاز. نظر لأعلى التل ثم لأسفله وصفَّر من بين أسنانه.
قال الرجل غليظ العنق أو مستر «قطران»:
ـ أعتقد أن علينا أن نلحق بها.
قال الرجل أبيض الشعر:
ـ أظن أن عليكم أن تصغوا لي يا قوم. طلبت أن تهدأوا. وكنت أقصد أن تهدأوا.
قال الرجل الأشقر:
ـ آسف يا مستر «داندي».
وساد الصمت.
وسط الصمت سمعوا صوت ضربات تأتي من أعلى داخل البيت.
قال مستر «داندي»:
ـ سأذهب لأرى. كن معي يا مستر «قطران». «نِمبل» و«كِتش» عليكما بالفتاة، أحضِراها هنا.
سأله مستر «كِتش» بابتسامة واثقة:
ـ حية أم ميتة؟

قال مستر «داندي»:
ـ حية يا أبله. أريد أن أعرف ما تعرفه.
قال مستر «قطران»:
ـ ربما هي واحدة منهم.. هؤلاء الذين آذونا في مِلبورن وفانكوفر و...
قال مستر «داندي»:
ـ اظفروا بها. اظفروا بها الآن.
أسرع الأشقر والرجل ذو القبعة والشاربِ نحو التل.
وقف مستر «داندي» ومستر «قطران» خارج باب البيت رقم ٣٣.
قال مستر «داندي»:
ـ اقتحِمه.
ضرب مستر «قطران» الباب بكتفه وثبَّت ثقله عليه وقال:
ـ إنه مدعم، محمي.
قال مستر «داندي»:
ـ لا يوجد شيء يفعله «جاك» ولا يقدر على التعامل معه «جاك» آخر.
ونزع قفازه ووضع يده على الباب، وغمغم بشيء في لغةٍ أقدمَ من الإنجليزية، ثم قال:
ـ الآن جرِّب.
انحنى مستر «قطران» على الباب وغمغم ودفع. هذه المرة استسلم القفل وانفتح الباب.
قال مستر «داندي»:
ـ هذا جميل.
دوَّى صوت تهشُّم من فوقهم عند قمة البيت.
قابلهم الرجل المدعو «جاك» في منتصف الدرجات. ضحك في وجهه مستر «داندي» دون أي علامة على المرح، لكنْ بأسنان ممتازة وقال:
ـ مرحبًا يا «جاك فروست». حسبناك قبضت على الصبي.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ فعلتُ ذلك لكنه فرَّ.
اتسعت ابتسامة «جاك داندي» أكثر وصارت أكثر إفزاعًا وأكثر كمالًا وقال:
ـ مرة واحدة هي غلطة يا «جاك»، مرتان كارثة.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ سوف نظفر به. هذا سينتهي الليلة.
قال مستر «داندي»:
ـ هذا خير لك.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ سيكون في المقبرة.
وانطلق الرجال الثلاثة يهبطون الدَّرج.
تشمم الرجل المدعو «جاك» الهواء. كانت رائحةُ الصبي في منخريه، ووخزةٌ في مؤخرة رأسه. شعر كأن هذا كله حدث منذ أعوام. صمت وجذب معطفه

الأسود المعلق في صالة المدخل متناقضًا مع سترة مستر «فروست» الصوفية ومعطفه الواقي من المطر.
كان الباب الأمامي مفتوحًا على الشارع وقد ولَّى ضوء النهار تقريبًا. هذه المرة كان الرجل المدعو «جاك» يعرف بالضبط إلى أين يذهب. لم يتوقف لكنه غادر البيت ببساطة وأسرع نحو المقبرة.
كانت بوابات المقبرة مغلقة عندما بلغتها «سكارليت». جذبتها بيأس لكنها كانت موصدة لليلةٍ. ثم فجأة وجدت «بود» جوارها فسألته:
ـ هل تعرف أين المفتاح؟
قال «بود»:
ـ لا وقت لدينا.
واندفع ملاصقًا للقضبان المعدنية وقال:
ـ ضعي ذراعيكِ حولي.
ـ أنت ماذا؟
ـ فقط لفِّي ذراعيكِ حولي وأغمضي عينيكِ.
حدقت «سكارليت» في «بود» كأنها تتحداه أن يجرب شيئًا، ثم التصقت به وأغمضت عينيها بقوة.
ـ حسن.
انحنى «بود» على القضبان التي تحيط ببوابة المقبرة، وتعتبر جزءًا منها، لذا تمنى لو أن «حرية المقبرة» التي يملكها يمكنها أن تشمل أناسًا سواه هذه المرة فقط. هنا كما الدخان انزلق «بود» عبر القضبان.
قال لها:
ـ افتحي عينيك.
قالت:
ـ كيف فعلت هذا؟
قال:
ـ هذا بيتي. يمكنني عمل كل شيء هنا.
هنا دوَّى صوت حذاء يضرب الرصيف، وظهر رجلان على جانب البوابة الآخر وهما يجذبانها لهما.
قال «جاك كِتش» وهو يشد شاربه:
ـ مرحبًا.
وابتسم عبر القضبان لـ«سكارليت» كأنه أرنب لديه سر. كان هناك خيط حريري أسود حول ساعده الأيسر، وقد بدأ الآن يجذبه بيده اليمنى. جذب الخيط عن ساعده ثم أمسك به في يده يختبره ويمرره من يد ليد كأنه يُعِد مهد قِط، وقال:
ـ تعالَي يا بنوتة. كل شيء تمام. لن يضركِ أحد.
قال الرجل الأشقر الضخم مستر «نِمبل»:
ـ فقط نريد أن تجيبي عن بعض الأسئلة. نحن في مهمة رسمية.
كان يكذب، لا يوجد شيء رسمي في هؤلاء «الجاكات»، برغم أن هناك

«جاكات» في الحكومات وفي الشرطة وأماكن أخرى بجانبها.
قال «بود» لـ«سكارليت» وهو يجذب يدها:
ـ اركضي!
فركضت.
قال «جاك» الذي يسمونه «كِتش»:
ـ هل رأيتَ هذا؟
ـ ماذا؟
ـ رأيتُ معها شخصًا. إنه صبي.
سأل «جاك» المسمَّى «نِمبل»:
ـ الصبي؟
ـ كيف لي أن أعرف؟ ارفع يدك.
مد الرجل الضخم يديه وعقدهما ليصنع منهما درجة، ثم سرعان ما صعدت عليها قدم «جاك كِتش» السوداء. إذ ارتفع.. تسلق لِقمة البوابات ووثب للممشى، فهبط على أربع كأنه ضفدع. توقف وقال:
ـ ابحث عن طريق آخر للدخول. سوف أتبعهما.
ثم أسرع في الطريق الذي يقود للمقبرة.
قالت «سكارليت»:
ـ قل لي ماذا نفعل.
كان «بود» يمشي بسرعة عبر المقبرة لكنه لم يكن يركض. ليس بعد.
ـ ماذا تَعنين؟
ـ أظن هذا الرجل أراد أن يقتلني. هل رأيت كيف كان يلعب بالخيط الأسود؟
ـ أنا متأكد من ذلك. هذا الرجل المدعو «جاك» ـ مستر «فروست» الخاص بكِ ـ كان سيقتلني. معه سكين.
ـ هو ليس مستر «فروست» الخاص بي. أعتقد أنه.. نوعًا ما كذلك. آسفة. إلى أين نحن ذاهبان؟
ـ أولًا نضعكِ في مكان آمن، ثم أتعامل معهما.
مِن حول «بود» كان سكان المقبرة ينهضون ويتجمعون قلقين متوترين.
قال «كايوس بومبيوس»:
ـ «بود»، ماذا يدور هنا؟
قال «بود»:
ـ أشرار، هل يمكن لجماعتنا أن تراقبهم؟ دعني أعرف أين هم في كل وقت. يجب أن نخفي «سكارليت» فهل من أفكار؟
قال «ثاكري بورنجر»:
ـ سرداب الكنيسة؟
ـ هذا أول مكان سيبحثان فيه.
سألت «سكارليت» وهي تنظر لـ«بود» كأنه قد جُنَّ:
ـ مع من تتحدث؟
قال «كايوس بومبيوس»:

ـ داخل التل؟
فكر «بود»:
ـ نعم، فكرة جيدة. «سكارليت»، هل تَذكرين المكان الذي قابلنا فيه الرجل النيلي؟
ـ نوعًا، مكان مظلم. أتذكر أنه لا يوجد شيء نخشاه.
ـ سوف آخذكِ هناك.
اندفعا عبر الممر. كان بوسع «سكارليت» أن تعرف أن «بود» كان يكلم الناس وهو ماضٍ، لكنها لم تسمع سوى جانب من المحاورة. كان هذا كسماع شخص يتكلم في الهاتف. الأمر الذي ذكَّرها...
قالت:
ـ أمي سوف تعاقبني، أنا ميتة.
قال «بود»:
ـ لا، لستِ ميتة، ليس بعد، ليس لفترة طويلة.
ثم قال لشخص آخر:
ـ اثنان منهم، الآن، معًا؟ حسن.
بلغا ضريح «فروبيشر»، فقال «بود»:
ـ المدخل خلف التابوت الأسفل على الشمال. لو سمعتِ من ينادي فهو ليس أنا. اهبطي للقاع. هل معكِ شيء يصلح للاستضاءة؟
ـ نعم، معي كشاف صغير في سلسلة مفاتيحي.
ـ ممتاز.
فتح باب الضريح وقال:
ـ خذي الحذر ولا تتعثري أو شيء من هذا القبيل.
سألته «سكارليت»:
ـ إلى أين أنت ذاهب؟
قال «بود»:
ـ هذا بيتي. أنا سأحميه.
ضغطت «سكارليت» على الكشاف ونزلت على يديها وركبتيها. كانت المساحة خلف التابوت ضيقة لكنها اجتازت الفتحة إلى داخل التل، وجرَّت التابوت ليسد مكانها أفضل ما يكون. وفي ضوء الكشاف الخافت كان بوسعها أن ترى الدرجات الحجرية. وقفت ويدُها على الجدار وهبطت ثلاث درجات، ثم توقفت وجلست، آملة أن يكون «بود» ملمًّا بما يفعله. وانتظرت.
قال «بود»:
ـ أين هم الآن؟
قال أبوه:
ـ أحدهم عند الممشى الفرعوني يبحث عنك. صديقه ينتظر عند جدار الزقاق. هناك ثلاثة آخرون في الطريق. يتسلقون جدار الزقاق ومعهم صناديق كبيرة.
ـ ليت «سيلاس» كان هنا. كان سينتهي منهم بسرعة. هو أو مس «لوبسكو».

قال مستر «أوينز» مشجعًا:
ـ لن تحتاج لهم.
ـ أين أمي؟
ـ تحت عند جدار الزقاق.
ـ قل لها إنني أخفيت «سكارليت» في مؤخرة ضريح «فروبيشر». سَلْها أن تراقبها حتى لا يحدث لها شيء.
وركض «بود» عبر المقبرة المظلمة. كان الطريق الوحيد لشمال غرب المقبرة عبر الممشى الفرعوني. للوصول إلى هناك كان عليه أن يمر بالرجل الصغير الذي يحمل خيطًا حريريًّا أسود. رجل يبحث عنه ويريد قتله...
قال لنفسه إنه «لا أحد أوينز». إنه جزء من المقبرة، ولسوف يكون بخير.
كاد يفقد الرجلَ صغير الحجم ـ «جاك» المدعو «كِتش» ـ وهو يسرع إلى الممر الفرعوني. كان الرجل تقريبًا جزءًا من الظلال.
استنشق «بود» بقوة وتلاشى بعمق قدر ما استطاع. مر بالرجل كأنه غبار يهبُّ في نسيم الليل. مشى عبر الممشى الفرعوني الأخضر ثم بقوة الإرادة صار واضحًا قدر استطاعته.. وركل قطعة زلط. رأى الظل عند القوس يتحرر ويلحق به.. صامتًا كأنه الموت. اجتاز «بود» صف الصفصاف الذي يسد نهاية الممر، ثم إلى الجزء الشمالي الشرقي من المقبرة. كان عليه أن يحدد الوقت بدقة كما يعرف. لو أسرع فلسوف يَضيع منه الرجل. ولو تحرك ببطء لالتف حبل أسود من حرير حول عنقه ليسلبه أنفاسه وكل غدٍ آتٍ له.
اندفع بصخب عبر غابة من أشجار اللبلاب، وأثار ذعرَ ثعلب من ثعالب المقبرة العديدة التي تركض تحت الشجيرات. كانت هنا غابة من شواهد القبور وتماثيل بلا رؤوس وأشجار وأكوام زلقة من أوراق الشجر نصف المتعفنة، لكنها كانت غابة استكشفها «بود» منذ كانت سنُّه تسمح له بالمشي والتجوال.
الآن كان يندفع حذرًا، يخطو من جذور متشابكة للبلاب، إلى صخرة إلى الأرض. واثقًا من أن هذه مقبرته. كان يشعر بالمقبرة نفسها تحاول أن تخفيه. تجعله يتوارى. وكان هو يقاوم ويجاهد كي يراه الناس.
رأى «نيريمياه تروت» وتردد.
نادى الشاعر:
ـ هولا يا «بود» الصغير. أسمع أن الإثارة هي سيد اللحظة وأنت تندفع عبر هذه المناطق كأنك نيزك يجتاز السماوات. ماذا تنوي يا «بود» الطيب؟
قال «بود»:
ـ قف هناك. فقط حيث أنت. انظر من حيث جئت. قل لي عندما يدنو.
دار «بود» حول قبر «كارستيرز» المغطى باللبلاب، ثم وقف. كان يلهث كأنه عاجِز عن التنفس بينما ظهرُه لمن يبحث عنه.
انتظَر. كان هذا لبضع ثوانٍ لكنه شعر كأنها دهر قصير.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ إنه هنا أيها الشاب. على بعد عشرين خطوة خلفك.
«جاك» المدعو «كِتش» رأى الصبي أمامه. شد الحبل الأسود الحريري بين

يديه. لقد لفه حول أعناق عديدة على مر السنين. وقد أنهى حياة كل إنسان التف حول عنقه. كان ناعمًا وقويًّا ولا تراه أشعة X. وتحرك شارب «كِتش» لكنْ لا شيء سواه. لقد ظفر بفريسته على مرأى البصر ولم يُرِد أن يُفزعها. بدأ يتقدم صامتًا كالظل.
انتصب الصبي واقفًا.
اندفع «جاك» للأمام وحذاؤه الأسود اللامع بلا صوت على الأرض المغطاة بالأوراق العفنة.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ لقد جاء أيها الشاب.
استدار الصبي فوثب «جاك» عليه.
شعر مستر «كِتش» بالعالم ينهار من تحته. تمسك بالعالم بيد واحدة حولها قفاز، لكنه سقط في القبر القديم، نحو عشرين قدمًا، حتى سقط فوق تابوت مستر «كارستيرز». وهشم غطاء التابوت وكاحله في اللحظة ذاتها.
قال «بود» بهدوء برغم أنه كان بعيدًا عن الهدوء:
ـ هذا واحد.
قال «نيريمياه تروت»:
ـ تم الأمر بأناقة. سوف أكتب قصيدة غنائية. هل تريد أن تبقى وتسمع؟
قال «بود»:
ـ لا وقت لذلك. أين الرجل الآخر؟
قالت «يوفيميا هورسفول»:
ـ ثلاثة منهم في الممر الجنوبي الغربي يتجهون للتل.
قال «توم ساندز»:
ـ وهناك آخر. هو الآن يمشي حول الكنيسة. إنه الذي يمشي حول المقبرة طوال الشهر الماضي. لكنْ ثمة شيء غريب بصدده.
قال «بود»:
ـ راقِبوا الرجل الذي مع مستر «كارستيرز»، ومن فضلكم اعتذروا لمستر «كارستيرز» عني.
توارى تحت غصن صنوبر، وتبختر حول التل متى وجد هذا ملائمًا. ما زال هناك أربعة منهم.
قال صوت أنثوي حادٌّ:
ـ أربعة منهم. وكلهم قتلة. والباقون لن يسقطوا في قبور مفتوحة كي يجاملوك.
ـ مرحبًا «ليزا»، حسبتكِ غاضبة مني.
قالت ولم يظهر منها سوى صوت:
ـ ربما أكون وربما لا، لكني في جميع الظروف لن أتركهم يذبحونكَ.
ـ إذن أوقعيهم في الفخ، أوقعيهم في الفخ وحيِّريهم واجعلي حركتهم بطيئة، هل هذا بوسعكِ؟
ـ وتجري ثانية يا «لا أحد أوينز»؟ لمَ لا تتلاشى فحسب وتتوارى في قبر أمك

اللطيف؟ حيث لن يجدوك أبدًا. وسرعان ما يعود «سيلاس» ليُعنى بهم.
قال «بود»:
ـ ربما يفعل أو لا يفعل. سأقابلكِ عند شجرة البرق.
قالت «ليزا همبستوك» وهي فخور كأنها طاووس، مفعمة بالحيوية كأنها ببغاء:
ـ ما زلت لا أكلمك.
ـ في الحقيقة نحن نتكلم فعلًا الآن.
ـ فقط لأن هذه حالة طوارئ. بعد هذا ولا كلمة.
اتجه «بود» لشجرة البرق. وهي شجرة بلوط أحرقتها الصواعق منذ عشرين سنة ولم تعد سوى طرف محترق يطبق على السماء. خطرت له فكرة، لم تتشكل بعد، كانت تعتمد على تذكُّره لدروس مس «لوبسكو»، وتذكُّره لكل شيء رآه وسمعه في طفولته. كان العثور على القبر أصعب مما توقَّع. لكنه وجده فعلًا. قبر قبيح في زاوية غريبة، وشاهدُه يعلوه ملاك بلا رأس، مبتلٌّ بالماء له منظر فطرٍ عملاق. عندما تحسسه وشعر بالقشعريرة، عرف أنه المقصود بالتأكيد.
جلس على القبر وأرغم نفسه على أن يصير مرئيًّا بالكامل.
جاء صوت «ليزا»:
ـ أنت لم تتلاشَ، يمكن أن يجدك أيُّ شخص.
قال «بود»:
ـ جميل، أريدهم أن يجدوني.
قالت «ليزا»:
ـ «إن مَن يعرفون «جاك» الأحمق أكثرُ ممن يعرفهم «جاك» الأحمق»([12]).
كان القمر يرتفع. كان الآن عملاقًا منخفضًا في السماء. تساءل «بود» هل ستكون مبالغة لو بدأ يُصفر.
ـ يمكنني أن أراه!
جرى رجل نحوه وهو يتعثر ويقع، ثم جاء رجلان خلفه مباشرة.
كان «بود» يشعر بالموتى المحتشدين حوله يراقبون المشهد، لكنه كان مضطرًّا لتجاهلهم. وجلس على القبر القبيح في وضع مريح. شعر بأنه طُعم في مصيدة ولم يكن شعورًا طيبًا.
كان الرجل الشبيه بالثور أول من وصل إلى القبر يتبعه ذو الشعر الأبيض الذي كان يتكلم كل الكلام، ثم جاء الرجل الأشقر.
ظل «بود» حيث هو.
قال الرجل ذو الشعر الأبيض:
ـ آه، الصبي «دوريان» المراوغ على ما أفترض. صديقنا «جاك فروست» يصطاد في كل مكان بالعالم وأنت هنا، مذهل، حيث تركك منذ ١٣ عامًا.
قال «بود»:
ـ هذا الرجل قتل أهلي.
ـ نعم فعل ذلك.
ـ ولماذا؟

ـ هل هذا يهم؟ لن تخبر أي شخص على كل حال.
ـ إذن لا يعنيك أن تخبرني. أليس كذلك؟
أطلق الرجل أبيض الشعر ضحكة كالنباح وقال:
ـههه، مضحك يا صبي. ما أريد معرفته هو: كيف استطعت أن تحيا في مقبرة ١٣ سنة من دون أن يلاحظك أحد؟
ـ سأجيب عن سؤالك لو أجبت عن سؤالي.
قال الرجل ذو العنق الشبيه بعنق الثور:
ـ لا تكلم مستر «داندي» بهذه الطريقة أيها القذر الصغير، سوف أقسمك نصفين، سوف...
تقدم أبيض الشعر خطوة أخرى قرب القبر، وقال:
ـ صه يا «جاك» «القطران». حسن، إجابة لإجابة. نحن وأصدقائي أعضاء في منظمة أخوية معروفة باسم «جاك كثير الحِرَف» أو «المحتالون» أو أسماء أخرى. نحن منذ زمن سحيق نعرف ذلك. نتذكر أشياء نسيها معظم الناس. المعرفة القديمة.
قال «بود»:
ـ والسحر، أنت تعرف بعض السحر.
هز الرجل رأسه موافقًا وقال:
ـ لو أردت أن تدعوه كذلك. لكنه نوع معين جدًّا من السحر، هناك سحر تأخذه من الموت، يفارق شيءٌ العالمَ فيدخله شيءٌ آخر.
ـ وقتلتم أسرتي لأي سبب؟ للسحر؟ هذا سخف.
ـ لا، قتلناكم للحماية. منذ زمن سحيق كان واحد من قومنا، كان هذا في مصر أيام الأهرام، تنبأ هذا الواحد بهذا اليوم؛ سوف يُولد صبي يَعبر الحاجز بين الأحياء والأموات. لو كبر هذا الصبي فهذا معناه نهاية جماعتنا وكلِّ ما ندافع عنه. لدينا أصول منذ كانت لندن مجرد قرية. كنا نراقب أسرتك قبلَ أن تصير أمستردام الجديدة هي نيويورك. أرسلنا من خطرَ لنا أنه الأفضل والأكثر فعالية وخطرًا من كل «الجاكات» ليتعامل معك. كي نجعل الشياطين تعمل معنا بدلًا من ذلك. وكي نُبقي كل شيء تحت السيطرة لخمسة آلاف سنة أخرى. لكنه لم يفعل.
نظر «بود» للرجال الثلاثة وقال:
ـ إذن أين هو؟ لمَ ليس هنا؟
قال الرجل الأشقر:
ـ يمكننا أن نُعنى بك. إنه ـ «جاك فروست» هذا ـ يشم جيدًا. وهو يتبع صديقتك الصغيرة. لا يمكن ترك أي شهود، ليس في أمر كهذا.
انحنى «بود» للأمام وغرس يديه في العشب النامي على قبر مهمل وكان كل ما قاله:
ـ تعالوا واظفروا بي.
ضحك الرجل الأشقر كاشفًا عن أسنانه واستنشق الرجل ذو عنق الثور بقوة. وحتى مستر «داندي» تقدم بضع خطوات للأمام.

دفع «بود» أصابعه بعمق في العشب قدر ما استطاع وتراجعت شفتاه عن أسنانه، وقال ثلاث كلمات بِلغة عتيقة جاءت قبل أن يُولد الرجل النيلي:
ـ سكاه! ثيه! كافِجاه!
وفتح بوابة الغيلان.
انفتح القبر كأنه باب مصيدة، وفي الحفرة العميقة تحت الباب استطاع «بود» أن يرى النجوم. الظلام الذي تملأه أضواء متوهجة.
لم يستطع الرجل الثور ـ مستر «قطران» ـ أن يتوقف عند حافة الحفرة، وغاب مندهشًا في الفتحة. وثب مستر «نِمبل» نحو «بود» وقد مد يديه وانحنى على الحفرة. راقب «بود» بينما الرجل يتوقف في الهواء في ذروة وَثْبته وتعلق هناك للحظة، ثم امتصته بوابة الغيلان لأسفل وأسفل.
وقف مستر «داندي» عند حافة بوابة الغيلان، على حافة حجرية ونظر للظلام تحته. هنا رفع عينيه لـ«بود» وابتسم بشفتين رفيعتين.
قال مستر «داندي»:
ـ لا أعرف ما فعلته، لكنه لم ينجح.
وأخرج يده المكسوة بقفاز من جيبه ممسكًا بسلاح، وصوبه على «بود» قائلًا:
ـ كان يجب أن أفعل هذا منذ ١٣ سنة. لا يمكن أن تثق بالآخرين. لو كان الأمر مهمًّا فعليك أن تفعله بنفسك.
هبت ريح صحراوية من بوابة الغيلان المفتوحة، وكانت حارة جافة. قال «بود»:
ـ هناك بلدة صحراوية. هناك لو بحثت عن الماء يجب أن تجد بعضه. هناك ما تأكله لو بحثت بعناية لكنْ لا تواجه عفاريت الليل. تجنَّبْ غولهايم. الغيلان قد تمسح ذاكرتك وتجعلك واحدًا منها، أو ربما تنتظر حتى تتعفن ثم تأكلك. في جميع الظروف هناك خيارات أفضل.
لم تهتز ماسورة السلاح. قال مستر «داندي»:
ـ لمَ تقول لي هذا؟
أشار «بود» للمقبرة وقال:
ـ بسبب هؤلاء.
إذ قال هذا نظر مستر «داندي» لبعيد فتلاشى «بود» في ذات اللحظة. ارتجفت عينا «داندي» بحثًا عنه، لكن «بود» لم يعد جوار التمثال المحطم. من أعماق الحفرة نادى شيء كأنه عويل طائر ليلي.
نظر مستر «داندي» حوله وقد قطب جبينه وصار جسده كتلة من الغضب والارتباك. زأر قائلًا:
ـ أين أنت، فليأخذك الشيطان، أين أنت؟
خطر له أنه سمع صوتًا يقول:
ـ بوابات الغيلان صُنعت لتُفتح ثم تُغلق. لا يمكنك تركها مفتوحة. تريد أن تنغلق.
اهتزت حوافُّ الحفرة، كان مستر «داندي» قد وجد نفسه مرة منذ أعوام وسط زلزال في بنجلاديش، وقد شعر بذات الشعور. تعثر مستر «داندي» وكاد يسقط في الظلام، لكنه تمسك بشاهد القبر الساقط ولف ذراعيه حوله. لم يدرِ ما تحته. فقط لم يُرِد أن يعرف.

اهتزت الأرض وشعر بأن شاهد القبر يتزحزح تحت ثقله.
نظر لأعلى، كان الصبي هناك ينظر لأسفل في فضول.
قال «بود»:
ـ سأترك البوابة تُغلق. لو ظللت متمسكًا بهذا الشيء فقد ينغلق عليك ويهشمك. ربما يمتصك لتصير جزءًا من البوابة. لا أعرف، لكنْ سأمنحك فرصة، فرصة أكبر مما منحتها لأسرتي.
نظر مستر «داندي» لأعلى في عينَي الصبي الرماديتين وأطلق سبة. ثم قال:
ـ لن تهرب أبدًا. نحن «الجاكات» كثيرو الحِرَف. نحن في كل مكان. الأمر لم ينتهِ.
قال «بود»:
ـ انتهى بالنسبة لكم. نهاية قومكم وكل ما تدافعون عنه. كما تنبأ رجلكم في مصر. أنتم لم تقتلوني. كنتم في كل مكان والآن انتهى الأمر.
ثم ابتسم «بود» وقال:
ـ هذا ما يفعله «سيلاس»، أليس كذلك؟ هذا هو المكان الذي يوجد فيه.
أكد وجه مستر «داندي» كل شيء شك فيه «بود».
أما ما قد يكون مستر «داندي» قد قاله فلن يعرفه «بود» أبدًا، لأن الرجل تخلى عن شاهدِ القبر وسقط ببطء في بوابة الغيلان المفتوحة.
قال «بود»:
ـ ويه كيرادوس.
عادت بوابة الغيلان مقبرة من جديد، ولا شيء غير هذا.
كان هناك شيء يشد كمه. نظر له «فورتنبراس بارتلبي» وقال:
ـ «بود»! الرجل عند الكنيسة. يرتقي التل.
مضى الرجل المدعو «جاك» يتبع أنفه. كان قد ترك الآخرين، ربما لأن رائحة الكولونيا التي يضعها «جاك داندي» جعلت أي شيء آخر محتملًا. لم يجد الصبيَّ بالرائحة. ليس هنا. إن الصبي له رائحة المقبرة، لكن الفتاة لها رائحة بيت أمها، ولمسة العطر التي وضعتها على عنقها قبل المدرسة هذا الصباح. كانت لها رائحة ضحية، رائحة عرق الخوف. هكذا فكر فيها «جاك» كطريدة.
حيثما كانت، كان الصبي هناك عاجلًا أو آجلًا.
قبض يده على مقبض السكين وارتقى التل. كاد يبلغ القمة، عندما خطر له حدس أدرك أنه حقيقي. أن «جاك داندي» والآخرين رحلوا. قال لنفسه: جيد! هناك دومًا مكان عند القمة. كان صعود الرجل المدعو «جاك» عبر المنظمة بطيئًا، وتوقف بعد فشله في قتل كل أسرة «دوريان». كأنهم لم يعودوا يثقون به ثانية.
الآن سيتغير كل شيء.
عند قمة التل لم يعد يشم عطر الفتاة. عرف أنها قريبة.
تراجع في المشي وشم رائحة عطرها من جديد على بعد خمسين قدمًا جوار ضريح صغير له بوابة حديدية مغلقة. فتح البوابة عن آخرها.
كانت رائحتها قوية الآن. شمَّ أنها خائفة. شد التوابيت واحدًا تلو آخر من الأرفف وتركها تتهشم على الأرض. تهشم الخشب العتيق وانسكب ما في التوابيت

على أرض الضريح. كلا، هي لا تتوارى في أحدها، أين هي؟
تفحص الجدار، صلب. ركع على يديه وركبتيه وشد آخِر تابوت وتراجع. هنا وجدت يدُه فتحة.
صاح:
ـ «سكارليت».
كان يحاول تذكُّر كيف كان يناديها عندما كان مستر «فروست». لكنه لم يستطع أن يجد هذا الجزء من ذاته ثانية. لقد عاد الرجل المدعو «جاك» ثانية، وهذه هي حقيقته. على يديه وركبتيه زحف عبر الحفرة في الجدار. سمعت «سكارليت» صوت التهشم من أعلى فشقت طريقها بحذر نازلة الدرجات، ويدها اليسرى تتحسس الجدار. وفي يدها اليمنى كان الكشاف الصغير المتدلي من المفاتيح. كان يلقي ضوءًا يكفي كي ترى موطئ قدميها. وصلت أسفل الدرجات الحجرية ثم الغرفة المفتوحة، وقلبها يتواثب. كانت مذعورة، مذعورة من مستر «فروست» اللطيف وأصدقائه المفزعين. خائفة من غرفته وذكرياتها. بل إنها ـ لو شئنا الأمانة ـ كانت خائفة من «بود» نفسه. لم يعد مجرد صبي هادئ لديه سرٌّ يربطها بطفولتها، لقد صار شيئًا مختلفًا، أحيانًا لا يبدو بشريًّا جدًّا.
وتساءلت: ترى ماذا تفكر فيه ماما الآن. لا بد أنها تتصل بمنزل مستر «فروست» مرارًا لتعرف موعد عودتي. وفكرت: لو خرجت من هنا حية فلسوف أرغمها على شراء هاتف محمول لي. هذا سخيف. أنا الشخص الوحيد في صفي الذي لا يملك هاتفًا محمولًا.
فكرت: أنا أفتقد أمي.
لم تتوقع قَطُّ أن كائنًا بشريًّا يمكن أن يتحرك بهذا الصمت عبر الظلام، لكن يدًا ذات قفاز وُضعت على فمها. وسمعت صوتًا ميزته بصعوبة هو صوت مستر «فروست». قال لها بلا انفعال:
ـ افعلي شيئًا بارعًا، افعلي أي شيء على الإطلاق، ولسوف أقطع حلقومكِ. هُزِّي رأسكِ لو كنتِ تفهمين.
هزت «سكارليت» رأسها.
رأى «بود» الفوضى على أرضية ضريح «فروبيشر»، ورأى التوابيت الساقطة ومحتوياتها مبعثرة عبر الممر. هناك الكثير من آل «فروبيشر» وآل «بيتيفير» كلهم في حالة من الارتباك والذعر.
قال «إفرايم»:
ـ إنه تحت هنا.
قال «بود»:
ـ شكرًا.
وانحدر عبر الحفرة إلى داخل التل ثم هبط الدرجات.
رأى «بود» ما رآه الموتى؛ رأى الدرجات والغرفة في الأسفل. عندما بلغ منتصف المسافة رأى الرجل المدعو «جاك» يمسك بـ«سكارليت». كان يمسك بذراعها خلف ظهرها وبسكين لنزع العظام مخيفةٍ عملاقةٍ على

عنقها. نظر الرجل المدعو «جاك» في الظلام وقال:
ـ مرحبًا يا فتى.
لم يقل «بود» أي شيء. وركز على تلاشيه وتقدم للأمام خطوة.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ تحسب أنني لن أراك وأنت مُحق، لا أستطيع، ليس بالضبط. لكني أشم رائحة خوفك وأسمعك تتحرك وأسمعك تتنفس. وبما أنني أعرف أساليبك البارعة في الاختفاء يمكن أن أشعر بك. قل شيئًا الآن. قله فأسمعك وإلا سأبدأ بقَطْع قِطَع صغيرة من فَتاتك الشابة. هل تفهمني؟
قال «بود» وصوته يتردد في الغرفة:
ـ نعم، أنا أفهم.
قال «جاك»:
ـ جميل، تعالَ هنا ودَعْنا نتكلم قليلًا.
بدأ «بود» يهبط الدرجات. كان يركز على الخوف. أن يرفع الهلع في الغرفة. أن يجعل الذعر شيئًا ملموسًا.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ كُف عن هذا، مهما كان ما تفعله فلا تفعله.
توقف «بود».
قال «جاك»:
ـ تعتقد أن بوسعك ممارسة السحر معي؟ هل تعرف من أنا يا صبي؟
قال «بود»:
ـ أنت «جاك» وقد قتلت أسرتي، وكان عليك أن تقتلني.
رفع «جاك» حاجبه وقال:
ـ كان عليَّ أن أقتلك؟
ـ نعم، الرجل المسن قال إنك لو تركتني أكبرُ إلى أن أصير بالغًا فلسوف يؤدي هذا لتدمير جماعتكم. أنا فعلت هذا، أنتم فشلتم وخسرتم.
ـ تاريخ جماعتي يمتد لأيام بابل. لا شيء يمكن أن يؤذيها.
كان «بود» يقف على بعد خمس خطوات من الرجل المدعو «جاك». فقال:
ـ ألم يخبروك؟ هؤلاء الأربعة كانوا آخر «جاكات». ماذا كان هذا... كراكوف وفانكوفر ومِلبورن. كلهم رحلوا.
قالت «سكارليت»:
ـ أرجوك يا «بود»، دعه يطلق سراحي.
قال «بود» بهدوء لا يملكه:
ـ لا تقلقي.
وقال لـ«جاك»:
ـ لا معنى لأن تؤذيها. ألا تفهمني؟ ليست هناك جماعة «جاكات» كثيرو الحِرَف، ليس الآن.
أطرق «جاك» برأسه مفكرًا ثم قال:
ـ لو كان هذا صحيحًا. ولو صرتُ اليوم «جاك الوحيد» فلديَّ سبب ممتاز لقتلكما

معًا.
لم يقل «بود» أي شيء.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ الكبرياء. الكبرياء فيما أقوم به. الكبرياء في إنهاء ما بدأت.
تصلب شعر «بود». كان يشعر بوجود الممسات الدخانية عبر الغرفة. قال:
ـ ليس أنا، بل هو السفاح. إنه يحرس الكنز المدفون هنا.
ـ لا تكذب.
قالت «سكارليت»:
ـ هو لا يكذب، بل هي الحقيقة.
قال «جاك»:
ـ حقًّا؟ كنز مدفون؟ لا تجعلني...
ـ السفاح يحرس الكنز من أجل السيد.
سأل الرجل المدعو «جاك» وهو ينظر حوله:
ـ من قال هذا؟
سأله «بود» مندهشًا:
ـ هل سمعت هذا؟
قال «جاك»:
ـ سمعته، نعم.
قالت «سكارليت»:
ـ لم أسمع أي شيء.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ ما هذا المكان يا صبي؟ أين نحن؟
قبل أن يتكلم «بود» تكلم السفاح وصوته يجلجل عبر الحجرة.
ـ هذا مكان الكنز. هذا مكان القوة. هذا حيث يحرس السفاح وينتظر عودة سيدنا.
قال «بود»:
ـ «جاك»؟
ميَّل «جاك» رأسه لجنبٍ وقال:
ـ جميل أن أسمع اسمي في فمك يا صبي. لو استعملتَه من قبل لوجدتُك أسرع من هذا.
ـ «جاك»، ما اسمي الحقيقي؟ بم كانت أسرتي تناديني؟
ـ فيمَ يهمك هذا الآن؟
قال «بود»:
ـ السفاح طلب أن أجد اسمي. ماذا كان؟
قال «جاك»:
ـ فلنرَ، أكان «بيتر» أم «بول» أم «رودريك»؟ تبدو لي «رودريك»، ربما كنت «ستيفن».
كان يعبث بالصبي.

قال «بود»:
ـ يمكنك أن تخبرني، إنك ستقتلني في جميع الظروف.
فهز «جاك» كتفيه وأحنى رأسه في الظلام كأنه يقول واضح طبعًا.
قال «بود»:
ـ أريدك أن تطلق سراح الفتاة. دع «سكارليت» تمضي.
حملق «جاك» في الظلام وقال:
ـ هذا مذبح محراب. أليس كذلك؟
ـ أظن هذا.
ـ وسكين؟ وقدح؟ وبروش؟
كان الآن يبتسم في الظلام. كان بوسع «بود» أن يرى هذا على وجهه. ابتسامة صافية غريبة لا يبدو أن مكانها هذا الوجه. ابتسامة الكشف والفهم.
لم ترَ «سكارليت» سوى الظلام الذي كانت وهجاتٌ تخترقه أحيانًا داخل عينيها، لكنها سمعت السرور في صوت «جاك».
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ إذن انتهت الأخوَّة وانفضت الاجتماعات السرية، وحتى لو لم يعد هناك أي «جاك» سواي فما المشكلة؟ يمكن أن توجد أخوية أخرى أقوى من الأخيرة.
جلجل السفاح:
ـ قوَّة.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ هذا ممتاز. انظروا لنا. نحن في مكان سكنه قومي منذ آلاف السنين، وفيه كل ما يلزم للمراسم التي ننتظرها. هذا يجعلك تؤمن بالعناية الإلهية. أليس كذلك؟ تؤمن بصلوات كل «الجاكات» الذين سبقونا. فحتى في أضعف حالاتنا أعطَيْنا هذا.
شعر «بود» بالسفاح يصغي لكلمات «جاك». وشعر بنوع من الحماسة تتجدد في الغرفة.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ سأمد يدي يا صبي. سكيني ما زالت تحت حلقكِ يا «سكارليت»، لا تحاولي الهرب عندما أطلق سراحكِ. سوف تضع القدح والبروش والسكين في يدي يا صبي.
همس الصوت الثلاثي:
ـ كنز السفاح، إنه دومًا يعود. نحن نحرسه للسيد.
انحنى «بود» والتقط الأشياء من على صخرة المذبح ووضعها في يد «جاك» ذات القفاز. ضحك «جاك».
ـ «سكارليت»، سوف أُطلق سراحكِ. عندما أُبعد السكين أريد أن ترقدي ووجهكِ للأرض ويداكِ خلف رأسكِ. تحركي أو حاولي فِعل أي شيء وإلا سوف أقتلكِ قتلة أليمة. هل تفهمين؟
ابتلعت ريقها. كان فمها جافًّا لكنها خطَت للأمام. كانت يدها اليمنى التي كانت ملتوية خلف ظهرها قد صارت منملة، وشعرت بدبابيس في كتفيها.

رقدت وخدها يستريح على الأرض.
قالت لنفسها: انتهى أمرنا. ولم تشعر بأي عاطفة وهي تفكر في هذا. شعرت كأنها تراقب شيئًا يحدث لناس آخرين. دراما سيريالية صارت لعبة قتل في الظلام. سمعت ضجيجًا إذ أمسك «جاك» بـ«بود»...
قال «بود»:
ـ اتركها.
قال صوت الرجل «جاك»:
ـ لو فعلتَ كما أقول تمامًا فلن أقتلها، لن أؤذيها حتى.
ـ لا أصدقك، إن بوسعها التعرف عليك.
جاء صوت «جاك» مليئًا بالثقة:
ـ لا، لا تستطيع.
ثم قال:
ـ عشرة آلاف سنة، والسكين ما زالت حادة.
وكان الإعجاب في صوته واضحًا.
ـ يا صبي. اذهب واركع على حجر المذبح هذا. يداك خلف ظهرك الآن.
ـ مر وقت طويل.
كذا قال السفاح، لكن ما سمعته «سكارليت» كان صوتًا يزحف كأن لفات عملاقة تتلوى حول الغرفة.
لكن الرجل المدعو «جاك» سمع:
ـ هل تريد أن تعرف اسمك يا صبي قبل أن أسكب دمك على الحجر؟
شعر «بود» بنصل السكين البارد على عنقه. وفي هذه اللحظة فهم. وبدا كأن كل شيء يتحرك ببطء.
كل شيء.
صار في مركز البؤرة فقال:
ـ أنا أعرف اسمي. أنا «لا أحد أوينز». هذا اسمي.
ثم انحنى على المذبح الأسود وبدا له كل شيء بسيطًا.
سأل السفاحَ:
ـ هل ما زلت تبحث عن سيد؟
ـ السفاح يحرس الكنز حتى يعود السيد.
قال «بود»:
ـ حسن، ألم تجد السيد بعد؟
شعر بالسفاح يتلوى زاحفًا ويتمدد. سمع ضوضاء كأنها خدش ألف غصن ميت. كأن شيئًا ضخمًا عضليًّا يزحف حول وداخل الغرفة. وهنا لأول مرة رأى «بود» السفاحَ. بعدها عجز تمامًا عن وصف ما رآه. شيء ضخم نعم. شيء له جسم ثعبان عملاق. لكنْ له رأس؟ هناك ثلاثة منها، ثلاثة رؤوس وثلاثة أعناق. الوجوه كانت ميتة كأن هناك من صنع دُمى من أجزاء جثث بشرية وحيوانات. كانت الوجوه مغطاة بلون قرمزي وعليها وشم بلون نيلي على شكل حلقات، فصارت الوجوه أشياء معبرة مخيفة.

تشممت وجوهُ السفاح الهواء حول «جاك» في تردد، كأنها تريد أن تربت عليه.
سأل «جاك»:
ـ ماذا يحدث؟ ماذا يفعل؟
قال «بود»:
ـ اسمه السفاح. وهو يحرس المكان. يحتاج لسيد يخبره بما يعمله.
رفع «جاك» السكين في يده وقال لنفسه:
ـ جميل، بالطبع هو ينتظرني، ونعم، واضح أنني سيده الجديد.
أحاط السفاح بقلب الغرفة:
ـ يا سيد؟
قالها كأنه كلب انتظر طويلًا بصبر.
من جديد قال:
ـ سيد؟
كأنه يجرب الكلمة ليرى مذاقها. بدا له جيدًا لذا قالها مرة أخرى. وبتنهيدة اشتياق وحنين قال:
ـ سيد!
نظر «جاك» لـ«بود» وقال:

ـ منذ ١٣ عامًا مضت أضعتك. الآن عدنا للقاء. نهاية جماعة وبداية أخرى. وداعًا يا صبي.
وبيد واحدة مال بالمدية على عنق الفتى، وباليد الأخرى أمسك بالكأس.
قال «بود»:
ـ اسمي «بود» وليس الصبي. «بود».
وبصوت عالٍ صاح:
ـ أيها السفاح. ماذا ستفعل بسيدك الجديد؟
تنهد السفاح وقال:
ـ سنحميه حتى نهاية الزمن. السفاح سوف يحبسه في لفائفه إلى الأبد، ولن يجعله يعاني مخاطر العالم.
قال «بود»:
ـ إذن فلتحمِه، الآن.
قال الرجل المدعو «جاك»:
ـ أنا سيدك، سوف تطيعني.
ـ لقد انتظر السفاح طويلًا.
قالها الصوت الثلاثي للسفاح منتصرًا.
ـ طويلًا جدًّا.
وبدأ يلتف بدوراته الكسول الضخمة حول الرجل المدعو «جاك». أسقط الرجل المدعو «جاك» الكأس. الآن معه سكين في كل يد، سكين من حجر الصوان وسكين لها مقبض من العظم الأسود. لذا قال:
ـ عُدْ.. ابتعِد عني! لا تدنُ.
وراح يطعن الهواء بالسكين بينما السفاح يلتف من حوله، وبحركة عاصرة

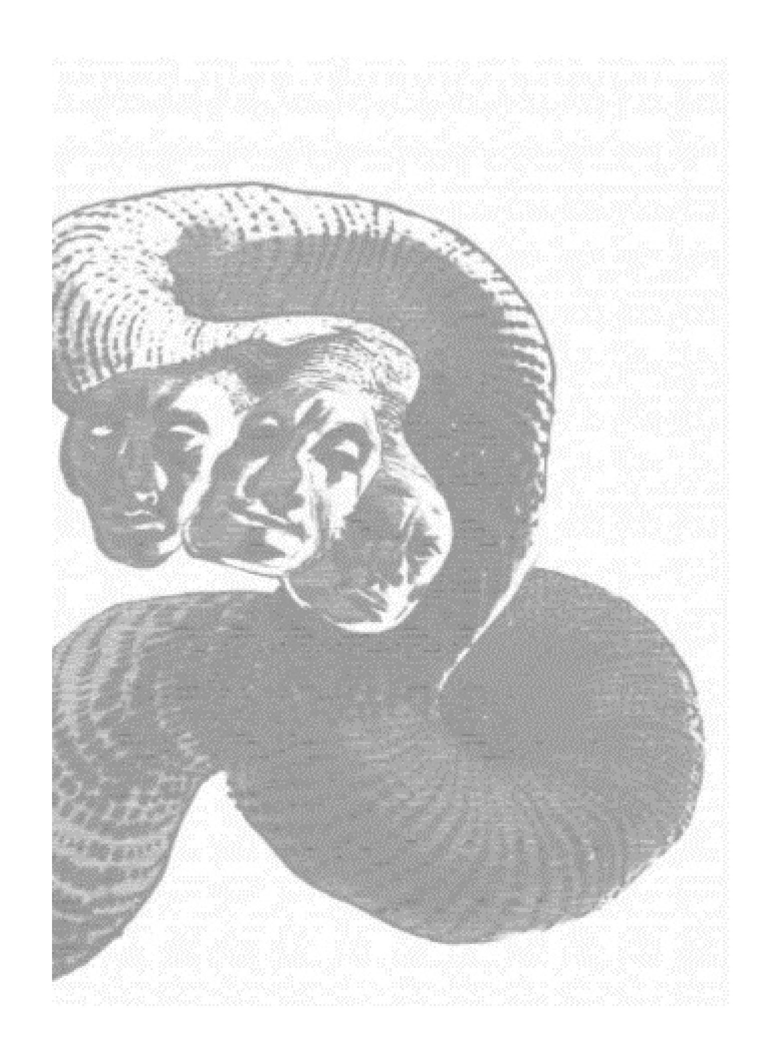
هائلة ابتلع الرجلَ المدعو «جاك» وسط حلقاته.
جرى «بود» إلى «سكارليت» وساعدها كي تنهض، فقالت:
ـ أريد أن أرى، أريد أن أرى ما يحدث.
وأخرجت الكشاف الصغير وأضاءته.
لم يكن ما رأته هو ما رآه «بود». لم ترَ السفاح وكان هذا رحمة بها. رأت الرجل المدعو «جاك» برغم هذا. رأت الفزع في عينيه مما جعله يبدو مثلما كان مستر «فروست». في رعبه عاد ثانية رجلًا لطيفًا كالذي أوصلها للبيت. كان يطفو في الهواء على ارتفاع خمس، ثم عشر أقدام فوق الأرض، وهو يضرب بالسكينين في الهواء في وحشية، محاولًا أن يطعن شيئًا لا تراه. لكنْ كان من الواضح أن هذه المحاولات بلا جدوى.
ابتعد مستر «فروست» أو الرجل المدعو «جاك» ـ أيًّا من كان ـ عنهما وقد فرد ذراعيه ورِجليه كالنسر ليضرب جدار الكهف.
بدا لـ«سكارليت» كأن مستر «فروست» يتم اجتذابه عبر الجدار. ليدخل الصخر نفسه، كأن ابتلاعه يتم. الآن لم تعد ترى منه سوى وجه.
كان يصرخ في توحش ويأس. يصرخ في «بود» كي يوقف الشيء، كي ينقذه، أرجوك.. أرجوك.
ثم غاب وجه الرجل عبر الجدار وصمت الصوت.
عاد «بود» لصخرة المذبح. التقط السكين الحجرية والكأس والبروش من الأرض وأعادها حيث كانت. ترك السكين المعدنية السوداء حيث سقطت.
قالت «سكارليت»:
ـ حسبت أنك قلت إن السفاح لا يؤذي الناس. حسبت كل ما يفعله هو أن يثير خوفنا.
قال «بود»:
ـ نعم، لكنه كان يبحث عن سيدٍ يحميه، وقال لي هذا.
قالت «سكارليت»:
ـ تعني أنك كنت تعرف. تعرف أن هذا سيحدث؟
ـ نعم، وتمنيت لو حدث.
وساعدها على صعود الدرجات إلى الخارج حيث فوضى ضريح «فروبيشر».
قال «بود» ببساطة:
ـ سيكون عليَّ تنظيف هذا كله.
حاولت «سكارليت» ألا تنظر للأشياء على الأرض.
وقفا في المقبرة، قالت «سكارليت» ببلادة مرة أخرى:
ـ كنت تعرف أن هذا سيحدث.
هذه المرة لم يتكلم «بود».
نظرت له كأنها غير واثقة ممن تحملق فيه وقالت:
ـ كنت تعرف أن السفاح سيأخذه، ألهذا أخفيتني هناك؟ هل حقًّا؟ ماذا كنت أنا إذن؟ طُعمًا؟
قال «بود»:

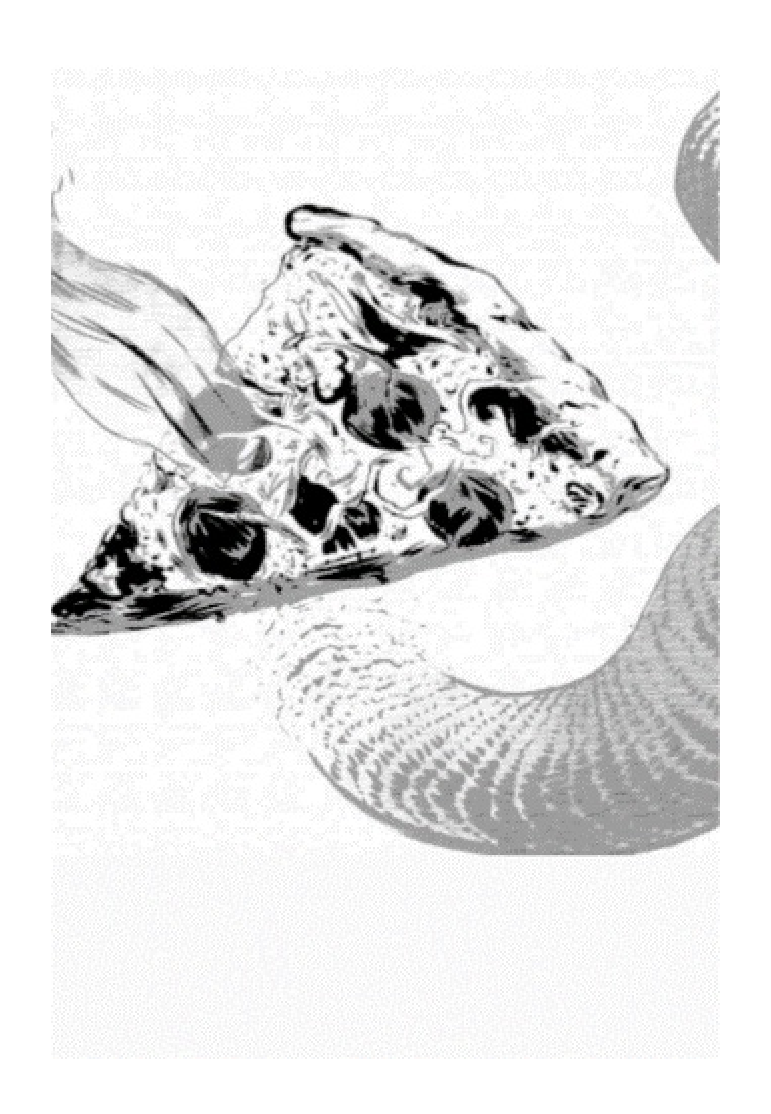
ـ لم يكن الأمر كذلك.
ثم أضاف:
ـ ما زلنا حيَّين أليس كذلك؟ ولن يضايقنا ثانية.
شعرت «سكارليت» بالغيظ والحنق يغليان داخلها. ولَّى الخوف والآن لم تبقَ إلا الرغبة في أن تصرخ. قاومت بشدة تلك الرغبة ثم قالت:
ـ وماذا عن هؤلاء الرجال؟ هل قتلتهم كذلك؟
ـ لم أقتل أي واحد.
ـ إذن أين هم؟
ـ أحدهم في قاع قبر عميق وقد تحطم كاحله. الثلاثة الآخرون بعيدون جدًّا الآن.
ـ لم تفتِكْ بهم؟
ـ بالطبع لا، هذا بيتي فلماذا أريد أن يبقوا هنا؟ لقد تعاملت معهم، كل شيء تمام.
تراجعت «سكارليت» للوراء مبتعدة وقالت:
ـ أنت لست شخصًا، الناس لا تتصرف بهذا الشكل، أنت شرير مثله، أنت وحش.
شعر «بود» بالدم يفارق وجهه. بعد كل ما لاقاه طوال الليل وبعد كل ما حدث، فقد كان هذا أصعب شيء يتحمله.
قال:
ـ لا، لم يكن هكذا.
بدأت «سكارليت» تتقهقر عن «بود». خطت خطوة ثم اثنتين وكادت تفر وتجري كالمجنونة، بعيدًا عن المقبرة التي يغمرها ضوء القمر، عندما ظهر رجل طويل القامة يلبس مخملًا أسود ووضع يده على ذراعها وقال:
ـ أخشى أنكِ تظلمين «بود» بهذا، لكنكِ ستكونين أسعد بالتأكيد لو نسيتِ هذا كله. لذا دعينا نمشي معًا ونناقش ما حدث لكِ في الأيام الماضية القليلة، وما هو من الحكمة لكِ أن تتذكريه، وما هو أفضل لكِ أن تنسيه.
قال «بود»:
ـ «سيلاس»، لا يمكنك.. لا يمكنك جَعْلها تنساني.
قال «سيلاس» ببساطة:
ـ ستكون الأمور أكثر أمنًا هكذا. لها إن لم يكن لنا جميعًا.
سألت «سكارليت»:
ـ أليس لي دور في هذا؟
لم يقل «سيلاس» أي شيء، وخطا «بود» نحو «سكارليت» وقال:
ـ انظري، لقد انتهى الأمر. أعرف أنه كان صعبًا لكننا قمنا به، أنا وأنتِ. لقد قهرناهم.
كان رأسها يهتز برفق كأنها تنكر كل ما رأته وكل شيء تمر به، ورفعت عينيها لـ«سيلاس» وقالت فقط:
ـ أريد العودة للبيت، من فضلك؟

هز «سيلاس» رأسه. مشى مع الفتاة عبر الممر الذي سيقودهما خارج المقبرة. وحملق «بود» في «سكارليت» وهي تبتعد متمنيًا أن تستدير وتنظر له. أن تبتسم أو تنظر له فقط بلا خوف في عينيها. لكن «سكارليت» لم تستدر. لقد ابتعدت ببساطة.
عاد «بود» للضريح. كان عليه أن يقوم بشيء ما، لذا راح يجمع التوابيت الساقطة ويزيل الفضلات ويعيد العظام المتناثرة إلى التوابيت. وقد أحبطه أن يكتشف أن كثيرين من آل «فروبيشر» و«فروبايشر» و«بيتيفير» كانوا يراقبونه، وكانوا يعرفون لأي تابوت تنتمي كل عظام بالضبط.
أعاد رجل ما «سكارليت» لبيتها. لاحقًا، لم تعد أمُّ «سكارليت» تتذكر ما قاله لها، برغم أنها علمت لخيبة أملها أن «جاي فروست» اللطيف قد أُرغم بشكل إجباري على ترك البلدة.
تحدث الرجل معهما في المطبخ عن حياتهما وأحلامهما، وعند نهاية المحادثة قررت أمُّ «سكارليت» أن تعودا لجلاسجو. ستكون «سكارليت» سعيدة قرب أبيها ولأنها سترى أصدقاءها القدامى ثانية.
ترك «سيلاس» الفتاة وأمها تتكلمان في المطبخ وتتناقشان حول تحديات العودة لاسكتلندا، و«نونا» تقسم أن تبتاع هاتفًا لـ«سكارليت». لم تعودا تذكران أن «سيلاس» كان هناك. وقد أراد هو ذلك.
عاد «سيلاس» للمقبرة فوجد «بود» يجلس في المَدْرج جوار المسلة ووجهُه ثابت.
ـ كيف حالها؟
قال «سيلاس»:
ـ نزعت ذكرياتها. ستعودان لجلاسجو فلديها أصحاب هناك.
ـ كيف جعلتَها تنساني؟
قال «سيلاس»:
ـ الناس تحب نسيان المستحيل. هذا يجعل عالمهم أكثر أمنًا.
قال «بود»:
ـ لقد أحببتها.
ـ وأنا آسف.
حاول «بود» أن يبتسم لكنه لم يجد ابتسامة فيه فقال:
ـ الرجال.. تكلموا عن مشاكلهم في كراكوف و.. ومِلبورن وفانكوفر. هذا كنت أنت، أليس كذلك؟
قال «سيلاس»:
ـ لم أكن وحدي.
قال «بود»:
ـ مس «لوبسكو»؟
ثم رأى التعبير على وجه راعيه فسأل:
ـ هل هي بخير؟
هز «سيلاس» رأسه، وللحظة بدا وجهه مرعبًا بحيث لم يستطع «بود» أن

ينظر له ثم قال:
ـ قاتلَتْ بشجاعة يا «بود». قاتلت من أجلك.
قال «بود»:
ـ لقد ظفر السفاح بالرجل المدعو «جاك». ثلاثة آخرون عبروا بوابة الغيلان. هناك واحد جريح لكنه حي في قاع قبر «كارستيرز».
قال «سيلاس»:
ـ هو آخِر «جاك». أريد الكلام معه قبل الشروق إذن.
كانت الريح التي هبت على المقابر باردة، لكنْ بدا أن الرجل والصبي لم يشعرا بها.
قال «بود»:
ـ كانت خائفة مني.
ـ نعم.
ـ لكنْ لماذا؟ لقد أنقذت حياتها. أنا لست شخصًا سيئًا، وأنا مثلها، أنا حي أيضًا.
ثم قال:
ـ كيف سقطت مس «لوبسكو»؟
قال «سيلاس»:
ـ بشجاعة.. وهي تحارب. كانت تحمي الآخرين.
اسودت عينا «بود» وقال:
ـ كان بوسعك أن تجلبها هنا، لتُدفن هنا. وبالتالي كان بوسعي أن أكلمها.
قال «سيلاس»:
ـ هذا لم يكن واردًا.
شعر «بود» بلسعة في عينيه. وقال:
ـ كانت تسميني «نيميني». ما من أحد سوف يناديني هكذا ثانية.
قال «سيلاس»:
ـ هل نذهب وأجلب لك طعامًا؟
ـ نذهب؟ تريد أن أكون معك خارج المقبرة؟
قال «سيلاس»:
ـ لا أحد يريد قتلك الآن.. ليس الآن. هناك أشياء كثيرة لن يفعلوها بعد اليوم.. لذا نعم. ماذا تريد أن تأكل؟
فكر «بود» أن يقول إنه ليس جوعان، لكن هذه لم تكن الحقيقة ببساطة. شعر بغثيان بسيط وشعر بأن رأسه خفيف وأنه جائع جدًّا.
لذا اقترَح:
ـ بيتزا؟
ومشيا عبر المقبرة إلى البوابات. إذ مشى «بود» رأى سكان المقبرة. لكنهم تركوا الصبي وراعيه يمران بينهم بلا كلمة. اكتفوا بالمراقبة. حاول «بود» أن يشكرهم على عونهم وأن يعرب عن امتنانه لكنْ لم يقل الموتى أي شيء.
كانت أضواء مطعم البيتزا ساطعة، أكثر مما يرتاح له «بود». جلس هو

و«سيلاس» في المؤخرة وأفهمه «سيلاس» كيف يستعمل قائمة الطعام وكيف يطلب الطعام. طلب «سيلاس» كوب ماء وسلطة لنفسه وراح يحركها في السلطانية بالشوكة (لكنه لم يمسها بشفتيه قَطُّ). أكل «بود» البيتزا بأصابعه وبحماسة. لم يوجه أسئلة. «سيلاس» سوف يتكلم في الوقت الذي يناسبه أو لن يفعل.
قال «سيلاس»:
ـ كنا نعرف بهم، هؤلاء «الجاكات». عرفناهم لفترة طويلة طويلة، لكننا عرفنا بأمرهم من أفعالهم. شككنا في وجود منظمة خلف هذا، لكنهم كانوا يجيدون الاختفاء. ثم كانوا يقتفون أثرك وقتلوا أسرتك. وببطء استطعت أن أجد خيطًا يقود لهم.
سأله «بود»:
ـ شككنا؟ هل تعني أنت ومس «لوبسكو»؟
ـ نحن وآخرون مثلنا.
قال «بود»:
ـ حرس الشرف.
قال «سيلاس»:
ـ كيف عرفت عن...
ثم قال:
ـ لا مشكلة.. الأباريق الصغيرة لها آذان كبيرة كما يقولون. نعم، حرس الشرف.
والتقط «سيلاس» كوب الماء ولامس به شفتيه، ورطبهما ثم وضعه على المنضدة السوداء المصقولة. كان سطح المنضدة أقرب لمرآة، لو جرب أحدهم أن ينظر لربما لاحظ أن الرجل الطويل ليس له انعكاس.
قال «بود»:
ـ الآن بما أنك انتهيت.. انتهيت من كل هذا، فهل ستبقى؟
قال «سيلاس»:
ـ أعطيت كلمتي. أنا هنا إلى أن تنمو أنت.
قال «بود»:
ـ أنا كبرت.
قال «سيلاس»:
ـ لا، كدتَ، لكنْ ليس بعد.
ووضع ورقة بعشرة جنيهات على المنضدة.
قال «بود»:
ـ تلك الفتاة.. «سكارليت»، لمَ خافت مني يا «سيلاس»؟
لكن «سيلاس» لم يَرُد، وظل السؤال معلقًا في الهواء، بينما الشاب يغادر مطعم البيتزا المتألق إلى الظلام المترقب. وسرعان ما ابتلعهما الظلام.







الفصل الثامن
الرحيل والفراق

أحيانًا كان يفقد القدرة على رؤية الموتى، بدأ هذا منذ شهر أو اثنين، في أبريل أو مايو. في البداية كان هذا يحدث عرضًا، لكنْ بدا الآن أنه يحدث أكثر فأكثر. كان العالم يتغير.
تجول «بود» حتى الجهة الشمالية الغربية من المقبرة، حيث يتشابك اللبلاب المعلق من شجر الصنوبر ليحجب المخرج عن الممر الفرعوني. رأى ثعلبًا أحمر وقطة سوداء كبيرة لها عنق أبيض ومخالب، جلسا يتحدثان في وسط الممر. عندما دنا «بود» نظرا له وذعرا ثم فرَّا إلى الأشجار كأنه ضبطهما يتآمران.
فكر: هذا غريب. إنه يعرف هذا الثعلب منذ كان جروًا، وكانت القطة تجوب المقبرة منذ أصبح «بود» يتذكر ما يحدث. كانا يعرفانه. لو كانا ودودين لكانا قد جعلاه يربيهما كحيوانين أليفين. بدأ «بود» يزحف بين اللبلاب لكنه وجد الطريق مغلقًا. انحنى وأزاح الصفصاف وحشر نفسه ليمشي في الممر بحذر، متجاهلًا الثقوب والحفر، حتى بلغ الصخرة التي تمثل المثوى الأخير لـ«ألونزو توماس جارسيا جونز» (١٨٣٧-١٩٠٥، أيها المسافر ضع متاعك أرضًا). كان «بود» يأتي هنا كل عدة أيام لأشهر عديدة. كان «ألونزو جونز» قد رأى العالم كله وكان مولعًا بأن يحكي لـ«بود» قصصًا عن الرحلات. كان يبدأها بالقول: «لم يحدث لي أي شيء مهم»، ثم يضيف باكتئاب: «لقد حكيت لك كل قصصي»، ثم تلتمع عيناه ويعلق قائلًا: «إلا.. هل حكيت لك عن...»، ومهما كانت الكلمات الآتية يقول: «المرة التي هربت فيها من موسكو؟»، أو: «المرة التي أضعت فيها منجم ذهب في ألاسكا وكان يساوي ثروة؟»، أو: «قطيع الماشية الهائج في سهول البامباس؟». كان «بود» يهز رأسه دومًا ويسمع بترقب، وسرعان ما يسبح عقله مع قصص المغامرات، وقصص العذارى الجميلات اللاتي يقبلهن. أو الأشرار الذين يقتلون بالرصاص أو يحاربون بالسيوف، أو أكياس الذهب أو الماس الكبير بحجم طرف إبهامك، والمدن المفقودة والهضاب الممتدة، وقطارات البخار والقوارب والمحيطات والصحاري والتندرا.
مشى «بود» إلى الحجر المدبب، المنحوت الشامخ وعليه مشاعل مقلوبة، هناك انتظر فلم يرَ أحدًا. نادى «ألونزو جونز» ودق على جانب الحجر لكنْ لم يُجب أحد. انحنى «بود» ودفع رأسه في القبر ونادى صاحبه، لكنْ بدلًا من أن ينساب رأسه عبر المادة الصلبة كأنه ظِل يعبر ظلًّا آخر، صدم رأسه الأرض صدمة مؤلمة. نادى ثانية لكنْ لم يَرُد أحد.
هكذا تراجع عبر غابة الخضرة إلى الممر.
طارت ثلاثة غربان من شجرة النرجس الأصفر إذ مر بها.
لم يرَ مخلوقًا حتى بلغ المنحدر في جنوب غرب المقبرة حيث الشكل المميز لـ«الأم ذبح». رقيقة في عباءتها والبونيه على رأسها وكانت تمشي بين

شواهد القبور وقد حنت رأسها وهي تتأمل أزهار البرية.
نادته:
ـ هنا يا ولد! هناك أزهار «نَستورشالوم» برية، لمَ لا تجمع لي بعضها وتضعها على شاهدِ قبري؟
جمع «بود» أزهار «نَستورشم» الحمراء والصفراء، وحملها لـ«الأم ذبح» حيث قبرها المتداعي المهدم، فلم تعد تظهر عليه سوى:
اضحك
وهي كلمة حيَّرت المؤرخين المحليين أكثر من مائة عام. وضع الأزهار أمام الحجر باحترام.
ابتسمت له «الأم ذبح» وقالت:
ـ أنت فتى طيب، لا أعرف ما كنا سنصنع من دونك.
قال «بود»:
ـ شكرًا.
ثم:
ـ أين الجميع؟ أنتِ أول من أراه الليلة.
حملقت فيه «الأم ذبح» بحدة وقالت:
ـ ماذا فعلت بجبهتك؟
ـ صدمتُها على قبر مستر «جونز». كان صلبًا. أنا...
لكن «الأم ذبح» كانت تضم شفتيها وتحني رأسها. عينان عجوزان لامعتان تفحصتا «بود» من تحت البونيه وقالت:
ـ قلت لك «يا ولد» أليس كذلك؟ لكن الوقت يمر بلمح بصر. وأنت اليوم رجل شاب. أليس كذلك؟ كم عمرك؟
ـ أعتقد خمسة عشر عامًا. رغم أنني أشعر بأنني لم أتغير.
قالها «بود» لكن «الأم ذبح» قاطعته:
ـ وأنا ما زلت أشعر بشعوري عندما كنت شيئًا صغيرًا أدور حول نفسي في المرعى القديم. أنت دائمًا أنت. ولكنك تتغير طوال الوقت، وليس بوسعك عمل شيء لمنع ذلك.
جلست على الحجر المحطم وقالت:
ـ أتذكركَ ليلة جئتَ هنا. قلت إننا لا يمكن أن نسمح برحيل الصغير، فوافقت أمك وراح الكل يناقش ما يجب وما لا يجب حتى ظهرت السيدة ذات الثوب الرمادي على صهوة حصانها. قالت: «يا قوم المقبرة، أصغوا إلى «الأم ذبح»، أليست هناك شفقة في عظامكم؟»، وهنا وافقني الجميع.
وهزت رأسها الصغير وقالت:
ـ لا يحدث الكثير هنا ليجعل يومًا يختلف عن التالي له. الفصول تتغير. اللبلاب ينمو. الصخور تتهاوى. وأنت تأتي هنا. حسن، أنا سعيدة لأنك فعلت هذا على كل حال.
ووقفا وجذبت خرقة ممزقة من كتفها وبصقت عليها، ثم شبت لتمسح الدم عن جبين «بود».

قالت بصرامة:
ـ هكذا، هذا سوف يجعلك تبدو راقيًا. لا أعرف متى أراك ثانية. على كل حال حافِظ على نفسك.
شعر بشعور من عدم الراحة لم يشعر به من قبل، وعاد إلى قبر «أوينز». سرَّه أن يرى أبويه ينتظران هناك. إذ اقترب استحال سروره اهتمامًا وقلقًا: لماذا يقف مستر ومسز «أوينز» هكذا على جانبَي القبر كأنهما شخصيتان من رسم ملون على زجاج نافذة؟ لم يستطع قراءة وجهيهما. تَقدَّم أبوه خطوة للأمام وقال:
ـ مساء الخير يا «بود»، أعتقد أنك بخير.
قال «بود»:
ـ بخير بشكل معقول.
هكذا كان مستر «أوينز» يقول لرفاقه دومًا عندما يسألونه ذات السؤال.
قال مستر «أوينز»:
ـ السيدة «أوينز» وأنا قضينا حياتنا نتمنى لو كان لنا طفل. لا أعتقد أننا كنا سنفوز بشاب مثلك بأي حال يا «بود».
ونظر لأعلى نحو ابنه في فخر.
قال «بود»:
ـ حسن، شكرًا لك، لكن...
واستدار لأمه واثقًا من أن بوسعه جعلها تخبره بما يدور. لكنها لم تعد هناك.
ـ أين هي؟
بدا مستر «أوينز» غير مستريح وقال:
ـ آه، حسن، أنت تعرف «بتسي». هناك أشياء وأوقات لا تعرف ما تقول. هل تعرف؟
قال «بود»:
ـ لا.
قال أبوه:
ـ أعتقد أن «سيلاس» ينتظرك.
ثم انصرف.
كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ومشى «بود» نحو الكنيسة القديمة. كانت الشجرة التي تنمو من المزلاج عند البرج قد سقطت في العاصفة الأخيرة، ومعها حفنة من بلاط السقف الأسود.
انتظر «بود» على المقعد الخشبي الرمادي لكنْ لم تكن هناك علامات على وجود «سيلاس».
هبت الريح. كان هذا وقتًا متأخرًا من مساء الصيف عندما يدوم الشفق إلى الأبد، وكان الجو دافئًا لكنْ برغم هذا شعر «بود» بجلد الإوزة على ذراعيه.
قال صوت في أذنيه:
ـ قل إنك سوف تفتقدني أيها الأحمق.
قال «بود»:

ـ «ليزا»؟
لم يكن قد سمع أو رأى الفتاة الساحرة منذ أكثر من عام. لم يسمع عنها منذ ليلة «الجاكات» كثيري الحِرَف.
ـ أين كنتِ؟
قالت:
ـ أراقب، هل يجب أن تحكي السيدة عن كل شيء تفعله؟
سألها «بود»:
ـ تراقبينني؟
دنا صوت «ليزا» من أذنه وهي تقول:
ـ في الحقيقة الحياة تضيع على الأحياء يا «لا أحد أوينز». أحدنا أحمق لدرجة أن يحيا، وهو ليس أنا. قل إنك ستفتقدني.
سألها «بود»:
ـ إلى أين أنت ذاهبة؟
ثم أضاف:
ـ بالطبع سأفتقدكِ حيثما ذهبتُ.
همست «ليزا همبستوك»، وكاد يشعر بلمسة يدها ليده:
ـ من الغباء أن تحيا.
وشعر بلمسة شفتيها على خده وجوار ركن شفتيه. قبَّلته بلطف فشعر بارتباك شديد. لم يعد يعرف ما يفعله.
قال صوتها:
ـ سوف أفتقدك كذلك، دائمًا.
وهبت الريح على شعره، ومعها لمسة يدها ثم وجد نفسه من جديد وحيدًا على المقعد.
نهض.
مشى «بود» لباب الكنيسة ورفع الصخر جوار الرواق وأخذ المفتاح الإضافي الذي تركه هناك خادم الكنيسة منذ زمن بعيد. فتح الباب الخشبي الضخم دون أن يجرب الانزلاق عبره. أصدر الباب صريرًا عاليًا كأنه يحتجُّ.
كان داخلُ الكنيسة مظلمًا، ووجد «بود» نفسه يحاول الرؤية بصعوبة.
جاء صوت «سيلاس»:
ـ تعالَ يا «بود».
قال «بود»:
ـ لا أرى أي شيء، الظلام دامس.
قال «سيلاس»:
ـ بهذه السرعة؟
وتنهد، وسمع «بود» حفيف المخمل ثم أضاء المكان عودُ ثقاب. وبه أشعل «سيلاس» شمعتين كبيرتين على شمعدان خشبي كبير في مؤخرة الغرفة.
وفي ضوء الشموع رأى «بود» راعيه يقف جوار صندوق جلدي عملاق لدرجة أن بوسع رجل بالغ أن يدخل فيه ويتكور وينام. جواره كان صندوق «سيلاس»

الجلدي الذي رآه «بود» من قبل في مناسبات معدودة. لكنه ما زال يجده مؤثرًا.
كان الصندوق العملاق مبطنًا بالأبيض. وضع «بود» يده في الصندوق الفارغ ولمس الحرير الذي يبطنه ولمس الأرض الجافة.
سأل:
ـ هل تنام هنا؟
قال «سيلاس»:
ـ عندما أكون بعيدًا عن البيت، نعم.
شده «بود». كان «سيلاس» هنا منذ قدر ما يتذكر وقبل ذلك.
ـ أليس هذا بيتك؟
هز «سيلاس» رأسه وقال:
ـ بيتي بعيد بعيد عن هنا. لو كان ما زال قابلًا للحياة فيه. كانت هناك مشاكل في أرضي الأم ولست واثقًا البتة مما أجده لو عدت.
سأله «بود»:
ـ هل أنت عائد؟
كل شيء ثابت بدأ يتغير:
ـ أنت راحل حقًّا؟ لكنك راعيَّ.
ـ كنت راعيك، أما الآن فأنت قد كبرت ويمكنك العناية بنفسك. لديَّ أشياء أخرى أحميها.
أغلق «سيلاس» الغطاء الخاص بالصندوق الجلدي العملاق، وبدأ يربط الأحزمة والأبازيم.
ـ لمَ لا أعيش هنا في المقبرة؟
قال «سيلاس»:
ـ لا تستطيع هذا.
قالها برفق لم يسمعه «بود» يتكلم به من قبل.
ـ كل الناس هنا عاشوا حياتهم يا «بود»، حتى لو كانت قصيرة. الآن هو دورك، يجب أن تعيش.
ـ هل لي أن آتيَ معك؟
هز «سيلاس» رأسه.
ـ هل أراك ثانية؟
ـ ربما.
كانت هناك رقة في صوت «سيلاس» وما هو أكثر:
ـ وحتى إن كنت تراني أم لا، فأنا متأكد من أنني سأراك.
ووضع الصندوق جوار الجدار ومشى إلى الركن البعيد.
ـ اتبَعْني.
مشى «بود» خلف «سيلاس» عبر السلم الحلزوني والدرجات التي تقود إلى السرداب.
قال «سيلاس» شارحًا إذ بلغا القاع:

ـ سمحت لنفسي بأن أحزم حقيبة لك.
وفوق كومة من كتب الترانيم المتعفنة كانت حقيبة صغيرة، هي نموذج مصغر لحقيبة «سيلاس».
قال «سيلاس»:
ـ أشياؤك هنا كلها.
قال «بود»:
ـ قل لي شيئًا عن حرس الشرف يا «سيلاس»، أنت فيه، كانت مس «لوبسكو» كذلك. ومن أيضًا؟ هل أنتم كثير؟ ماذا تفعلون؟
قال «سيلاس»:
ـ لا نقوم بما يكفي، نحن نحرس الحدود أساسًا. نحمي حدود الأشياء.
ـ أي نوع من الحدود؟
لم يقل «سيلاس» أي شيء.
ـ هل تعني مثل مَنْع الرجل المدعو «جاك» وقومه؟
قال «سيلاس»:
ـ نقوم بما يجب القيام به.
وبدا مرهَقًا.
ـ لكنكم قمتم بالشيء الصحيح، أعني وَقْف «الجاكات»، كانوا فظيعين، كانوا وحوشًا.
دنا «سيلاس» خطوة أقرب من «بود» مما اضطر الشاب إلى أن يُرجع رأسه لينظر لوجه الرجل الفارع الشاحب.
قال «سيلاس»:
ـ لم أفعل الشيء الصحيح في كل الأحوال، عندما كنت صغيرًا ارتكبت ما هو أسوأ من «جاك». أسوأ من أي واحد فيهم. كنت أنا الوحش وقتها يا «بود» وأسوأ من أي وحش.
لم يخطر ببال «بود» أن يتساءل إن كان راعيه كاذبًا أم صادقًا. كان يعرف أن الحقيقة تقال له. قال:
ـ لكنك لم تعد هكذا، أليس كذلك؟
قال «سيلاس»:
ـ الناس يمكنهم التغير.
ثم ساد الصمت. تساءل «بود» ما إذا كان راعيه.. ما إذا كان «سيلاس» يحاول التذكر.
هنا قال:
ـ شرفت بأن أكون راعيك أيها الشاب.
وتوارت يده في عباءته وخرجت حاملة حافظة جلدية مهترئة وقال:
ـ هذه لك، خذها.
أخذ «بود» الحافظة لكنْ لم يفتحها.
ـ فيها مال كافٍ لتبدأ في العالم لكنْ ليس أكثر.
قال «بود»:

ـ لقد ذهبت لأرى «ألونزو جونز» اليوم لكنه لم يكن هناك. أو لو كان هناك فلم أرَه. أردت أن أسأله عن الأماكن البعيدة التي زارها. الجزر والحيتان وجبال الجليد والهضاب. أماكن يأكل فيها الناس ويلبسون أغرب الأشياء.
وصمت «بود» مترددًا ثم قال:
ـ هذه الأماكن، إنها ما زالت هناك، أعني أن عالمًا كاملًا هناك. هل لي أن أراه؟ هل لي أن أذهب إليه؟
هز «سيلاس» رأسه:
ـ نعم، هناك عالم كامل. لديك جواز سفر في الجيب الداخلي لحقيبتك وهو يحمل اسم «لا أحد أوينز». وكان من الصعب أن أجلبه لك.
قال «بود»:
ـ لو غيرت رأيي فهل أستطيع العودة؟
ثم أجاب عن سؤاله:
ـ لو عدت فلسوف يكون هذا مكانًا، لكنه لن يكون بيتي بعد ذلك.
قال «سيلاس»:
ـ هل تريد أن أوصلك للبوابة الأمامية؟
هز «بود» رأسه وقال:
ـ من الأفضل أن أفعل هذا وحدي.. إممم.. لو وقعت في ورطة يا «سيلاس» فاتصِلْ بي. سوف آتي لأساعدك.
قال «سيلاس»:
ـ أنا لا أقع في متاعب.
ـ لا أعتقد أنك تقع. لكنْ برغم هذا.
كان الظلام قد ساد السرداب، وكانت هناك رائحة الفطريات والصخور القديمة الرطبة. ولأول مرة شعر «بود» بأنه ضيق جدًّا.
قال «بود»:
ـ أريد أن أرى الحياة، أريد أن أمسكها في يدي. أريد أن أترك أثر قدميَّ على رمل الصحراء، وأن ألعب كرة القدم مع الناس. أريد...
ثم صمت وفكر: أريد كل شيء.
قال «سيلاس»:
ـ جميل.
ورفع يديه كأنه يزيل الشعر عن عينيه، وهي حركة غير مألوفة.
وقال:
ـ لو تبين يومًا أنني في مشكلة فلسوف أرسل لك حقًّا.
ـ برغم أنك لا تتورط في متاعب؟
ـ كما تقول.
كان هناك شيء على طرفي شفتي «سيلاس»، ربما كانت ابتسامة أو ربما كانت ندمًا أو ربما هي فقط خدعة ظلال.
ـ وداعًا إذن يا «سيلاس».
مد «بود» يده كما كان يفعل وهو طفل، فأخذها «سيلاس» بيد باردة بلون

العاج، وهزها بجدية.
ـ وداعًا يا «لا أحد أوينز».
تناول «بود» الحقيبة الصغيرة. فتح الباب ليخرج من السرداب ومشى في المنحدر للممر دون أن ينظر للخلف. كان هذا بعدما انغلقت البوابات. تساءل إن كانت البوابات ستدعه يمر، أم أنه يجب أن يعود للكنيسة بحثًا عن مفتاح، لكنْ عندما بلغ المدخل وجد أن بوابة المشاة الصغيرة مفتوحة عن آخرها كأنها كانت تنتظره، وكأن القبر نفسه يودعه.
انتظره شبح ممتلئ شاحب أمام البوابة المفتوحة. كانت تبتسم له إذ دنت منه وكانت في عينيها دموع في ضوء القمر.
قال «بود»:
ـ مرحبًا يا أماه.
مسحت السيدة «أوينز» عينيها بأطراف سلامياتها ثم مسحتها بخرقة قماشية، وهزت رأسها وسألته:
ـ هل تعرف ما ستفعله الآن؟
قال «بود»:
ـ سأرى العالم. سأتورط في المتاعب وأخرج منها ثانية.
سأرى الغابات والبراكين والصحاري والجزر والناس. أريد أن أرى الكثير من الناس.
لم تَرُد السيدة «أوينز» فورًا. نظرت له طويلًا ثم بدأت تُنشد أغنية يذكرها «بود». كانت تغنيها له وهو طفل صغير. أغنية كانت تُنيمه بها.

نم يا طفلي الصغير... أوه
نم حتى تصحو
عندما تكبر سترى العالم
إن لم أكن مخطئة...

همس «بود»:
ـ أنتِ لستِ مخطئة. أنا سأرى العالم.

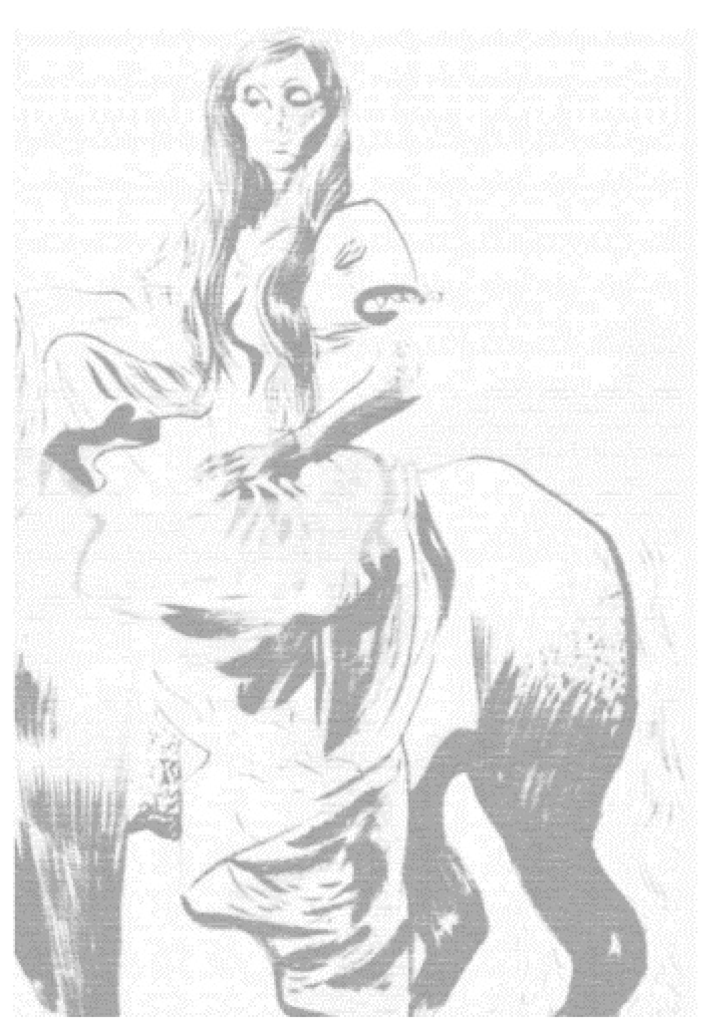
قبِّل حبيبة
ارقص قليلًا،
جِد اسمك
وكنزك المخبأ...

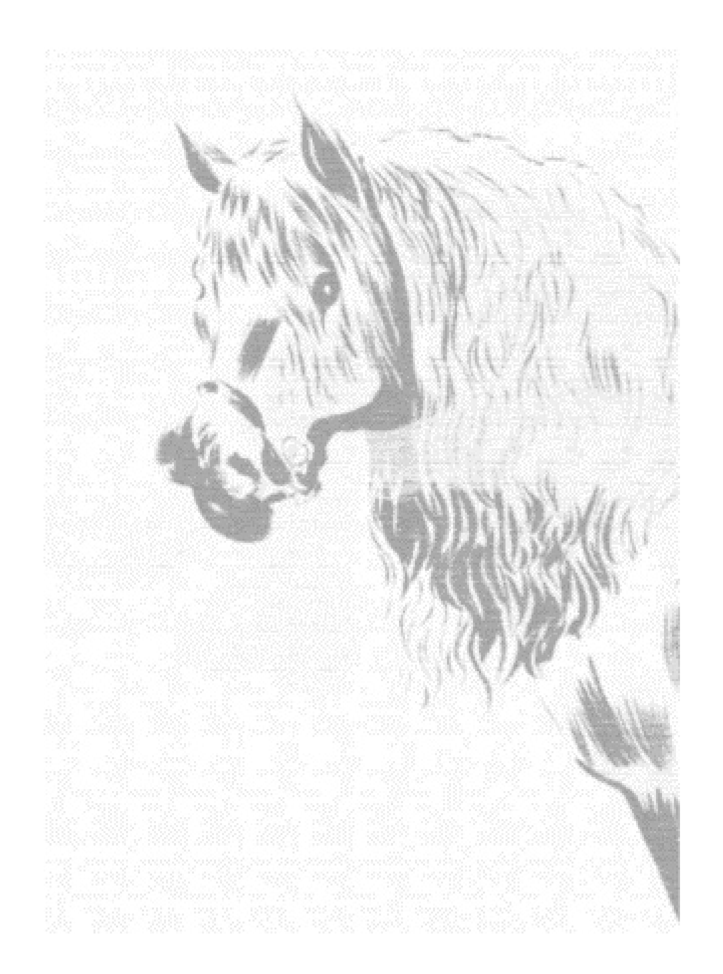
ثم تذكَّرت السيدة «أوينز» آخر كلمات الأغنية فغنَّتها لـ«بود»:

واجِه حياتك
بألمها ومسراتها،
لا تترك طريقًا إلا وتجربه

كرَّر «بود»:
ـ لا تترك طريقًا إلا وتجربه، تحدٍّ صعبٌ لكني سأحاول جهدي.
حاول أن يلف ذراعيه حول أمه مثلما كان يفعل وهو طفل، لكنه شعر كأنه يمسك بالضباب. لقد كان في الممر وحده.

خطا للأمام عبر البوابة التي تُخرجه من المقبرة، وخيل له كأن صوتًا قال:
ـ أنا فخور بك يا بُني.
لكنْ لربما تخيَّل ذلك.
كانت سماء منتصف الصيف قد بدأ الضياء يغزوها نحو الشرق، وهنا قرر «بود» أن يمشي؛ لأسفل التل. نحو الناس الأحياء، والمدينة، والفجر.
كان هناك جواز سفر في حقيبته، ومال في جيبه. كانت ابتسامة ترقص على شفتيه برغم أنها كانت ابتسامة حذرة، لأن العالم كان أكبر بكثير من تلك المقبرة الصغيرة على التل. سوف تكون هناك أخطار وألغاز. أصدقاء لا بد من صنعهم. أصدقاء قدامى يعيد اكتشافهم. أخطاء سوف تُرتكب وطرق عديدة للمشي فيها قبل أن يعود في النهاية للمقبرة، أو يركب مع السيدة على ظهر الفرس العملاق الرمادي.
لكنْ من وقت لآخر هناك الحياة. وقد مشى «بود» إليها وقد فتح قلبه وعينيه على اتساعهما.





شكر وعرفان

أولًا وقبل كل شيء ودومًا، أدين بدين هائل ـ عن وعي أو لاوعي بلا شك ـ لـ«رديارد كبلنج» وجزئي عمله المتميز «كتاب الغابة». قرأتهما طفلًا فاستثرت وتأثرت، وقرأتهما وأعدت قراءتهما مرارًا منذ ذلك الحين. لو كنت لم ترَ سوى فيلم الرسوم المتحركة إنتاج «ديزني» فعليك أن تقرأ القصص.

ألهمني ابني «ميشيل» هذا الكتاب. كان عمره عامين وهو يركب دراجته الثلاثية بين شواهد القبور في الصيف، وقد خطرت بذهني فكرة كتاب. ثم احتجت إلى نحو عشرين عامًا فقط لأكتبه.

عندما بدأت كتابة هذا الكتاب (بدأت من الفصل الرابع)، جعلتني رغبة ابنتي «مادي» في أن تعرف ما سيحدث أستمر في الكتابة بعد أول صفحتين. لم تفعل «هولي» شيئًا خاصًّا سوى أنها جعلت كل شيء أفضل.

كان «جاردنر دوزويس» و«جاك دان» أول من نشر «شاهدُ قبر الساحرة». وقد تكلمت الأستاذة «جورجيا جريلي» عن هذا الكتاب قبل أن تقرأه، وقد ساعدني سماعها على أن أركز أكثر على تيمة الكتاب الأساسية.

كانت «كندرا ستاوت» هناك عندما رأيت أول بوابة غيلان، وكانت كريمة النفس عندما مشت في مقابر عديدة معي. كانت هي الجمهور الذي استمع للفصول الأولى وكان حبها لـ«سيلاس» عظيمًا.

أما المؤلفة والرسامة «أودري نيفنجر» فهي كذلك من الذين ساعدوني في استكشاف المقابر، وقد أرتني أعجوبة يغطيها اللبلاب هي «هايجيت سِمِتري وست». أشياء عديدة حكتها لي فزحفت إلى الفصلين السابع والثامن من هذه القصة. وقد ساعدتني «أولجا نونز» والابنة الروحية المرعبة «هايلي كامبل» على تحقيق أشياء عديدة. أصدقاء كثيرون قرأوا هذا الكتاب وهو يُكتب، وكلهم قدموا لي اقتراحات حكيمة، ومنهم «دان جونسون» و«جاري ولف» و«جون كراولي» و«فاراه مندلسون» و«جو ساندرز» ضمن آخرين. كلهم لاحظوا أشياء بحاجة إلى إصلاح. كذلك أفتقد «جون م فورد» (١٩٥٧-٢٠٠٦) الذي كان أفضل ناقد لي.

كانت «إيزابيل فورد» و«إليز هوارد» و«سارة أوديدِنا» و«كلاريسا هاتون» هن ناشرات الكتاب على جانبَي المحيط الأطلسي، وقد أعطين صورة طيبة عني. «مايكل كونروي» أخرج الكتاب المسموع باقتدار. تولى مستر «مكين» ومستر «ريدل» الرسم بشكل ممتاز وبأسلوبين مختلفين.

«ميريلي هيفتز» هي أفضل وكيل أعمال في العالم، أما «دوري سيموندز» فجعلت الأمور ممتازة في المملكة المتحدة. قدم «جون ليفين» النصيحة وتولى العناية بحقوق الفيلم السينمائي. وقد قامت «لورين جارلاند» الرائعة، والمدهشة «كات ميهوس»، والمذهلة «كيلي بيكمان» بالكفاح الموفق مع خط يدي.

كتبت هذا الكتاب في عدة أماكن منها بيت «جوناثان» و«جين» في فلوريدا،

وكوخ في كورنوول، وغرفة فندق في نيوأورليانز. بينما فشلت في أن أكتب في بيت «توري» في أيرلندا لأنني أصبت بالإنفلونزا هناك، لكنها ساعدتني وألهمتني برغم هذا.

وإذ أنهي هذا الشكر فأنا واثق أنني لم أنسَ شخصًا مهمًّا فقط، بل عشرات من الأشخاص المهمين. أعتذر بشدة لكنني أشكركم جميعًا على كل حال.

نيل جايمان

قلت
إنها رحلت
لكنني حي، أنا حي
أنا قادم في المقبرة
لأغني لكِ كي تنامي الآن.

توري أموس، «المقبرة»

مواد إضافية خاصة بهذه الطبعة
خطاب قبول
ميدالية «نيوبري»

* * *

ألقى «نيل جايمان» خطاب قبوله ميدالية «نيوبري» عن «كتاب المقبرة» في المؤتمر السنوي لـ«جمعية المكتبات الأمريكية» في شيكاجو يوم ١٢ يوليو ٢٠٠٩.

١

في حال كنتم تتساءلون عن سبب وجودي هنا ـ وبوسعكم المراهنة على أنني أفعل الشيء نفسه الآن، ما يجعلنا اثنين على الأقل ـ أنا هنا لأنني كتبت كتابًا عنوانه «كتاب المقبرة»، مُنح ميدالية «نيوبري» لعام ٢٠٠٩.

هذا يعني أنني قد أثَرت إعجاب بناتي إذ مُنحتُ ميدالية «نيوبري»، وأثَرت إعجاب ابني بشكل أكبر من خلال الدفاع عن فوزي بميدالية «نيوبري» أمام هجمات «ستيفن كولبيرت» المرحة في برنامج «ذا كولبيرت ريبورت»، إذن جعلتني ميدالية «نيوبري» رائعًا في نظر أطفالي. ليس هناك ما هو أفضل من ذلك.

فأنت على الأغلب لا تكون رائعًا في نظر أطفالك أبدًا.

٢

عندما كنت صبيًّا، في عمر يتراوح بين الثامنة والرابعة عشرة تقريبًا، اعتدت التردد على المكتبة المحلية خلال عطلاتي المدرسية. كانت تبعد ميلًا ونصفًا عن بيتي، لذا كنت أجعل والديَّ يوصلاني إليها في طريقهما إلى العمل، وعندما تغلق المكتبة أبوابها أعود إلى البيت ماشيًا. كنت طفلًا أخرق، وغير متوائم، ومرتابًا، وشغفت بحب مكتبتي المحلية. أحببت فهرس البطاقات، وخاصةً فهرس بطاقات مكتبة الأطفال: فقد ضم الموضوعات، وليس فقط العناوين والمؤلفين، ما كان يسمح لي بانتقاء الموضوعات التي أرجِّح أنها ستمنحني كتبًا أحبها ـ موضوعات مثل السحر أو الأشباح أو الساحرات أو الفضاء ـ ثم كنت أعثر على الكتب، وأقرأ.

لكنني قرأت من دون تمييز، بسرور، وبجوع. «بجوع» حرفيًّا، مع أن والدي كان يتذكر أحيانًا أن يزودني بالساندويتشات، التي آخذها على مضض (أنت لا تكون رائعًا في نظر أطفالك أبدًا، وأنا كنت أعتبر إصراره، على وجوب أن آخذ الساندويتشات، خطةً ماكرة لإحراجي)، وعندما أشعر بالجوع الشديد أزدرد ساندويتشاتي في موقف سيارات المكتبة بأكبر سرعة ممكنة قبل أن أغوص من جديد في عالم الكتب والأرفف.

قرأت هناك كتبًا جيدة لمؤلفين لامعين وبارعين، أصبح كثير منهم الآن منسيًّا أو غير عصري، أمثال «ج. ب. مارتن» و«مارجرت ستوري» و«نيكولاس ستيوارت جراي». قرأت لمؤلفين فيكتوريين ومؤلفين إدوارديين. اكتشفت كتبًا قد أعيد

قراءتها الآن بسرور، والتهمت كتبًا من المحتمل أن أجدها الآن لا تُقرأ إذا حاولت أن أعود إليها، «ألفريد هتشكوك» و«المحققون الثلاثة» وما شابه ذلك. رغبت في الكتب ولم أفرق بين الكتب الجيدة والكتب الرديئة، فرقت فقط بين الكتب التي أحببتها، الكتب التي خاطبت روحي، وتلك التي أعجبتني فقط. لم أهتم بالكيفية التي كتبت بها القصة. لم تكن هناك قصص رديئة: كل قصة كانت جديدة وعظيمة. وجلست هناك، في عطلاتي المدرسية، وقرأت مكتبة الأطفال، وعندما انتهيت من قراءتها، تركتها إلى الرحبة الخطرة لقسم الكبار.
تجاوب أمناء المكتبة مع حماسي. عثروا لي على كتب. عرفوني بالإعارة بين المكتبات، وطلبوا لي كتبًا من جميع أنحاء جنوب إنجلترا. تنهدوا، وتشددوا في تحصيل غراماتهم بمجرد أن تبدأ المدرسة وتتخطى الكتب التي استعرتها موعد ردها لا محالة.
يجب أن أذكر هنا أن أمناء المكتبات يقولون لي ألا أحكي هذه القصة أبدًا، وبشكل خاص، ألا أصور نفسي أبدًا كطفل برِّي تربى في المكتبات على أيدي أمنائها الصبورين. يقولون لي إنهم يخشون أن يسيء الناس تفسير قصتي ويستغلوها كذريعة لاستخدام مكتباتهم كحضانة يومية مجانية لرعاية أطفالهم.

٣

إذن. كتبت «كتاب المقبرة»، بدءًا من ديسمبر ٢٠٠٥ وطوال عامَي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، وانتهيت منه في فبراير ٢٠٠٨.
وبعد ذلك، أتى يناير ٢٠٠٩ وأنا في فندق في سانتا مونيكا. كنت هناك للترويج للفيلم المقتبَس عن كتابي «كورالاين». أمضيت يومين طويلين أتحدث للصحفيين، وكنت سعيدًا عندما انتهى ذلك. عند منتصف الليل جلست في حمام فقاعات وبدأت أقرأ «النيويوركر». تحدثت إلى صديق في منطقة زمنية مختلفة. انتهيت من قراءة «النيويوركر». كانت الثالثة صباحًا. ضبطت المنبه على الحادية عشرة، وعلقت لافتة «الرجاء عدم الإزعاج» على الباب. قلت لنفسي، بينما كنت أدخل في النوم، إنني لن أفعل شيئًا خلال اليومين التاليين سوى أن أعوض ما فاتني من نوم وأكتب.
بعد ساعتين، تنبهت إلى أن الهاتف يرن. إنه في الواقع ـ هكذا أدركت ـ يرن منذ بعض الوقت. وإنه في الحقيقة ـ هكذا فكرت وأنا أفيق من نومي ـ قد رن بالفعل ثم توقف عدة مرات، ما يعني أن أحدهم يتصل بي ليبلغني شيئًا. إما أن الفندق يحترق، أو أن أحدهم قد مات. رفعت السماعة. كانت مساعدتي، «لورين»، التي تقضي الليلة في منزلي مع كلب ناقِه. قالت لي:
ـ اتصلت وكيلتك «ميريلي»، وهي تظن أن شخصًا ما يحاول أن يتصل بك.
أخبرتها كم كانت الساعة (ألا وهي: الخامسة والنصف من الصباح اللعين، هل فقدت عقلها؟ البعض هنا يحاول أن ينام كما تعلمين!). قالت إنها تعلم كم الساعة في لوس أنجلس، وإن «ميريلي» ـ التي هي وكيلتي الأدبية وأكثر امرأة أعرفها تعقلًا ـ بدت أكيدة حقًّا من أن الأمر هام.
غادرت فراشي. فحصت البريد الصوتي. لا، لا أحد يحاول الاتصال بي. هاتفت

البيت لأخبر «لورين» أن الأمر برمته هراء. قالت:
ـ لا عليك، لقد اتصلوا هنا. إنهم على الخط الآخر الآن. وأنا أعطيهم رقم هاتفك المحمول.
لم أكن متيقنًا بعد مما يجري أو ممَّن كان يحاول أن يفعل ماذا. كانت الساعة الخامسة وخمسًا وأربعين دقيقة صباحًا. ومع ذلك لم يمت أحد، هذا ما كنت متأكدًا تمامًا منه. رن هاتفي المحمول.
ـ مرحبًا. معك «روز تريفينيو». أنا رئيسة لجنة «نيوبري» في «جمعية المكتبات الأمريكية»...
فكرت على نحو مشوش: أوه، «نيوبري». صحيح. رائع. قد أكون «كتاب الشرف» أو شيئًا من هذا. سيكون هذا لطيفًا.
واصلتْ:
ـ ومعي هنا الأعضاء المصوتون في لجنة «نيوبري»، ونريد أن نخبرك أن كتابك...
ـ «كتاب المقبرة»...
قالها أربعة عشر صوتًا مرتفعًا، وفكرت، عندها، أنني قد لا أزال نائمًا، لكنهم على الأرجح لا يفعلون ذلك، على الأرجح لا يهاتفون الناس ويبدون متحمسين على هذا النحو العجيب، من أجل كتب الشرف...
تابعت هي:
ـ ... قد فاز للتو بـ...
فأكملوا معًا، كالجوقة:
ـ ميدالية «نيوبري»!
بدوا سعداء حقًّا. تحققت من غرفة الفندق لأنه بدا واردًا جدًّا أنني ما زلت مستغرقًا في النوم. كان كل شيء راسخًا على نحو مطمئن.
قلت لنفسي: أنت على سماعة الهاتف مع ما لا يقل عن خمسة عشر مُدرسًا وأمين مكتبة ومثل هؤلاء الناس العظماء والحكماء والصالحين، فلا تبدأ بالسباب مثلما فعلت عندما نلت جائزة «هيوجو». كان هذا تفكيرًا حكيمًا، إذ بدأت تتجمع كلمات سباب ضخمة، وجبارة، ومكونة من أربعة أحرف. أعني أنها وُجدت أصلًا لظروف مثل هذه. أعتقد أنني قلت:
ـ أتعنون أن اليوم هو الاثنين؟
وغمغمت ودمدمت وقلت شيئًا مثل:
ـ شكرًا شكرًا، حسنًا كان هذا يستحق إيقاظي من أجله.
وبعد ذلك جُن جنون العالم. قبل أن يدوي المنبه بجوار سريري بوقت طويل، كنت مستقلًّا سيارة في طريقي إلى المطار، وأجري مقابلات مع سلسلة من الصحفيين. سألوني:
ـ ما هو شعورك بعد أن فزت بـ«نيوبري»؟
قلت لهم:
ـ طيب. إنه شعور طيب.
لقد أحببت «تجعيدة في الزمن»([13]) عندما كنت صبيًّا، حتى إن كانوا قد

أفسدوا الجملة الأولى في طبعة «بافين»، وقد فازت بميدالية «نيوبري»، ومع أنني كنت إنجليزيًّا، فإن الميدالية كانت مهمة بالنسبة إليَّ.
ثم سألوا إذا ما كنت على دراية بالجدل الدائر حول الكتب الرائجة والفائزين بـ«نيوبري»، وكيف ينطبق عليَّ حسب ظني. أقررت بأنني على دراية بهذا الجدل.
إن لم تكونوا كذلك، فقد كان هناك بعض الصخب على الإنترنت حول نوعيات الكتب التي فازت بجائزة «نيوبري» مؤخرًا، وحول نوعيات الكتب التي ينبغي أن تفوز بالجائزة في المستقبل، وما إذا كانت جوائز مثل «نيوبري» تستهدف الأطفال أو الكبار. اعترفت لأحد الصحفيين أن فوز «كتاب المقبرة» كان مفاجأة لي، إذ إنني افترضت أن جوائز مثل «نيوبري» تنزع إلى إلقاء الضوء على كتب بحاجة إلى مساعدة، وأن «كتاب المقبرة» لم يكن بحاجة إلى هذه المساعدة.
لقد وضعت نفسي من دون قصد في جانب الرواج، وأدركت بعد حين أن ذلك لم يكن ما قصدته على الإطلاق.
بدا الأمر كأن بعض الناس يعتقد أن هناك انقسامًا بين الكتب التي يتاح لك الاستمتاع بها، والكتب الجيدة لك. وكان منتظرًا مني أن أتخير أحد الجانبين.
كان منتظرًا منا جميعًا أن نتخير أحد الجانبين. وأنا لم أؤمن بذلك، وما زلت لا أؤمن به.
لقد كنت، وما زلت إلى جانب الكتب التي تحبها.

٤

أكتب هذا الخطاب قبل شهرين من إلقائه. مات أبي قبل شهر تقريبًا. كانت مفاجأة. كان بصحة جيدة، سعيدًا، ومعافى أكثر مني، وتصدع قلبه من دون سابق إنذار. فعبرت الأطلنطي، خدرًا ومحزونًا، وألقيت كلمة تأبين، وسمعت من أقارب، لم أرهم منذ عقد من الزمن، إلى أي درجة أشبه أبي، وفعلت ما كان ينبغي فعله. ولم أبكِ قَطُّ.
لم يكن الأمر أنني لم أشأ أن أبكي. بل كان، أكثر من ذلك، أنه لم يبدُ هناك أي وقت، مطلقًا، في دوامة الأحداث، لأن أتوقف وأنفس عن الحزن، ولأدع أيًّا كان ما بداخلي ينفلت. لم يحدث ذلك قَطُّ.
صباح أمس أرسل لي أحد الأصدقاء سيناريو لأقرأه. كانت قصة حياة شخص ما، شخصية متخيَّلة. بعد انقضاء ثلاثة أرباع النص، ماتت الزوجة المتخيلة للشخصية المتخيلة، وجلست على الأريكة وبكيت مثل الكبار، نشيجًا هائلًا موجعًا، ووجهي مبتل بالدموع. تدفقت كل الدموع التي لم أذرفها على أبي، لتتركني منهكًا، وأشبه بالعالم بعد عاصفة، مطهرًا وجاهزًا للبدء من جديد.
أخبركم بذلك لأنه شيء أنساه وأحتاج إلى أن أُذكَّر به... وكانت هذه تذكِرة حادة وصحية.
لي الآن ربع قرن وأنا أكتب.
عندما يخبرني الناس أن قصصي ساعدتهم في تخطي موت أحد أحبائهم ـ ربما يكون طفلًا أو أحد الوالدين ـ أو ساعدتهم في مواجهة مرض أو مأساة

شخصية، أو عندما يخبرونني أن حكاياتي جعلتهم يصبحون قرَّاءً، أو منحتهم مهنة، أو عندما يُرونني صورًا أو كلمات من كتبي موشومة على بشرتهم كشواهد أو تذكارات للحظات كانت بالغة الأهمية بالنسبة إليهم واحتاجوا أن يحملوها معهم أينما ذهبوا... عندما تحدث هذه الأشياء، مثلما حدثت، مرارًا وتكرارًا، فإنني أميل إلى أن أكون مؤدبًا وممتنًّا، لكنني في النهاية أصرف نظري عنها باعتبارها غير ذات صلة.
لم أكتب قصصي ليتخطى بها الناس الأماكن القاسية والأوقات الصعبة. لم أكتبها لأجعل من غير القراء قرَّاءً. كتبتها لأنني كنت مهتمًّا بالقصص. لأن دودة كانت في رأسي: فكرة صغيرة مراوغة احتجت أن أثبتها على الورق وأتفحصها، من أجل أن أكتشف ما أفكر فيه وما أشعر به تجاهها. كتبتها لأنني أردت أن أكتشف ما الذي حدث لاحقًا للناس الذين اختلقتهم. كتبتها لأطعم أسرتي.
لذا شعرت ببعض الخزي لتقبلي الشكر من الناس. كنت قد نسيت ما عناه أدب الخيال لي كصبي، ونسيت ما كان عليه الأمر في المكتبة: كان الخيال مهربًا من اللامتحمَّل، ومدخلًا إلى عالم مضياف لدرجة مستحيلة، حيث الأشياء لها قواعد ويمكن فهمها. لقد كانت القصص طريقة للتعرف على الحياة من دون تجربتها، أو ربما بتجربتها مثلما يتعاطى دسَّاس سموم من القرن الثامن عشر مع تلك السموم، يتناولها بجرعات صغيرة، بحيث يمكنه أن يقوى على تناول أشياء من شأنها أن تقتل شخصًا غير متمرس عليها. في بعض الأحيان يكون الخيال طريقة لمواجهة سموم العالم على النحو الذي يتيح لنا النجاة منها.
وتذكرت. ما كنت لأصبح الشخص الذي أصبحته من دون المؤلفين الذين جعلوا مني ما أنا عليه: المؤلفين الاستثنائيين، والمؤلفين الحكماء، وأحيانًا المؤلفين الذين وصلوا أولًا فقط.
ليست غير ذات صلة، لحظات الاتصال تلك، وتلك المواضع حيث ينقذ الخيال حياتك. إنها أهم ما يوجد من أشياء.

٥

إذن كتبت كتابًا عن سكان مقبرة. كنت ذلك الصبي الذي أحَب المقابر بقدر ما رهبها. إن أفضل شيء ـ أفضل وأروع شيء ممكن ـ بخصوص المقبرة في البلدة التي نشأت فيها في مقاطعة ساسيكس، أن ساحرة دُفنت فيها، بعد أن أُحرقت في الشارع الرئيسي.
خاب أملي بوصولي إلى مرحلة المراهقة وإدراكي، حين أعدت قراءة النقش، أن «الساحرة» لم تكن على الصورة التي لازمتني، كان القبر لثلاثة شهداء بروتستانت أُحرقوا على عواميد بأمر من ملكة كاثوليكية. سيصبح هذا، إلى جانب قصة لـ«كبلنج» عن مِنخس أفيال مرصع بالجواهر، نقطةَ البدء لقصتي «شاهد قبر الساحرة». على الرغم من أنها شكلت الفصل الرابع، فإنه أول فصل كتبته من «كتاب المقبرة»، كتاب رغبت في كتابته لأكثر من عشرين عامًا.

كانت الفكرة شديدة البساطة، أن أحكي قصة صبي نشأ في مقبرة، مستلهمًا صورة واحدة: ابني «مايكل» ـ الذي كان في الثانية من عمره، وهو اليوم في الخامسة والعشرين، نفس عمري في ذلك الحين، ويفوقني طولًا الآن ـ على دراجته ثلاثية العجلات، يقودها بين المقابر على الجانب الآخر من الطريق تحت ضوء الشمس، مارًّا بالقبر الذي اعتقدت ذات مرة أنه يخص ساحرة.

كنت، كما قلت، في الخامسة والعشرين من عمري، وكانت لديَّ فكرة لكتاب، وكنت أعرف أنها فكرة حقيقية.

حاولت كتابتها، لكنني أدركت أنها كانت أفضل، كفكرة، من الكاتب الذي كنته.

لذا استمررت في الكتابة، لكنني كتبت أشياء أخرى، مواصلًا تعلم حرفتي.

كتبت لعشرين سنة، حتى رأيت أنه يمكنني أن أكتب «كتاب المقبرة»، أو على الأقل، أنني لم أعد أتحسن.

أردت أن يكون الكتاب مؤلفًا من قصص قصيرة، لأن «كتاب الأدغال» كان قصصًا قصيرة. وأردت له أن يكون رواية، لأنه كان رواية في رأسي. الشد بين هذين الأمرين سبب لي، ككاتب، بهجة وألمًا في آنٍ.

كتبتها على أفضل وجه ممكن. هذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لكتابة شيء ما. هذا لا يعني أنها ستكون جيدة. هذا يعني فقط أنك تحاول. والأهم، أنني كتبت القصة التي أردت أن أقرأها.

استغرقت مني وقتًا طويلًا للغاية كي أبدأها، واستغرقت مني وقتًا طويلًا للغاية كي أفرغ منها. ثم، ذات ليلة في فبراير، وجدتني أكتب الصفحتين الأخيرتين.

في الفصل الأول كنت قد كتبت قصيدة غير موزونة وتركت السطرين الأخيرين من دون أن أكملهما. وساعتها، حان الوقت لأنهيها، لأكتب السطرين الأخيرين. ففعلت. القصيدة، كما أدركت، تنتهي هكذا:

واجِه حياتك

بألمها ومسراتها

لا تترك طريقًا إلا وتجربه

ولسعتني عيناي، للحظات. حينها، وحينها فقط، رأيت بوضوح، للمرة الأولى، ما كنت أكتبه. كنت قد نويت أن أكتب كتابًا عن طفولة؛ كانت طفولة «بود»، وكانت في مقبرة، لكنها مع ذلك، طفولة مثل أي طفولة أخرى. لكنني كنت ساعتها أكتب عن أن يكون المرء والدًا، وعن المأساة الجوهرية الأكثر كوميديا للأبوة: إذا أديت واجبك كما ينبغي، إذا أنشأت أطفالك، كأب، تنشئة جيدة، لن يحتاجوا إليك بعدها. إذا تصرفت كما ينبغي، سوف يمضون في طريقهم. وتكون لهم حيوات، ويكوِّنون عائلات، ويمتلكون مستقبلًا.

جلست في طرف الحديقة، وكتبت آخر صفحة من كتابي، وأدركت أنني قد كتبت كتابًا أفضل من ذلك الذي نويت أن أكتبه. كتابًا، ربما كان أفضل مني.

لا تستطيع أن تخطط لذلك. في بعض الأحيان تعمل على شيء بأكبر قدر ممكن من الجدية، ومع ذلك تفسد طبختك. وأحيانًا تكون الطبخة أفضل مما

حلمت به.
وبعد ذلك، سواء كان العمل جيدًا أو رديئًا، سواء أدى إلى ما كنت تأمل فيه أو أخفق، عليك ككاتب ألا تبالي، وتمضي إلى الشيء التالي، أيًّا كان الشيء التالي.
ذلك هو ما نفعله.

٦

في أي خطاب، يفترض منك أن تقول ماذا ستقول، ثم أن تقوله، ثم أن تلخص ما قلته.
لست أعرف ما الذي قلته الليلة بالفعل. لكنني أعرف ما قصدت أن أقوله:
القراءة مهمة.
الكتب مهمة.
أمناء المكتبات مهمون. (كذلك، المكتبات ليست مرافق لرعاية الأطفال، لكن أحيانًا يربي الأطفال البريون أنفسهم بين كومات الكتب).
إنه أمر عظيم وغير مرجح أن تكون رائعًا في نظر أطفالك.
أدب الأطفال هو أهم أدب على الإطلاق.
هكذا. نحن الذين نصنع القصص نعرف أننا نحكي الأكاذيب لنتعيش منها. لكنها أكاذيب جيدة تخبر بأشياء حقيقية، ومن واجبنا تجاه قرائنا أن نبنيها على أحسن صورة ممكنة. لأنه يوجد شخص ما في مكان ما بحاجة إلى تلك القصة. شخص سوف يكبر محاطًا بمشهد مختلف، ومن دون تلك القصة سيكون شخصًا مختلفًا، وبتلك القصة ربما سيمتلك الأمل، أو الحكمة، أو الرحمة، أو الراحة.
ولذلك نحن نكتب.

القصة وراء
كتاب المقبرة

* * *

بقلم نيل جايمان

كنا في سن الشباب، وفقراء للغاية. كانت الغرف التي أستأجرها تعلو متجرًا في مبنى عالٍ وهزيل وقديم. كان المطبخ والصالة في طابق، وغرفة نوم ومكتبي وحمام في الطابق التالي، وفي أعلى المنزل، كانت هناك غرفة نوم كبيرة في العلية، وغرفة واطئة وطويلة يمكن بالكاد لشخص بالغ أن يقف فيها بشكل مستقيم، وكان فيها سرير طفل وقفص للعب. كان ابني، «مايكل» في الثانية من عمره، ويحب دراجته ثلاثية العجلات أكثر من أي شيء، لكن لم يكن هناك مكان ليقودها داخل المنزل، ليس من دون أن يتدحرج على الدرج.

لذا كنت أحمله مع دراجته عبر الحارة الضيقة إلى أرض الكنيسة المحلية، وكان يقودها في المكان حتى يكتفي، وأجلس أنا وأقرأ كتابًا في ضوء الشمس، وأراقبه، وأنظر إلى الشواهد الرمادية للقبور، وقد مسح الزمن الأسماء عنها جزئيًّا، وأتعجب من القدر الذي يبدو به طفل مرتاحًا في مقبرة.

حينها بدأ الأمر. فكرت: سأسميه «كتاب المقبرة». مثل «كتاب الأدغال» لـ«رديارد كبلنج».

صعدت إلى حجرة مكتبي وحاولت أن أكتب مقدمة يغادر فيها طفل المنزل بينما والداه يتشاجران، ويذهب إلى المقبرة. يظهر ملاك الموت، ويوافق شبحٌ ـ أو ربما كان شيطانًا ـ على تربية الطفل. بلغت نحو خمس صفحات ولم تكن جيدة جدًّا. (وجدت مؤخرًا نسخة منها مطبوعة على الآلة الكاتبة وقرأتها بفضول، ثم هززت رأسي وأبعدتها مرة أخرى).

فكرت في الكتاب كثيرًا. عاهدت نفسي أن أصبح كاتبًا جيدًا بالقدر الكافي لأوفي الكتاب حقه.

كتبت.

عند نقطة معينة، يئست من كتابة كتابي في يوم ما، لكنني ما زلت أحب المقابر، وما زلت أحب فكرتي.

بعد عشر سنوات، حاولت مجددًا. في وقت متأخر من إحدى الليالي، كنت أشاهد فيلمًا وثائقيًّا عن فِرق الموت في أمريكا الجنوبية. كانت إحدى الفتيات تختبئ في ضريح كل ليلة، ولم تأتِ فِرق الموت إلى المقبرة. اتضح شيء كان مفقودًا في كتابي غير المنجز. سبب المكوث في المقبرة: الحماية. نعم.

في كوخ يشرف على بحيرة ويسكونسن كتبت المشهد الأول نفسه مرة أخرى ـ وهو كل ما كان واضحًا في رأسي، مصاص دماء يعرض أن يكون حارسًا للطفل، ومستذئب يعرض أن يعلمه ـ لكنني قررت مجددًا أنه لم يكن جيدًا بما فيه الكفاية، وعزمت مرة أخرى أن أنتظر حتى أكون كاتبًا جيدًا بما يكفي لإعطاء الفكرة حقها. لا أعلم أين هي هذه النسخة. كنت أعرف أنني لن أعود

إليها أبدًا.
ثم في وقت ما من عام ٢٠٠٤، أدركت أنني أصبحت جيدًا بالقدر الممكن لي. تأجيل كتابي لأنني لم أكن كاتبًا جيدًا بدرجة كافية، بدا أمرًا عديم الجدوى. بدأت بقصة من «كتاب المقبرة»، واحدة من منتصف الكتاب تمامًا، كتبت صفحة وقررت أنها فظيعة، لكنني قرأتها لابنتي «مادي» على أي حال، لأنها تساءلت عما أفعله. سألتني:
ـ ما الذي يحدث بعد ذلك؟
كان سؤالها هو الحافز الذي احتجته. كان عليَّ أيضًا أن أكتشف ذلك. لذا واصلت كتابة القصة، عن شبح ساحرة بحاجة إلى شاهد قبر. عندما انتهيت منها عدت إلى بداية الكتاب وكتبت الفصل الأول، ثم الثاني، والثالث، كل قصة في مكانها بالترتيب.
كتبت الحكايات في أماكن مختلفة. الفصول الثلاثة الأولى كتبتها في منزل صغير في كورنول، في خارج الموسم. كان الضباب يتموج حول المنزل مثل المحيطات، تاركًا قمم التلال تبرز مثل جُزر، وكنت أكتب في الحديقة ملتفًّا في بطانية عندما تظهر الشمس، أو بالداخل، إلى جوار المدفأة، عندما تختفي.
كتبت الفصل السادس، عن «بود» في المدرسة، في نيو أورلينز قارسة البرودة، في فندق متداع. وأنهيت الكتاب في مقصورتي الخاصة في طرف الحديقة، وأنا أطرف بعينيَّ لأحبس دموعًا لاسعة. فهمت حينها، وحينها فقط، لماذا لم أكتب الكتاب وأنا أب شاب. لقد احتجت أن أقطع الطريق بأكمله مع أبنائي، أن أرعاهم، أن أحبهم، وأن أعرف بأنك، في النهاية، يجب أن تدعهم يذهبون.
باع الكتاب ملايين من النسخ. لست أعرف ما معنى «ملايين من النسخ»، إنه مجرد رقم. لكنني التقيت قرَّاءً، وكل قارئ التقيته يعني لي شيئًا حقيقيًّا. لقد أخبروني كيف تغيرت حياتهم بفضل ما ورد في الكتاب على لسان «سيلاس» أو «إليزا همبستوك» (نعم إنها تنتمي إلى عائلة «همبستوك» من «المحيط في نهاية الدرب») أو «بود» نفسه. لقد أظهروا لي وشومهم من «كتاب المقبرة» أو أعمالهم الفنية. لقد أظهروا لي شيئًا لن أنساه أبدًا: يمضي الفن في طريق ذي اتجاهين. يحكي الكُتاب قصصًا ويظنون أنها تعني شيئًا ما؛ ويأخذ القراءُ القصصَ إلى حيواتهم فتعني شيئًا آخر.
لقد أصبحت بارعًا في رسم شواهد القبور وعليها أسماء الناس على الصفحة الأولى من الكتاب. (لكنني لن أرسم شواهد قبور للأطفال الصغار، أو للذين لم يولدوا بعد؛ يبدو الأمر كنذير شؤم، على ما أظن، مع أنني لا أعتبر نفسي شخصًا يؤمن بالخرافات).
تعلمت كثيرًا عن الحياة وأنا أكتب «كتاب المقبرة»، وأيضًا وأنا أعيش بما يكفي لأكون قادرًا على كتابته. أظن أحيانًا أنه سيكون من الجيد أن أمُر على «سيلاس» وبقية حراس الشرف، وأرى ما الذي يفعلونه في هذه الأيام. أعلم أن «سيلاس» رجع إلى دياره بعد أحداث الكتاب، وأنه وجد الأمور قد تغيرت في غيابه...

وأعرف أن الحكاية إذا أتت، ستأتي في وقتها.

صفحات من مخطوطة
كتاب المقبرة

* * *

1

The Graveyard Book.

Chapter One

There was a hand in the darkness, and it held a knife. The knife had a handle of polished bone and a blade finer and sharper than any razor. If it cut you, you might not know it, not immediately.

The knife had done almost everything it had been brought to that house to do, and both the blade and the handle were wet.

The street door was still open, just a little, where the knife and the man who held it had slipped in and wisps of night-time mist slithered and twined into the house through the open door.

The man Jack paused on the landing. He pulled a large white handkerchief from the pocket of his black coat and he wiped off the knife and his gloved right hand, which had been holding it. Then he put his handkerchief away, and continued the hunt. He had left the woman in her bed, the man on the bedroom floor, the older child in its brightly-

had abandoned him.

"Blow me down," said the Duke of Westminster, scratching his nose (a little dried up thing ~~that~~ was mostly nostrils), "what you need is to go somewhere ~~the~~ people would appreciate you."

"There isn't anywhere," said Bod. "And I'm not allowed out of the graveyard."

"You needs a whole city of friends and playfellows," said the Bishop of Bath and Wells, wiggling his long tongue. "A city of delights, of fun and magic, where you would be appreciated, not ignored."

Bod said, "The lady who's looking after me. She makes horrible food. ~~Boil~~ Hard boiled eggs soup and things."

"Food!" said the Honourable Archibald Fitzhugh. "Where we're going the food's the best in the whole world. Makes me tum rumble, and me mouf water just thinking about it."

"Can I come with you?" asked Bod.

"Come with us?" said the Duke of Westminster. He sounded shocked.

"Don't be like that, your grace," said the Bishop of Bath and Wells. "Have a blinking heart. Look at the little mite. 'Asn't 'ad a decent meal in I don't know how long."

"I vote to take him," said the Honourable Archibald Fitzhugh. "There's good grub back at our place." He patted his stomach to show just how good the food was.

 to elaborate.

"I also," said Miss Lupescu, primly, "I also learned things."

"Good," said Silas. An owl hooted in the branches of an oak tree. "I understand" said Silas, after a while, "that you both went somewhat further afield than I would have been able to follow, some weeks ago. I would advise caution, but, unlike some, the ghoul-folk have short memories"

"I ~~understand," said Miss Lupescu, tartly,~~

"~~Hot yo~~ Bod said, "It's okay. Miss Lupescu looked after me. I was never in any danger."

Miss Lupescu looked at Bod, then she looked at Silas.

"There are so many things to know," she said. "Perhaps if I came back, in high summer, whether you have to be here or not, to teach the boy."

Silas looked at Miss Lupescu, and he raised an eyebrow a fraction. Then he looked at Bod.

"I'd like that," said Bod.

3

END CHAPTER THREE

Chapter Four: The Witch's Headstone

(already written).

═

Chapter Five: Danse Macabre

Something was up, Bod was certain of it. It was in the crisp winter air, in the stars, in the wind, in the night. It was there in the rhythms of the long nights and the fleeting days.

Mistress Owens pushed him out of the Owens's little tomb. "Now, get along with you," she said. "I've got business to attend to."

Bod looked at his foster-mother. "But it's cold out there," he said.

"I should hope so," she said, "it being winter. That's as it should be. Now," she said, more to herself than to Bod, "shoes. And look at this dress – it needs hemming. And cobwebs – there are cobwebs all over, for heaven's sakes. You get along," this to Bod once more. "I've plenty to be getting on with, and I don't need you underfoot."

~~been, when he heard something,~~ ~~and felt something brush his face.~~
~~"Look, Silas, it's snowing!" he said, joy filling his chest and his head. "It's really snow!"~~

been to say them, when something distracted his attention: a noise, soft and gentle, and a touch as something brushed his face.

All thoughts of dancing were forgotten, then, and his fear was replaced with delight and with awe.

It was the third time in his life that he had seen it.

"Look, Silas, it's snowing!" he said, joy filling his chest and his head, leaving no room for anything else. "It's really snow!"

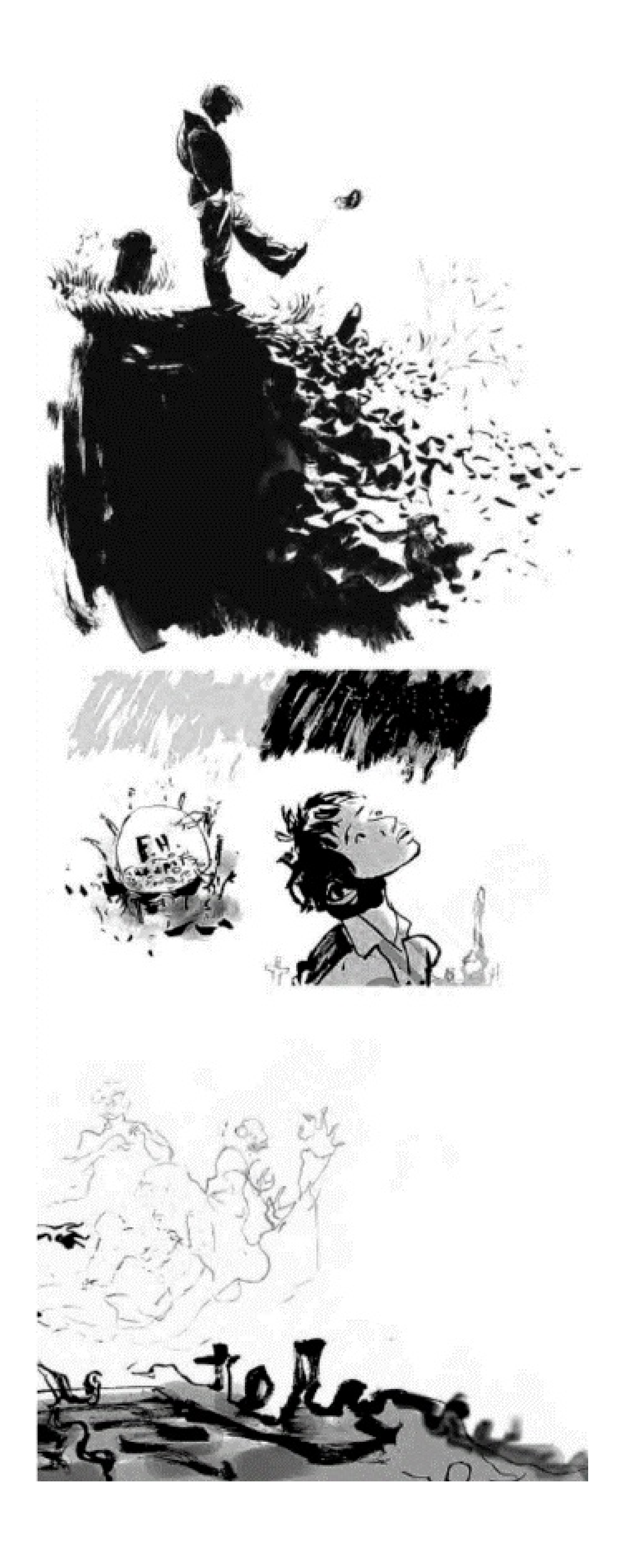
– END CHAPTER FIVE –

اسكتشات من
كتاب المقبرة

* * *



اسكتش لنيل جايمان
اسكتشات لدايف ماكين


F.H.







Notes

[←1]

اختصار للاسـم «لا أحد» بالإنجليزية (nobody). (المترجم).

[←2]

) يمكن من السياق فهم أنها مذؤوبة، واسم «لوبسكو» له رنين روماني ويوحي بالذئاب بشدة. (المترجم).

[←3] هذه غيلان، ولكنها تسمي نفسها بأسماء مشاهير البشر. (المترجم).

[←4] حجر مسامي كان يُعتقد قديمًا أنه قادر على شفاء عضات الثعابين. (المترجم).

[←5]

من أغنية أطفال بريطانية اسمها «برتقال وليمون»، يقال إن أصلها يتعلق بالإعدام في ميدان عام، وهي تستخدم أيضًا في لعبة شبيهة بلعبة «افتحي يا وردة، اقفلي يا وردة» عندنا. (المترجم).

[←6]

الاستهلاك: «Consumption» هو الاسم القديم لمرض الدرن. (المترجم).

[← 7]

الخامس من نوفمبر، مع محاولة «جاي فوكس» لنسف البرلمان البريطاني. (المترجم).

[8←]

في الغرب يضع الحلاقون على أبوابهم عمودين ملونين بالأحمر والأبيض للدلالة على مهنة صاحب المحل. ومن الواضح هنا أن من طلب «دهانًا مخططًا» من الصبي كان يداعبه دعابة قاسية. (المترجم).

[←9]

واحدة من ربات الفنون التسع، هي المسؤولة عن بهجة الرقص. (المترجم).

[←10] هي زوجة «أجاممنون» الملك الإغريقي. (المترجم).

[←11]

«هيرو» و«لياندر» عاشقان في أسطورة إغريقية قديمة، على غرار حسن ونعيمة وقيس وليلى في تراثنا وإن كانت مأساوية جدًّا. (المترجم).

[←12]

من مسرحية «الملك لير» لـ«وليم شيكسبير». (المترجم).

[←13]

رواية للناشئة من تأليف الكاتبة الأمريكية «مادلين لانجل»، صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٦٢. (المترجم).